BOBST LIBRARY
3 1142 00798 8614

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

جامعة الدول العربية
الإدارة الثقافية

الأستاذ الجليل سيسو فهيم
سيد دار الوثائق العربية
مع تحيات الإدارة الثقافية

MU'TAMAR AL-ĀTHĀR FĪ BILĀD AL-'ARABĪYA

مؤتمر الآثار في البلاد العربية

(المنعقد في دمشق، صيف ١٩٤٧)

مطبعة جامعة فؤاد الأول
القاهرة - ١٩٤٨

DS
56
.M86
1947
c.1

AUG 4 1983

حضرة صاحب الفخامة شكرى القوتلى بك

رئيس الجمهورية السـورية المعظم

الذى تفضل فشمل المؤتمر برعايته

تصـــدير

بقلم حضرة صاحب العزة الدكتور أحمد أمين بك

من دواعى غبطتى أن أقدّم للقراء خلاصة أعمال " مؤتمر الآثار فى البلاد العربية " بعد أن قدّمت لهم أعمال المؤتمر الثقافى للغة العربية ، وقد عقد هذان المؤتمران فى صيف واحد سنة ١٩٤٧ ، أحدهما وهو المؤتمر الثقافى فى بيت مرى بلبنان ، وثانيهما وهو مؤتمر الآثار فى دمشق . ومما يزيدنى اغتباطاً نجاح هذين المؤتمرين ووضعهما الحجر الأساسى فى بناء التعاون بين الأقطار العربية ، وهو ما أرجو أن يتم بنيانه حتى يثمر ثمرته المرجوّة إن شاء الله .

وكان من أبهج المناظر التى شاهدناها فى مؤتمر الآثار أن نرى عدداً كبيراً من المختصين فى الآثار على اختلاف ألوانها من أبناء العرب يعرضون نتائج بحوثهم ويرسمون الخطط للبحث عن الآثار وصيانتها . وقد كان هذا العمل لعهد قريب ، وقفاً على الأجانب ، فهم الذين يأتون ديارنا يبحثون عن آثار أجدادنا ونحن عالة عليهم ننتظر نتيجة أبحاثهم وليس فى استطاعتنا مشاركتهم . فاذا رأينا اليوم من بين أبناء البلاد من حذقوا دراسة الآثار وأخذوا عبء البحث عنها واستكشافها والعمل على صيانتها حمدنا ذلك كل الحمد واغتبطنا كل الاغتباط .

وللعناية بآثارنا فوائد لا تحصى فهى سجل لحضارتنا تدل على ما وصل اليه أسلافنا فى العلوم والفنون فى العصور المختلفة من رقى ومدنية ، ودلالتها على ذلك باقية على الزمان . فقد تضيع الأوراق المحفوظة والكتب الموروثة ، وقد يخطئ التاريخ فينسب عملا لآخر ويحدّد للعمل زمناً غير الزمن الذى حدث فيه ، وقد يهمل التاريخ عادات وتقاليد للأمم فتصحح ذلك كله الآثار بما سجلت ودونت على مخلفات لا يقوى على محوها الزمان ، ولا سيما أن الآثار هى الذروة التى بلغها العلم والفن فى عصرها ، فأبنية الشعوب وآثارها وأنواع فنونها يزول أكثرها مع الزمن ، وإنما يبقى ما احتشد له

الملوك والطبقة الارستقراطية وأودعوه من عصارة العلوم والفنون فى عصرهم وحشدوا لها مهرة الصناع والمهندسين والعلماء ليحفظوا فيها مبلغ جهدهم ويحيطوها بأنواع العظمة التى تصد الزمن عن العبث بها . فدراسة الآثار دراسة حضارة ، ودراسة تاريخ ، ودراسة علم وفن .

وقد اختص كل قطر من الأقطار العربية بنوع من الآثار يتفق وتاريخه ومدنيته وحضارته وتقاليد شعوبه ، مما قد لا يكون له نظير فى الأقطار الأخرى . فدراسة آثار كل قطر على حدتها تنفع من ناحية ، ولكنها دراسة جزئية يكملها ما عند الأقطار الأخرى . لهذا كان تعاون الأثريين فى الأقطار المختلفة مما يسد هذا النقص ويحقق هذا الكمال بتبادل الأبحاث والنشرات والصور .

ثم هذه الآثار مصدر لنوع من الثقافة لا غنى عنه للناشئة والمتعلمين ، إذ هو يبعث فيهم الاعتزاز بماضيهم والفخر بأجدادهم ، ليبنوا على اعتزازهم بالقديم اعتزازاً بالحاضر والمستقبل .

إذن كان لابد من التعاون بين رجال الآثار فى الأقطار العربية المختلفة كى ينتفع كل من آثار كل ، وكيف يستفاد من الآثار فى ثقافة الناشئين والمتعلمين ، وكيف يسنون القوانين المتحدة لترميم الآثار وصيانتها من أحداث الزمان وحفظها من أيدى الخاطفين ونحو ذلك من ضروب المعونة التى لابد منها لتحقيق الغرض المنشود . وهذا ما دعا الإدارة الثقافية للجامعة العربية الى عقد هذا المؤتمر الأول الذى يعدّ خطوة أولى يتلوها عقد مؤتمرات أخرى لتحقيق المنافع المتبادلة .

ونغتنم هذه الفرصة لشكر سوريا حكومة وشعباً ، وعلى رأسها فخامة رئيس الجمهورية شكرى بك القوتلى على ما بذلوا من معونة صادقة لإنجاح هذا المؤتمر والوصول به الى غايته .

كما أشكر الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن على ما قام به من جهد كبير فى إعداد المؤتمر وتنظيم أعماله والقيام على إخراج هذا السفر القيم فى هذا الشكل الأنيق .

فلهم جميعاً منا أطيب الثناء والله يتولى لهم أحسن الجزاء .

القاهرة فى ٦ ديسمبر سنة ١٩٤٨

أحمد أمين

عقد المؤتمر بقصر العظم في دمشق

تحت رعاية

حضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية السورية

وقد تفضل فخامة الرئيس بتشريف جلسة الافتتاح

رياسة الجلسات

رأس جلسة افتتاح المؤتمر وجلسة الاختتام :

حضرة صاحب المعالى وزير المعارف السورية .

تناوب رياسة الاجتماعات العامة :

المندوبون الأول فى وفود سورية ، فالعراق ، فالمملكة العربية السعودية ، فلبنان ، فمصر ، فاليمن .

مثّل الجامعة العربية فى المؤتمر :

الأستاذ الدكتور أحمد أمين بك ، الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام بك ، الأستاذ سعيد فهيم بك .

المكتب الفنى للمؤتمر

الأمير جعفر الحسنى	رئيساً
الأستاذ سعيد فهيم بك	وكيل الإدارة الثقافية بالجامعة العربية
الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن	السكرتير العام للمؤتمر
الأستاذ على جمال الدين حسنين . .	السكرتير العام المساعد
جلال زريق بك	أعضاء
الدكتور سليم عادل	
السيد عبد العزيز عثمان	

اللجنة الإدارية السورية

جلال زريق بك

السيد مطيع المرابط

السيد نظمى خير

السيد صلاح الدين المنجد

مندوبو الدول

سورية :

الأمير جعفر الحسنى

السيد سليم عادل عبد الحق . . محافظ متحف دمشق

السيد عبد العزيز عثمان . . . محافظ متحف حلب

العراق :

السيد طه باقر . . . . . أمين المتحف العراقى

السيد فؤاد سفر . . . . . الملاحظ الفنى فى مديرية الآثار القديمة العامة

السيد بشـــير يوسف فرنسيس مفتش الآثار القديمة

المملكة العربية السعودية :

الأستاذ عبد الرحمن البسّام

الأستاذ الســـيد محمد شطا

لبنان :

الأمير موريس شهاب . . . . مدير مصلحة الآثار .

مصر :

الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن أستاذ الآثار الإسلامية بجامعة فؤاد الأول

الأستاذ عبد الهادى حمادة . . مدير قسم التفاتيش بمصلحة الآثار المصرية

الدكتور عبد المنعم يوسف أبو بكر الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الدكتور أحمد بدوى . . . . الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الدكتور أبو النجا عبد الله . . وكيل قسم الهندسة والحفائر بمصلحة الآثار المصرية

الدكتور محمد مصطفى . . . . أمين دار الآثار العربية بالقاهرة
الأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق أمين متحف كلية الآداب بجامعة فاروق الأول
الأستاذ عبد السلام محمد حسين المهندس بمصلحة الآثار المصرية

اليمن :

الأستاذ أحمد فخرى . . . . . الأمين بالمتحف المصرى بالقاهرة

مندوب حكومة فلسطين :

السيد نعيم مخولة . . . . . مفتش بدائرة الآثار القديمة فى حكومة فلسطين

مندوب جامعة الدول العربية :

الأستاذ حسن عبد الوهاب . . مفتش الآثار العربية بالقاهرة

مندوب الهيئة العربية العليا فى فلسطين :

الأستاذ محمد عزة دروزة

مندوبو الهيئات العلميـــة

جمعية الآثار الإسلامية :

الأستاذ على جمال الدين حسنين . عضو الجمعية وكبير مهندسى الآثار فى الحكومة السورية.

جمعية الآثار القبطية :

الأستاذ شارل بشتلى . . . . . سكرتير عام الجمعية

اتحاد مدرسة الثقافة الأثرية بالقاهرة :

الأستاذ محمد عباس بدر . . . . المهندس بادارة حفظ الآثار العربية بالقاهرة والمدرس المنتدب بالمدرسة العليا للثقافة الأثرية

الأستاذ محمد حسن عبد الرحمن

الأستاذ عبد المهيمن جعفر

الأستاذ عبد السلام محمد عمر

الأستاذ محمد السيد العجيزى

الأعضـــاء

الخورى يوسف نصر الله (لبنان) أستاذ التاريخ فى الاكليريكية الكبرى للمرسلين البولسيين — حريصا (كسروان)

الأب جان ستاركى . . . . . عضو المجمع الفرنسى للآثار فى بيروت
M. l'abbé Jean Starcky

الأستاذ أرنست ويل . . . . . عضو المجمع الفرنسى للآثار فى بيروت
M. Ernest Will

السيد خالد معاذ . . . . . سورية

السيد علاء الدين الخانى . . . »

السيد رشاد قصيباتى . . . . . »

الأستاذ أحمد إبراهيم كامل . . مصر

الدكتور محمد حيدر بك . . . لبنان

السيد بسّام كرد على . . . . سورية

الدكتور يوسف عرقتنجى . . . »

الأستاذ وهبى الحريرى . . . . »

التمهيد لعقد المؤتمر

١

مؤتمر الآثار فى البلاد العربية

غايتـــه ووسائله

١ — رأت اللجنة الثقافية للجامعة العربية أن يعقد مؤتمر يلتقى فيه المعنيون بشئون الآثار فى البلاد العربية ، ويسمى : « مؤتمر الآثار فى البلاد العربية » .

٢ — وهدف هذا المؤتمر تبادل الآراء العلمية والفنية والعملية التى تكفل الوصول إلى المحافظة على تراث الشرق العربى ، ووضعه فى الإطار اللائق به ، وإلى العناية بنشر الثقافة الأثرية ، وتقوية الصلات بين البلاد العربية ، وتذليل العقبات فى سبيل تحقيق التعاون بينها فى الكشف عن الآثار ، وحفظها ودراستها .

٣ — تشمل أعمال المؤتمر :

(ا) إلقاء محاضرات علمية وفنية ، لتعريف أمم الشرق العربى بعضها بآراء بعض فى المسائل الأثرية والتاريخية .

(ب) دراسة الوسائل التى تكفل تحقيق أغراض المؤتمر ، وتأليف لجان من أعضائه لهذا الغرض ، ورفع نتائج تلك الدراسة إلى حكومات الدول العربية .

٤ — يتفرع المؤتمر إلى اللجان الثلاث الآتية :

(ا) لجنة قوانين المحافظة على الآثار ، وتنظر فى صيانة الآثار ، والمحافظة عليها ، وفى أعمال التنقيب عنها ، وفى تجارة العاديات ، وفى تبادل الآثار .

(ب) لجنة نشر الثقافة الأثرية ، وتنظر فى تبادل الأساتذة والاختصاصيين ، وفى تبادل المطبوعات والصور ، ودراسة الوسائل المختلفة التى تحقق الأغراض التى ينشدها المؤتمر .

(ج) لجنة المصطلحات الفنية، وتنظر فى وضع هذه المصطلحات، وفى توحيدها وتنظيمها، لتسهل الكتابة باللغة العربية فى الفنون والآثار.

ويكون لكل لجنة رئيس وسكرتير ينتخبهما الأعضاء فى أول اجتماع.

٥ — يشترك فى هذا المؤتمر مندوبون رسميون تنتخبهم حكومات الدول العربية وجامعاتها ومعاهدها وهيئاتها العلمية، كما يباح الاشتراك للأفراد المتخصصين فى الدراسات الأثرية والتاريخية والفنية المتصلة بالبحوث التى يضطلع بها المؤتمر، على أن يكون البت فى قبول طلبات الأفراد للمكتب الدائم للجنة الثقافية بجامعة الدول العربية، فلهذا المكتب وحده أن يقر طلبات الاشتراك أو يرفضها دون إبداء الأسباب.

٦ — تقوم بالأعمال التمهيدية للمؤتمر لجنة يعينها المكتب الدائم للجنة الثقافية لجامعة الدول العربية، كما ينتخب هذا المكتب أحد الاختصاصيين ليكون سكرتيراً عاماً للمؤتمر.

٧ — يباح للمشتركين فى المؤتمر أن يلقوا بحوثاً فى آثار الشرق العربى وفنونه، بشرط أن تقرها اللجنة التحضيرية، وعلى ألا يستغرق إلقاء البحث أكثر من خمس وعشرين دقيقة. ويجوز أن يمد هذا الوقت إذا كان البحث يتضمن عرض صور بالفانوس السحرى، أو إذا دعت الضرورة القصوى لذلك.

٨ — تطبع الأبحاث التى تلقى فى المؤتمر فى كتاب، يضم أيضاً ما يتخذه الأعضاء من قرارات.

٩ — يشترك جميع الأعضاء بالتصويت فى اجتماعات اللجان وجلسات المؤتمر. وتصدر القرارات بالأغلبية المطلقة. ويرجح الأصوات — إذا تساوت — صوت رئيس الاجتماع.

١٠ — يقوم المؤتمر بتنظيم معرض للصور والكتب وسائر المطبوعات الأثرية، ويسمح للأفراد والهيئات بالعرض.

٢

تقرير للجنة الثقافية بالجامعة العربية

فى توثيق الروابط بين الدول العربية من الناحية الأثرية

عرض مجمل لقيام الحضارات فى الشرق العربى :

آثار الحضارة الإسلامية منثورة فى بلاد عدة . ولكل بلد طرازه وأشكاله الخاصة . وقد يزخر أحد الأقطار بثروة كبيرة من عصر خاص من العصور . على حين تنقصه بعض مخلفات الحضارة من عهود أخرى . ومن هنا كان التعاون الثقافى من الناحية الأثرية ضرورة لا غنى عنها . فالفنون الإسلامية الأموية لا يمكن أن تدرس دراسة صحيحة إلا فى فلسطين وسورية وشرق الأردن وشمال إفريقية وأسبانيا . وفنون بنى العباس إنما تدرس فى العراق ومصر وشمال إفريقية ، فهى موفورة فى هذه الأقاليم على قلتها فى سورية وفلسطين . وكذلك تدرس فنون الفاطميين فى مصر وشمال إفريقية . وفنون العصر الأندلسى فى أسبانيا وشمال إفريقية . وفنون السلاجقة والأتابكة وبنى أيوب فى سورية وفلسطين والعراق والأناضول . وفنون المماليك فى مصر وسورية وفلسطين ولبنان والحجاز . فطرز الحضارة الإسلامية — كما ترى — موزعة فى الأقطار التى أظلتها راية الإسلام ، ولذلك أصبحت معرفتها تقتضى تهيئة وسائل التيسير على طلاب الآثار والتاريخ والمشغوفين بألوان الثقافة التاريخية والأدبية .

ومن الواجب أن يتعاون أهل تلك الأقطار العربية على النظر فى ذلك التراث ، لأنهم أولى الناس بالنظر فيه ، وأجدرهم باحياء تاريخهم القديم على أسس من العلم الصحيح . والأمم لا تستطيع أن تنهض نهضة صحيحة إلا إذا فهمت ماضيها أحسن الفهم ، واتخذت منه فى حاضرها قنطرة إلى المستقبل . فاذا لم يصيبوا من ذلك كل ما يبتغون فلسوف

يكفيهم من دراسة الماضي ما يجدون فيه من غذاء روحي ممتع . ففي ماضي الشرق العربي غذاء للروح ، وعزاء للنفس ، فيه قامت الحضارات الأولى ، وفيه هبطت أديان السماء ، ومنه نهلت أمم الغرب ، فأخذت عنه حروف الهجاء ، وأصول الكتابة ، ونقلت عنه كثيراً من الفنون والصناعات. وأرض هذا الشرق القريب كانت الجسر الذي انتقلت عليه ألوان الثقافات العلمية والروحية في القرون الوسطى . فحركة إحياء العلوم في الغرب لم تكن غير إحدى ثمرات اتصاله بالشرق من طريق الفتوح الإسلامية وحروب الصليب . هنالك انتقلت علوم المسلمين ومعارفهم من طريق الاختلاط في ميادين السياسة والتجارة وغيرها .

فمشروع توثيق الصلات والروابط بين دول الشرق العربية خير ما يعين أبناءها على فهم تاريخهم على ضوء ذلك التراث الخالد ، وكفيل بتوحيد ألوان الثقافات بين تلك البلاد في هذا العصر الذي سهلت فيه سبل الانتقال بين أقطار الشرق .

ولا بد لأهل كل قطر من تكوين فكرة صحيحة عن تاريخ وحضارات من جاورهم من الأقطار الشقيقة الأخرى من طريق تبادل الزيارات الثقافية ، وتبادل التحف والمطبوعات ، وتنظيم عقد المؤتمرات الدورية وجميع الوسائل الممكنة التي نعرضها .

القوانين الأثرية في البلاد العربية :

بعد أن أصبحت الدول العربية كتلة قوية متراصة ، يتعاون أعضاؤها على خير الشرق العربي والنهوض به ، توالت الجهود في سبيل زيادة التعارف وتنمية العلاقات بين تلك الأمم في شتى النواحي السياسية والثقافية ، وفي تقريب وجهات النظر ، وإزالة عناصر الخلاف . ومن أجل هذا اتجهت آراء المفكرين من رجال الأقطار العربية إلى فكرة توحيد بعض القوانين في تلك البلاد .

وقوانين الآثار في البلاد العربية من تلك القوانين التي يجب بحثها ، والعمل على توحيدها أو تقريبها . فالشرق العربي كله هو مهد الحضارات الإنسانية الأولى ، وتعد آثاره سجلا خالداً لتاريخ الإنسانية ، كما ترجع العلاقات بين أقطاره إلى أقدم عصور الإنسانية وأبعدها .

وقد بحثت اللجنة هل يلزم للوصول إلى الغرض المنشود ، أن يكون هناك قانون موحد للآثار فى جميع الدول العربية ؟ وبعد الدراسة وتبادل وجهات النظر بين الأعضاء ، تبين لهم أن هناك من التفاوت بين تلك الدول من حيث الثقافة الأثرية ووفرة الثراء الذى يساعد على الاهتمام بالآثار اهتماما مثمراً ، ومن الاختلاف من حيث طبيعة المناطق الأثرية ووسائل حراستها وصيانتها وأنواع الآثار فى كل قطر — ما يجعل أمر توحيد القانون فى تلك الأقطار صعباً . من أجل ذلك فضلت اللجنة أن يبقى لكل دولة قانونها الخاص . على أن تكون هناك أسس مشتركة تتضمنها تلك القوانين جميعاً .

ولما كانت الأغراض التى يهدف اليها مشروع توحيد القوانين الأثرية أو التقريب بينها فى البلاد العربية لاتخرج عن نطاق المحافظة على آثارها من جميع الوجوه ، والتآزر فيما بينها للضرب على أيدى العابثين بالآثار والمستهينين بها ، وتنظيم أعمال الحفر ووضع القيود لمنع تسرب الآثار إلى خارج البلاد بطرق غير مشروعة ، والحد من مطامع الدول الأجنبية فى آثار الدول العربية ، وزجر التجار المتلاعبين ، وتضييق الخناق عليهم ، وتبادل الآثار بين الدول العربية تكميلا لمجموعاتها وإظهارا لعظمة الدول الشقيقة — فقد رأت اللجنة أن تعنى بالأمور الأساسية الموصلة لهذه الأغراض ، تاركة لكل دولة من الدول العربية اتخاذ أساليبها الخاصة فى معالجة الأمور التفصيلية والإجراءات الإدارية حسبما يلائم أحوالها الخاصة .

وتنحصر الأمور الأساسية التى يجب أن يشملها قانون كل دولة فيما يأتى :

(أولا) المحافظة على الآثار من العبث والتشويه والهدم والسرقة والتهريب ، ووضع العقوبات الرادعة لمن يقترف ذلك .

وبالرغم من أنه يظهر أول وهلة أن هذا التشريع من أخص شؤون الدولة الداخلية ، فان اللجنة استحسنت النص عليه فى مادة مشتركة فى القانون[1] إذ البلاد العربية أجدر الدول بالتعاون فيما بينها للمحافظة على الآثار . ولا سيما أن الفكرة

---

(١) (قانون مصر ، المواد ١٦ — ١٩ عقوبات . قانون العراق المادة / ٥ عقوبات / ٥٥ ، قانون سورية المادة ١٨) .

التى يأخذ بها العالم المتمدين أجمع هى أن الآثار ليست فى الحقيقة ملكا لدولة من الدول ، لأنها تعد أصول الحضارات البشرية كلها ، ويهم العالم أجمع المحافظة عليها . ولكن ، تحت هذا الستار ، تدخلت بعض الدول الغربية فى شؤون الشرق الأثرية بحجة عجزه عن المحافظة على الآثار .

ويدخل تحت هذا التشريع منع الأفراد من تملك الآثار العقارية ، ووضع النصوص التى تخول للحكومات حق نزع ملكية أى أثر عقارى فى حوزة الأفراد أو الهيئات وإضافته لأملاك الدولة ، إذ اتضح بالبحث أن الأفراد فى بعض الدول العربية يتملكون آثاراً عقارية ، وتكون بذلك عرضة للهدم والتشويه ، بالرغم من العقوبات الموضوعة لمنع ذلك .

ويستتبع هذا التشريع أيضاً حق كل دولة من الدول العربية فى استرداد أى أثر يكون قد خرج منها بطريق غير مشروع إلى دولة أخرى من دول الجامعة . ولما كان هذا الحق لا يشمله القانون الدولى العام ، فقد وجب النص عليه فى القوانين .

(ثانياً) وضع شروط خاصة للبحث عن الآثار ، ومعاقبة من يبحث عن الآثار خلسة[1] .

ويدخل فى هذا الباب تحريم القيام بعمل مجسات أو حفائر أو كسح أتربة للبحث عن آثار فى أى بقعة فى البلاد ، ولو كانت ملكا للفاعل ، ما لم يكن بيده رخصة صادرة من السلطات الأثرية .

ويجب النص على شروط منح الرخصة ، بحيث لا تعطى إلا للعلماء المكلفين من الدولة بهذا العمل ، أو للبعثات والهيئات التى توصى بها الجامعات والمتاحف العالمية ، مع توافر الكفاية والمقدرة على التنقيب من الوجهتين العلمية والمالية . وأن تكون محدودة المدة والمكان . وأن تعين السلطات الأثرية أو تندب موظفاً فنياً وطنياً لملازمة الهيئة أو البعثة القائمة بالحفر لمراقبة تنفيذ الشروط الموضوعة لذلك . وأن يكون المرخص له ملزما بابقاء الآثار

(١) قانون مصر المادة ١٢ ، وتعريب وزارة الأشغال رقم ٥٢ ، قانون العراق المادة ٤٠ ، قانون سورية المادة ٥٦

العقارية وبقاياها وكذا الآثار المنقولة الضخمة فى أماكنها الأصلية أو ردها إليها بعد إتمام الحفر . وأن تكون الآثار الناتجة من أعمال التنقيب كلها ملكا للدولة . مع جواز نزولها عن جزء من تلك الآثار مكافأة أو هدية للجامعة أو المتحف الذى تقوم البعثة بالعمل لحسابه ، وذلك على شرط أن تكون الآثار التى تنزل عنها من المكررات ، وألا تكون مع ذلك من الآثار النادرة أو التى تدخل ضمن المستندات التاريخية الهامة لحضارة الدولة . أو الآثار الهامة لإحدى دول الجامعة العربية والتى تبدى تلك الدولة رغبة فى الحصول عليها . ويجب أن يدخل تحت هذا التشريع نص جديد يعطى لكل دولة من دول الجامعة حق الأولوية فى الحصول على الامتياز للتنقيب عن الآثار فى أراضى سائر دول الجامعة ضمن الشروط الموضوعة لذلك .

(ثالثاً) وضع قيود خاصة للاتجار بالآثار ، مع فرض عقوبات قاسية على من يخالف ذلك [١] .

فلا يجوز الاتجار بالآثار إلا بمقتضى رخصة صادرة من السلطات الأثرية ، ويجب أن يكون للتاجر حانوت أو مخزن لحفظ الآثار خاضع لتفتيش السلطات . وأن يكون لديه سجل خاص يقيد به كل ما لديه من الآثار ومصدرها وتصرفاته فيها . ويشترط أن يكون مصدر الآثار المصرح بالاتجار فيها مصدراً مشروعاً بحسب قانون الدولة . مع حصر المصادر المشروعة فى :

١ — الآثار التى تؤول إلى شخص أو هيئة كنصيب شرعى أو مكافأة نتيجة لعثوره أو اكتشافه آثاراً طبقاً لقانون البلاد ، أو نتيجة لحفر مرخص به نال نصيبه أو مكافأة فيه .

٢ — الآثار التى تكون فى حيازة فرد أو هيئة كمجموعة شخصية اقتناها قبل صدور هذا القانون ، وقدم بها كشفاً مفصلا للسلطات الأثرية على حسب التعليمات الخاصة بذلك ، أو تكون مسجلة وفقاً لأحكام قانون بعض الدول العربية .

وتوصى اللجنة بالأخذ فى هذا الباب بقانون العراق ، إذ هو أوفى القوانين بالغرض .

---

(١) ق مصر المادة ٣ تقرير وزارى رقم ٥ ، ق العراق المادة ٢٧ ، ق سورية المادة ٧٤

(رابعاً) وضع قيود خاصة لتصدير الآثار إلى خارج البلاد ، مع فرض عقوبات شديدة جداً على من يخالف ذلك [١] .

ومن ذلك : ألا يسمح بالتصدير إلا بموجب تصريح من السلطات المختصة .

وألا تخرج الآثار المصدرة عن أن تكون :

١ — على سبيل تبادل الآثار بين متحف وآخر أو هدية لأحد المتاحف وفقاً لقانون الدولة .

٢ — نصيباً أو مكافأة لإحدى الهيئات أو البعثات العلمية التى تمت على يديها حفريات مرخص بها .

٣ — مستوردة من الخارج ومقدما عنها بيان جمركى بالاستيراد لغرض التصريف ، وأعيد تصديرها لسبب من الأسباب .

٤ — مبيعة من تاجر أو مقتن ، على أن تكون مثبتة فى سجلات السلطات الأثرية بمقتضى كشف مقدم عنها من الحائز ، أو تكون مسجلة على حسب قوانين بعض البلاد العربية وقد أجازت تلك البلاد تصديرها .

ومع ذلك يجوز للسلطات المختصة منع تصدير أى أثر إلى خارج البلاد إذا رأت ما يستوجب ذلك من ناحية مصلحة البلاد ، أو إذا لزم هذا الأثر لإحدى دول الجامعة العربية ، وأبدت رغبة فى الحصول عليه . وفى هذه الحالة يكون تقدير الثمن لمصلحة صاحبه خاضعاً لقرار لجنة يؤلفها الوزير المختص ، ويكون قرارها نهائياً ، سواء أكان ذلك لصالح الدولة نفسها أم لصالح إحدى دول الجامعة العربية .

(خامساً) تبادل الآثار بين دول الجامعة . ويقتضى هذا أن ينص فى قانون كل دولة على جواز نزولها عن بعض ما تملكه من الآثار التى ترى الاستغناء عنها إلى دولة أخرى من دول جامعة الأمم العربية ، نظير آثار يهمها الحصول عليها من تلك الدولة .

وقد بينا فيما بعد سبل ذلك التبادل .

---

(١) ق مصر المادة ١٤ — تقرير وزارى رقم ٥١ ، ق العراق ... لا ، ق سورية المواد ٩٧/١٠٧

تبادل المطبوعات :

منذ أكثر من أربعين عاماً ومصلحة الآثار المصرية تبذل جهوداً منظمة فى الكشف عن آثار البلاد فى مختلف مناطق القطر ومن عصوره الفرعونية المختلفة . وتقوم المصلحة إلى جانب ذلك بكل ما تستطيع من تقديم المعونة الخالصة إلى جميع البعثات الأوربية والأمريكية التى تعمل فى البحث عن الآثار المصرية . وقد أثمر مجهودها العلمى فى إخراج كثير من المطبوعات القيمة التى سجلت فيها كل ما تملك من أنواع التحف والوثائق مع تفصيل ما تتضمنه تلك التحف من رسوم وكتابات ليطلع عليها كل من أراد من رجال العلم الذين يكتبون فى تاريخ مصر وحضارتها . وتقوم المصلحة إلى جانب ذلك باخراج مجلة علمية سنوية تضمنها آراء العلماء والباحثين ، لتظهر العالم العلمى على ما أنفقت من جهود فى خلال العام ، ولتبيح للمشتغلين بالآثار نشر نتائج أبحاثهم بمختلف اللغات ، والمصلحة تبادل متاحف الدنيا وهيئاتها العلمية جميع مطبوعاتها ، ويجرى ذلك فى طريق عادى معروف يراعى فيه تقدير أثمان المطبوعات المختلفة .

وتقوم دار الآثار العربية بنصيبها العلمى باخراج مطبوعات أثرية تضمنها دراسة مختلف ما تملك من التحف ، فضلا عن البحث فى شتى ميادين الفنون الإسلامية .

كما تقوم جمعية الآثار القبطية باخراج مجلة سنوية فيها ألوان متنوعة من الدراسات المختلفة للفنون والآثار القبطية .

وكذلك تقوم إدارة حفظ الآثار العربية بطبع كراسة سنوية بأعمالها ، هذا عدا مؤلفات حديثة عن الآثار القبطية والإسلامية .

ولما كنا نعتقد أن متاحف الآثار فى مختلف الأقطار الشقيقة ما زالت فتية بالمقارنة بالمتاحف المصرية ، فطبيعى أن يكون ثراؤها العلمى أقل بكثير مما تملك مصر .

ويجب أن يجرى التعاون العلمى بينها وبين مصر فى ناحية تبادل المطبوعات على قواعد جديدة ، يراعى فيها السماحة من ناحية مصر ، بأن يكون نصيب البلاد الشرقية من التخفيض فى أثمان ما يعطى لها من المطبوعات أوفر من نصيب بلاد الغرب والبلاد الأمريكية .

تبادل الصور الشمسية :

وبمصلحة الآثار المصرية والعربية أقسام للتصوير الشمسى تقوم بتصوير كل ما تملك من تحف فى شتى أوضاعها لتسجيلها ولتسهيل دراستها ، كما تقوم بتصوير الآثار المنبثة فى مناطق البلاد المختلفة . ومن الراجح أن مصالح الآثار فى الأقطار الشقيقة إنما تفعل مثل ذلك . فمن الخير أن تتبادل مصر مع أمم الشرق تلك المجموعات من الصور مصحوبة بشىء من الشرح المفصل لمحتويات كل صورة .

استخدام السينما :

كذلك نرى من أهم الوسائل فى تعريف الجمهور بالآثار أن تعنى الحكومات بأخذ صور مفصلة لمختلف المعالم الأثرية لعرضها فى دور السينما الناطقة مع الشرح اللطيف الدقيق المشوق يقوم به رجال الآثار . على أن تكون تلك الأفلام — علاوة على فائدتها العلمية — بمثابة دعاية طيبة للآثار ترغب الناس فى زيارة المعالم التاريخية فى تلك الأقطار جميعاً .

تبادل الأساتذة الزائرين :

ومن المستحسن أن تتبادل البلاد الشرقية أساتذتها من رجال الآثار والتاريخ فى مواسم خاصة من كل عام ، ليتم بذلك التعاون الثقافى على أساس علمى جدى ذى طابع رسمى .

الإذاعات اللاسلكية :

كذلك تعنى الحكومات بنشر الثقافات الأثرية التاريخية عن طريق الإذاعة اللاسلكية بالقاء الأحاديث المبسطة عن تواريخ الأقطار الشرقية وآثارها وعقائدها الدينية وعاداتها المختلفة .

الرحلات العلمية :

ويجب أن تعنى الحكومات بتنظيم رحلات علمية فى مواسم خاصة من كل عام تتعاون فيما بينها على تسهيل أمورها فى السفر والإقامة ، بحيث تكون نفقاتها سهلة ميسورة تمكن

الطالبين من زيارة المعالم التاريخية فى جميع أقطار الشرق . وأن تقوم بالإشراف على تلك الرحلات هيئة منظمة من رجال التعليم فى مختلف أقطار الشرق العربى ، تضع لها البرامج المنظمة وتقوم بنشر ما تراه ضرورياً من النبذات التاريخية عن مختلف المعالم الأثرية .

المعارض :

ومن وسائل الدعاية للآثار وتعريف الناس بها إقامة المعارض الأثرية فى فترات مختلفة فى كل قطر من الأقطار العربية . على أن أمر ذلك لن يكون بالشىء اليسير نظراً لما يقتضيه من نقل الآثار وتعريضها لأخطار التلف ، وإنما يستعاض عن ذلك بتسهيل زيارة المتاحف تسهيلا يرغب الناس فى الإقبال عليها . وليست المتاحف فى حقيقة الأمر غير معارض دائمة. ولدى وزارة المعارف المصرية فى الوقت الحاضر جمهرة فائقة من أصحاب الثقافات الأثرية يمكن أن تتخذ منهم الحكومة فى هذا الباب أداة طيبة لمعونة الزائرين .

المؤتمرات :

ولما كان التعاون الثقافى بين مختلف الأقطار العربية يستلزم العناية التامة بأمر الآثار والمحافظة عليها وبحث الوسائل اللازمة للعمل على ذلك ، فاننا نرى أن تقوم دول الجامعة العربية بتنظيم عقد مؤتمرات دورية يلتقى فيها المعنيون بشؤون الآثار لتبادل الآراء العلمية والفنية والإدارية التى تكفل النظر فيما بين تلك الدول من الصلات فى هذه الناحية ، وتقوم بتذليل ما يحتمل أن يكون من عقبات فى سبيل تحقيق التعاون المنشود على الوجه الأكمل .

تبادل الآثار بين الدول العربية :

ولإتمام الفائدة التى تهدف الجامعة إليها من وراء ذلك التعاون الثقافى العظيم نرى أن تفكر الدول العربية فى تبادل الآثار فيما بينها . ولما كانت المجموعات الأثرية التى يمكن أن تكون فكرة صحيحة عن حضارة كل قطر من أقطار الشرق العربى كبيرة لدرجة لا يمكن معها وقوع التبادل ، فلذلك نرى أن يكون تبادل الآثار متجهاً إلى هدف واحد ، وهو أن يكون لدى كل دولة من دول الجامعة مجموعة مختصرة من القطع الفنية

الجميلة بحيث يمكن أن تكون مرآة لحضارة القطر الذى تنتمى اليه . ومعرضاً صغيراً يستلفت أنظار الزائرين ويستهوى نفوسهم ويدفعهم إلى الرغبة فى زيارة تلك الأقطار لمشاهدة آثارها . ومن المستحسن أن تقوم متاحف دول الجامعة بعمل نماذج من خير ما تملك من التحف الفنية ، وأن تتبادلها فيما بينها ، وأن يكون تبادل الآثار الأصيلة من القطع المتكررة التى يمكن أن تستغنى عنها دور التحف . كما يجب أن تصحب كل قطعة أصيلة كانت أو نموذجا بشرح مفصل عن تاريخها وقيمتها الفنية ، مع ذكر أوفى المراجع التى تفيد كل من أراد الدراسة من المشغوفين بالنظر فى أصول الحضارات القديمة .

برنامج المؤتمر

برنامج المؤتمـــر

السبت { ٢٨ من شوال سنة ١٣٦٦
{ ١٣ من سبتمبر سنة ١٩٤٧

الساعة ٩ صباحا : اجتماع الأعضاء فى قصر العظم للتعارف وتسلم المطبوعات وترتيب تسجيل الأسماء فى القصر الجمهورى .

الساعة ٥ مساءً : حفلة افتتاح المؤتمر :

كلمة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية السورية .

كلمة صاحب المعالى وزير المعارف السورية .

كلمة المندوب الأول فى وفد سورية (الأمير جعفر الحسنى) .

كلمة المندوب الأول فى وفد العراق (السيد طه باقر) .

كلمة المندوب الأول فى وفد المملكة العربية السعودية (الأستاذ عبد الرحمن البسام) .

كلمة مندوب لبنان (الأمير موريس شهاب) .

كلمة المندوب الأول فى وفد مصر (الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن) .

كلمة مندوب اليمن (الأستاذ أحمد فخرى) .

الساعة ٧ مساءً : اجتماع الأعضاء لانتخاب اللجان الثلاث :

لجنة الثقافة الأثرية ، ولجنة قوانين الآثار ، ولجنة المصطلحات الفنية .

الساعة ٧,٣٠ مساءً : محاضرة الأستاذ عبد الهادى حمادة « القوانين الأثرية فى الشرق العربى » .

الساعة ٨,١٥ مساءً : محاضرة الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن « مستقبل الآثار والفنون فى الشرق العربى » .

الساعة ٩ مساءً : وليمة عشاء من قبل وزارة المعارف السورية .

الأحد { ٢٩ من شوال سنة ١٣٦٦
{ ١٤ من سبتمبر سنة ١٩٤٧

الساعة ٩ صباحاً: محاضرة الدكتور عبد المنعم يوسف أبو بكر « علاقة مصر بأمم الشرق الأدنى فى عصور فجر التاريخ » .

الساعة ٩,٣٠ صباحاً: محاضرة السيد طه باقر « العلاقات بين العراق القديم وبلدان الشرق الأدنى » .

الساعة ١٠,١٥ صباحاً: محاضرة الأستاذ عبد السلام محمد حسين « رسالة الأثر » .

الساعة ١١ ـ ١٢ ظهراً: اجتماعات اللجان .

الساعة ٣ مساءً: محاضرة السيد فؤاد سفر « التنقيبات الأثرية فى العراق وأساليبها » .

الساعة ٣,٣٠ مساءً: محاضرة الدكتور محمد مصطفى « شرف الأبوانى صانع الفخار المطلى فى القرن الثامن الهجرى » .

الساعة ٥ — ٧ مساءً: اجتماعات اللجان .

الساعة ٧,٣٠ مساءً: محاضرة الأمير موريس شهاب « أثر الفينيقيين فى حضارة الشرق » .

الساعة ٩ مساءً: وليمة عشاء من قبل محافظة دمشق الممتازة .

الاثنين { ٣٠ من شوال سنة ١٣٦٦
{ ١٥ من سبتمبر سنة ١٩٤٧

الساعة ٩ صباحاً: محاضرة السيد بشير يوسف فرنسيس « مظاهر الفن فى عواصم العراق الإسلامية القديمة على ضوء الاكتشافات الحديثة » .

الساعة ٩,٣٠ صباحاً: محاضرة الدكتور أبو النجا عبد الله « ترميم الآثار » .

الساعة ١٠,١٥ صباحاً: محاضرة الأستاذ حسن عبد الوهاب « مميزات العمارة الإسلامية فى القاهرة » .

الساعة ١١ ـ ١٢ ظهراً : اجتماعات اللجان .

الساعة ٢,٣٠ ـ ٦ مساءً : زيارات أمكنة أثرية : متحف دمشق ، الجامع الأموى ، تربة صلاح الدين ، تربة نور الدين ، بيمارستان نور الدين ، التكية السليمية والتكية السليمانية ، البيمارستان القيمرى ، قبة الخمراء .

الساعة ٦ مساءً : حفلة شاى فى المجمع العلمى العربى .

الساعة ٧,٣٠ مساءً : محاضرة الأمير جعفر الحسنى « مظاهر الحضارة الإسلامية فى دمشق وحلب » .

الثلاثاء { أول ذى القعدة سنة ١٣٦٦ / ١٦ من سبتمبر سنة ١٩٤٧

الساعة ٩ صباحا : محاضرة الأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق « طراز الإسكندرية » .

الساعة ٩,٣٠ ـ ١٢ ظهراً : اجتماعات اللجان .

الساعة ٢ بعد الظهر : رحلة إلى بلودان .

الساعة ٩ مساءً : وليمة عشاء رئيس مجلس الوزراء فى بلودان .

الأربعاء { ٢ من ذى القعدة سنة ١٣٦٦
١٧ من سبتمبر سنة ١٩٤٧

الساعة ٩ صباحا . . . . . : محاضرة السيد سليم عادل « العلاقات بين الشرق الأدنى و بلاد اليونان » .

الساعة ٩٫٣٠ صباحا . . . . . : محاضرة الأستاذ أحمد فخرى « رحلة إلى مأرب »

الساعة ١٠ صباحا ـ ١٢٫٣٠ بعد الظهر : اجتماعات اللجان .

الساعة ٣ بعد الظهر . . . . . : السفر إلى حلب .

الخميس { ٣ من ذى القعدة سنة ١٣٦٦
١٨ من سبتمبر سنة ١٩٤٧

صباحاً و بعد الظهر : زيارة المعالم الأثرية فى حلب

الساعة ٦٫٣٠ مساءً : محاضرة السيد عبد العزيز عثمان « حفريات تل الحريرى أوماري » .

الجمعة { ٤ من ذى القعدة سنة ١٣٦٦
١٩ من سبتمبر سنة ١٩٤٧

العودة إلى دمشق ، وزيارة المعرة ، وحماه ، وحمص ، وبعلبك .

السبت { ٥ من ذى القعدة سنة ١٣٦٦
٢٠ من سبتمبر سنة ١٩٤٧

الساعة ٩ ـ ١٠,٣٠ صباحا : اجتماعات اللجان .

الساعة ١٠,٣٠ صباحا : اجتماع أعضاء المؤتمر لعرض التوصيات واتخاذ القرارات — حفلة الاختتام .

بعد الظهر : جولات حرة .

الساعة ٩ مساءً : وليمة عشاء فى قصر رياسة الجمهورية .

الأحد { ٦ من ذى القعدة سنة ١٣٦٦
٢١ من سبتمبر سنة ١٩٤٧

صباحاً : جولات حرة ، وزيارة معالم أثرية .

مساءً : السفر إلى القدس .

برنامج

زيارة أعضاء مؤتمر الآثار فى البلدان العربية
لمدينة القدس الشريف

٢١ من سبتمبر ١٩٤٧

بعد الظهر : وصول حضرات أعضاء المؤتمر إلى متحف الآثار الفلسطينى فى القدس حيث استقبلهم الأستاذ ديمترى برامكى . ثم ذهبوا إلى فنادقهم المختلفة .

٢٢ من سبتمبر ١٩٤٧

الساعة ٨,٣٠ : مغادرة حضرات أعضاء الوفود فنادقهم بالسيارات إلى قلعة القدس عند باب الخليل .

الساعة ٨,٤٥ : سير حضرات أعضاء الوفود من القلعة إلى الحرم الشريف برفقة كل من السادة ديمترى برامكى ونعيم مخولة وسالم الحسينى ونجيب نصار .

الساعة ٩ ـ ١١ : زيارة الحرم الشريف .

الساعة ١١ ـ ١١:١٥ : العودة مشياً من الحرم الشريف إلى متحف الآثار الفلسطينى .

الساعة ١١,٣٠ قبل الظهر الى ١ بعد الظهر : زيارة متحف الآثار الفلسطينى .

الساعة ١ بعد الظهر : عودة حضرات أعضاء الوفود إلى فنادقهم بالسيارات .

الساعة ٣,٣٠ بعد الظهر : مرافقة السادة ديمترى برامكى وسالم الحسينى ونعيم مخولة لحضرات أعضاء الوفود من فنادقهم إلى المتحف .

الساعة ٤ـ٥ بعدالظهر : إلقاء مدير الآثار القديمة كلمة ترحيب بالوفود أعقبتها محاضرتان موجزتان فى قاعة المحاضرات .

الساعة ٥ بعد الظهر : حفلة شاى فى فناء الدار .

الساعة ٩ـ١٠,٣٠ مساء: إنارة المتحف بالكهرباء احتفاء بالوفود .

٢٣ من سبتمبر ١٩٤٧

الساعة ٨,٣٠ صباحا : مرافقة السادة ديمترى براميكى وسالم الحسينى ونعيم مخولة لحضرات أعضاء الوفود إلى المتحف .

الساعة ٩ صباحا : الذهاب بالسيارات إلى خربة المفجر .

الساعة ١ بعد الظهر : العودة من خربة المفجر .

حفلة الافتتاح

خطبة فخامة رئيس الجمهورية السورية

أيها السادة :

إن من دلائل يقظة العرب وشعور التضامن القومي السائد بينهم هذه المؤتمرات التي يتوالى عقدها في شتى الأقطار العربية ، فبينما تزهى ربى لبنان بالمؤتمر الثقافي للجامعة العربية تزدهي عاصمة الشام بمؤتمرين عربيين علميين في أسبوع واحد .

إن دمشق الخالدة ، دمشق الأثرية التي تفخر باجتماع المؤتمر العربي الأول للآثار فيها ، قد حفظت معالم الحضارات القديمة ، ليس فقط فيما انطوى عليه تراثها من عاديات بل فيما نقلته للانسانية من تراث هذه الحضارات . فكان لها الفضل في تخليد حضارات أقوام بادوا وعاشت آثارهم في خلال مدنيات تتالت بعدهم وتعاقبت .

لم تكن رسالة الشام مقتصرة على النقل والحفظ ، بل إنها أنشأت مدنية عربية خالصة عم إشعاعها الشرق وبلغ الغرب :

لولا دمشق لما كانت طليطلة ولا زهت ببني العباس بغدان

وهكذا جمعت في ثراها وصحائفها آثار العرب والعجم .

رحم الله شاعر العرب في هذا العصر « شوقي » الخالد الذي تملكه الخشوع أمام ثراها فقال :

« هذا الأديم كتاب لا كفاء له »

وإذ كان هذا الثرى العزيز يطأه الأجنبي ، بكى عليه ورثى له ، فقال :

« رثّ الصحائف باق منه عنوان »

وإنا نحمد الله على أنه لم تمض عشرون عاما على قوله هذا حتى تجددت الصحائف وصار العنوان عنوان الكرامة والحياة ، وافتتح سفر جديد للمجد والسؤدد ، إذ نعمت الأمة

باستقلال الأوطان ، وأدركت عزة السلطان ، ولم يبق على الثرى القديم إلا أن يخرج كنوزه الكامنة .

ما فيه إن قلبت يوما صحائفه إلا قرائح من « راد » وأذهان[1]

وستتيح نعمة الحرية والسيادة لهذه القرائح والأذهان أن تتفتح عن أينع الأثمار إن شاء الله وأن تشرق فى كل ميدان .

لقد كان لعلماء الغرب فضل كبير لا يجحد فى الكشف عن آثارنا ، والعلم فى كل فرع لا وطن له ولا حدود ، ولكن آن لأبناء الشرق العربى أن يتعرفوا بأنفسهم تراثهم العظيم ويعرفوه للغرب ، وأن يوغلوا تنقيباً فى هـذا السفر الدقيق عن تاريخ الحضارات التى أنبتتها تربة وطنهم الكبير ، والتى هى موضع الدراسة والتدريس فى جامعات العالم .

إن مؤتمركم هذا لأول خطوة مباركة تخطوها البلاد العربية فى هذا السبيل ، والفضل فى ذلك يعود لجامعة الدول العربية التى هى محط الآمال لتعزيز كلمة العرب واستعادة مجدهم الباذخ .

فى ظل الجامع الأموى الذى سطع من جوانبه نور الحضارة العربية ، وأسوار دمشق التى امتزجت بتاريخ الأديان المنتشرة فى أنحاء الأرض ، وفى أفياء قصر الحير ومنشآت نور الدين وصلاح الدين والملك الظاهر العلمية والإنسانية وآثار غيرهم من الأبطال والمصلحين القائمة فى دمشق ، أتمنى لكم مع طيب الإقامة فيض الخواطر والقرائح ، وأفتتح باسم الله ثم باسم العلم والعروبة مؤتمر الآثار العربى الأول ، راجياً أن يصيب فى أعماله التوفيق والنجاح .

---

(١) راد ، أى : « راديوم »

كلمة صاحب المعالى وزير المعارف السورية

سيدى حضرة صاحب الفخامة ، سيداتى ، سادتى :

يشرفنى باسم وزارة المعارف السورية أن أتقدم من الجامعة العربية ببالغ الشكر والتقدير على ما تحيط به قضايا الفكر من رعاية واهتمام ، وعلى ما تبذله اللجنة الثقافية فيها من جهود مثمرة ، فلأيام خلت انعقد المؤتمر الثقافى العربى فى لبنان . وها إن مؤتمر الآثار يعقد فى سورية وقد شهدنا فى المؤتمر الثقافى على ربى لبنان راية الفكر الحر ترسم للناشئة العربية خطوط الثقافة الحقة التى تجعل من فتياتنا وفتياتنا مواطنين صالحين للوطن العربى الأكبر ، وقوماً جديرين بحمل مشعل الحضارة الذى خلفه تاريخنا الأغر ، فيحسنون حمله ويزيدون فى نوره وبهائه .

وسنشهد فى مؤتمر الآثار هذا عودة إلى تاريخ هذه الحضارات وإلى الخفايا الدفينة فى باطن الأرض التى انبلج نور المشعل فى رحباتها ، فأضاء الدنيا ، وتناقلته الأجيال ، ونفيق اليوم لنتناوله باليمين ، وقد كنا أول حملته ، ومصدر شعلته .

وإن فى إقامة مؤتمر الآثار معنى عميق الدلالة ، ذاك أن الجامعة العربية ، ولما ينقض على ولادتها أعوام ، تبدو للناظر فتية غضة طرية العود من غرس الأمس القريب ، غير أن جذور هذه النبتة المباركة تذهب بعيداً فى أعماق الأرض وفى سالف الزمان ، جذورها صلة بين الأقطار العربية الشقيقة ، ما انقطعت فى أحقاب التاريخ كلها ، ووشائج ما أغفلت على كر الحدثان برغم الأعاصير شرقها وغربها ، ولغة خالدة خلود الكواكب .

فالجامعة العربية حين تدعو إلى مؤتمر الآثار تروم سقى الجذور لتزداد نبتة الجامعة نمواً .

سادتى أعضاء المؤتمر :

يشرفنى أن أرحب بحضراتكم وأن أرجو لكم طيب الإقامة فى ربوع سورية .

ويسرنى أن أتمنى لكم التوفيق فى بلوغ الأهداف ، وهى أهداف إلى جانب طابعها الفنى والعلمى الخاص ، تهدف إلى القضية القومية بأوثق الصلات .

ننتظر من المباحث الأثرية أن تقيم أدلة جديدة على الصلات التى ألمعنا إليها ، وعلى أن راية الجامعة العربية ليست من عمل الأمس ، ولاوليدة سياسة طارئة ، وإنما نسجت خيوطها منذ أقدم ما عرف التاريخ .

ننتظر من المباحث الأثرية أن تقيم أدلة جديدة على الحضارات العظمى التى عرفتها ربوع العالم العربى ، فلقد انتقص من شأنها غالباً لمرام شتى ، والتبست بمناورات السياسة ، ونشرت المطامع البغيضة وراء التنقيبات الأثرية .

إن هذه الآثار الجاثمة فى بطن الأرض منذ فجر المدنية تتطلق فى مؤتمركم العربى ليعرف العالم شأنها حقا ، ننتظر من مباحثكم الأثرية أن تقيم أدلة جديدة على أن شأن هذه الحضارات لم يقتصر على بقعة معينة ومكان محدود ، وأن أنوارها ذهبت بعيداً ، وأن لعالمنا شأنا فى تداخل الحضارات العالمية ، ونخراً فى بناء العالم وكتابة التاريخ .

وننتظر من مؤتمركم أن يجدّ فى تعاون الدول العربية على إخراج الكنوز التى طال أمدها تحت أديم الأرض . إن ما عرف من آثارنا قليل ، وما بقى منه فى بلادنا أقل ، وهى تنتظر أيادى عربية لتمد لها أعناقها وترى النور .

وليس ما ننتظر بالكثير على حضراتكم ، وقد جمعتم إلى الكفايات العلمية الإخلاص القومى المتين . حالفكم التوفيق بعنايته تعالى .

سيدى فخامة الرئيس :

أمس الأول اختتم مؤتمر المهندسين العرب الذين اجتمعوا ليرسموا خطوط الإنشاء والعمران والتجديد ، واليوم تتفضل فخامتكم بافتتاح مؤتمر الآثار ورعايته ليبحث علماؤه فى حنايا الأرض ومخلفات السلف .

وإن فى تعاقب هذين المؤتمرين لدلالة على وعى قومى يجمع بين الاندفاع فى الحديث ، والالتفات إلى الماضى وروائعه . وإن دمشق لتشكر للجامعة العربية اختيارها مركزاً لمؤتمر الآثار العربى ، وهى المدينة الصابرة المؤمنة الخالدة ، دمشق التى تعيش فى ظل فخامتكم بأحلامها العذاب وحرياتها الغالية . والسلام .

كلمـــة الأمير جعفر الحسنى

المندوب الأوّل فى وفد سورية

صاحب الفخامة ، أصحاب الدولة والمعالى ، سيداتى ، سادتى :

هذا يوم أغر أشرقت فيه شمس العروبة بعلمائها وأعلامها . هذا سوق من أسواق العرب تنادى إليه أساطين الفن والعلم والأدب . يوم ميمون تجلت فيه روح الإخاء العربى ، يوم تفتحت له الصدور ، وانتعشت منه النفوس . يوم هلل فيه البشر وكبر ، وحّى دعته إليها العروبة فلبى نداءها .

فالشكر لجامعتنا ، جامعة الدول العربية ، التى شملت عنايتها شؤوننا السياسية ، ونهضتنا العلمية ، ونخص بالثناء والتقدير لجنتها الثقافية ، التى تواصل نشاطها لتوثيق عرى الروابط الثقافية بين الأقطار الشقيقة العربية ، هذه الروابط التى لها ما بعدها فى مستقبل حياة الأمة العربية ، والتى لا تعادلها صلات ولا تستقيم بدونها وحدة ولا انسجام بين أبناء دول الشرق العربية . وما هذا المؤتمر الأثرى الذي نحتفل بافتتاحه هذه الأمسية ، إلا أحد وسائلها المبرورة ، ومن نعمائها المشكورة .

فان شكرنا جامعة الدول العربية والقائمين على شئونها ، فلا يذهلنا ذلك عن أبر الواجبات علينا ، وأحبها إلينا ، ألا وهى رفع آيات الشكر والحمد إلى أصحاب الجلالة والفخامة ملوك ورؤساء الدول العربية ورجالات حكوماتهم ، الذين أوجدوا هذه الجامعة ، فحبوها برعايتهم ، وتعهدوها بسهرهم ، فسنوا لها سيرتها ، وأيدوها بروح من عندهم ، فسارت بوحيهم ، واهتدت بهديهم ، واستمدت عزيمتها من قوة إيمانهم . فطوبى لمن كان مثل هؤلاء القادة أسوته ، ومن مناهل حكمتهم مورده ، فهو باذن الله ، بالغ غايته ، ومؤدٍ على أكمل وجه رسالته .

ومن بواعث غبطتنا وسرورنا أن تختار اللجنة الثقافية دمشق مقراً لانعقاد أول مؤتمر أثرى لدول الجامعة العربية ، فدمشق عاصمة الدولة الأموية ، وأول دولة عربية ، ترحب بضيوفها الكرام ، الأساتذة أعضاء المؤتمر والمشتركين به ، أجمل الترحيب ، وترجو لهم إقامة طيبة ، وتتمنى لهم فى مهمتهم النجاح والتوفيق .

وأرادت دمشق أن تختار هذا القصر مضيفا لكم ، هذا القصر التاريخى الذى بنى على أطلال قصر الخضراء ، قصر الخليفة معاوية ، مؤسس أعظم دولة إسلامية ، ليكون منه رمز لوحدة العرب ، وعزة للعروبة .

ومن أهم دواعى تفاؤلنا بنجاح مهمة هذا المؤتمر ، أن يشمله صاحب الفخامة الرئيس الأول المعظم برعايته السامية ، ويخصه بعظيم عطفه وإرشاده السديد ، وهذا أثمن ما يتشرف به المؤتمر وما يظفر به المؤتمرون فى فاتحة عملهم . إن علم الآثار نشأ ياسادتى فى الغرب ، ربيب الملوك والعظماء ، ففى كنفهم ترعرع ، وفى ظلهم نما ، من قبل أن تحتضنه الحكومات العصرية ، ويصبح علماً قائماً بذاته بين العلوم الأساسية . ولم يزل هذا العلم فى بلادنا فى مهده ، تعوزه الرعاية والعناية . وهذا ما جاد به فخامته . فثق ياسيدى الرئيس بأننا سنعمل بنصائحك الغالية ، لتحقيق ماتحرص عليه وماتريده من خير لتراثنا ، وصيانة أمجادنا ، وإحكام التعاون بين زملائنا .

إن علم الآثار هو يا سادتى حديث بأساليبه ، ولكنه بالحقيقة قديم فى فكرته . فهو جزء من التفكير البشرى ، ونهج من مناهج طلب المعرفة والاستنتاج ، وليس كما يذهب البعض ويظنه متعة زائفة أو هوس هواة . فهو علم مقرر له قواعده وأسسه ، فعلى هذه المبادئ العلمية قد اجتمعنا هنا لنؤدى فرضاً وواجباً نحو البحث والمعرفة على أسس العلم الصحيح ، ونحكم الصلة بين ماض حافل بالأمجاد وبين حاضر على مفترق الطرق ينشد الاستقرار . فمن الواجب علينا أن نمهد السبيل ، ونتعاون مع رجال الثقافة والتربية لإحياء تاريخنا القديم ، فنحببه الى النشء الجديد ليستنير به ، ويعتز بحضارة السلف معلمى البشر . إن الأمة التى يستهين أبناؤها بماضيهم ، ويزهدوا فى أخبارها ، لا يؤمن حاضرها من استخفافهم ، ولا تصان كرامتها من استهتارهم ، كما لا تسلم نفوسهم من الهوان ،

إذ لا مناعة لعصبيتهم القومية ، ولا عصمة لعزتهم الوطنية . إن حياة الأمة هى سلسلة متصلة ووحدة لا تتجزأ ، فمن لا يعتز بماضيها لا يصلح أن يرعى زمام حاضرها ، وهذه هى الشعوبية بعينها .

ومن هو يا سادتى أولى من أبناء البلاد العربية بالعناية بآثارها ، وهى مهد المدنيات ومهبط الوحى ، ومبعث الرسل والديانات ، وهى أغنى بلاد الدنيا آثاراً ، وأعرقها أمجاداً ، وحضارتها القديمة أوثق الحضارات نسباً بالمدنية الحاضرة ، ونظمها الاجتماعية ، إن لم تكن أصلا لها . وكلما زدنا بحثاً وتنقيباً ، زدنا معرفة ، ودنونا من الحقيقة ، وتفتح أمامنا آفاق جديدة تتحفنا بأشياء ممتعة تحل لنا ألغازاً غامضة عن إلهام العقل البشرى المبدع ، وما انطوى عليه هذا الإنسان فى أيام فطرته وفجر حضارته ، وليس فى الدنيا ما هو أفتن للبّ من أن تبحث الحقائق المجهولة التى سكت عنها التاريخ وأغفلها التدوين .

لقد كنا الى الأمس القريب عالة على غيرنا ، ولا سيما فى فرع علم الآثار ، نتطفل على موائد الغرب ، فتتغذى من جنى ثمرات جهودهم . وأما اليوم وقد تقلدنا زمام أمورنا ، وتحكمنا فى شؤوننا ، فقد أصبح من العار علينا ألا نتعفف ، وألا نكف عن الاستجداء ، فعلينا أن نشمر السواعد ، وننزل الى ميدان العمل ، ونساهم مع من كانوا أساتذتنا ، فنشاطرهم عناء البحث والتنقيب ، لنسدد بعض ما لهم علينا وعلى العلم من جميل . هذه كلمة بريئة أسوقها إلى من يهمهم الأمر ، وهم يعلمون مثلى بأن أكثر البلاد العربية لم تزل بحاجة للتعاون مع الأثريين من علماء الغرب ، وليس هذا اتهاماً بالعجز أو اعترافاً به ، بل هى الحكمة بعينها . إذا أردنا أن نستحث الخطى ونسرع فى سبيل التقدم والفلاح ، وصيانة كرامة العلم من نزعة الاحتكار ، فآثار بلادنا هى من أصول الحضارات البشرية ، فلا عجب أن يدعى العالم حمايتها والغيرة على صيانتها . ولذلك لا يصح أن تقتصر الدراسة على دول دون أخرى ، بل يجب أن تبقى مشاعا بين الأمم . وفى بلادنا ، من نعمه تعالى ، آثار تفوق ما عند بقية الأمم مجتمعة ، وهى كفيلة أن تروى ظمأ الراغبين من علماء الدنيا . فما علينا إلا أن نرحب بالبعثات الأثرية والخبراء منهم ، ماداموا يعملون لغاية علمية تعاونية شريفة ، منزهة عن الشوائب والشبهات السياسية والنزعات التجارية . ولذلك لا نتردد بأن نعلن على رؤوس الأشهاد ، بأننا لا نرضى

أن تكون آثارنا نهبة للطامعين أو فريسة للعابثين ، مهما عظم سلطانهم ، فنحن أصدقاؤها الأوفياء ، وحراسها الأمناء ، وسوف لا نقبل مساومة على تراثنا . وعلى هذه الأسس ندعو البعثات الأثرية وكل من أراد أن يعمل للعلم وحده ، لا يبتغى من وراء عمله أجراً ولا ربحاً . فهذه هى المؤسسات العلمية التى نرغب بها ، وهذا هو العالم الذى نجله ونحترمه .

إن تاريخ بلاد الشرق الأوسط العربى هو ياسادتى سلسلة متحدة الحلقات ، ووحدة متصلة الصفحات . وكلما زدنا بحثاً زدنا يقيناً بأن التعاون بين أجزاء هذا الشرق كان أوثق مما نتصوره اليوم ، فقد أثبتت المكتشفات الأثرية الحديثة أن وحدة هذه البلاد ليست بدعة جديدة ، بل فكرة قديمة . وقد سبق لهذا الشرق أن حقق فى فترات متعددة وحدته خلال أربعة آلاف سنة ماضية . وكانت أقطاره تتنادى فى الملمات لدفع الأذى ، وتستنصر بعضها ببعض كلما تعرض جزء منها لخطر . وكانت تتزعم هذه الوحدة تارة مصر وأخرى العراق ، وقصة الزباء ملكة تدمر ليست بعيدة عن الأذهان لما حاولت بجرأتها وجردت سيفها لتحرير مصر والعراق وبلاد الشام من نير استعباد الفرس والروم ، ثم حقق عرب الحجاز ما أخفقت به تدمر ، فشيدوا من هذه الوحدة صرحهم الشامخ ومجدهم الخالد ، وأسسوا أعظم دولة عرفها التاريخ .

وأبى التاريخ ياسادتى إلا أن يعيد نفسه ، وما أقرب تعاون العرب اليوم بسيرتهم بالأمس ، بعد أن عقدوا الخناصر على الدفاع عن استقلالهم وتعاهدوا على صيانة كرامتهم المشتركة .

فلا عجب إذن أن يتنادى اليوم ممثلو الدول العربية ورجالاتها العلمية إلى هذا المؤتمر الأثرى ، ليبحثوا ما فيه خير تراثهم . وليضعوا أسس التعاون بين مصالح آثار دول الجامعة العربية ، وليسلكوا نهجاً موحداً يعمل به فى المستقبل لصيانة الآثار والعناية بها . وليعالجوا قضية منح امتيازات التنقيب فى المناطق الأثرية ، وتسهيل التعاون بين المتاحف ، وتنظيم تجارة العاديات ، والعمل على نشر الثقافة الأثرية وطرق تعميمها .

نرجو المولى ان يوفقنا فى مسعانا ، ويسدد خطانا . عاش إخاء الدول العربية وشعوبها . وعاشت جامعتهم المجاهدة . وعاش قادة العروبة الأبرار ، وحماتها الأوفياء .

كلمة السيد طه باقر

المندوب الأوّل فى وفد العراق

سيدى فخامة الرئيس المعظم
معالى رئيس المؤتمر
حضرات الأعضاء

باسم العراق ومؤسسة آثاره ، وبالنيابة عن إخوانى أعضاء الوفد العراقى من بلاد الرافدين ، مهد الحضارات الأولى ، إلى وادى بردى المبارك ودمشق الخالدة ، وإلى أعضاء المؤتمر الكرام ، أحمل تحيات عاطرات ، وتمنيات طيبات .

وبعد ، فان انعقاد مؤتمر للآثار لما يدل أبلغ الدلالة على نهضة صحيحة مباركة للشعوب العربية تقوم على أسس علمية وطيدة . وما عنايتها بتراثها الماضى إلا لتستوحى من ذلك التراث المجيد البواعث والحوافز ، فتعيد لموطن الحضارات وبلاد العروبة مكانتها وعزها بين شعوب الأرض .

وإنه لمما يبعث على الغبطة ويبشر بالخير أن تحقق جامعة الدول العربية عقد أول مؤتمر فى تاريخ النهضة العربية الحديثة تبحث فيه شؤون آثار البلاد العربية . وقد كان أمرها مقتصراً على الأجانب حتى عهد قريب ، بالرغم من أنه نشأت فى هذه الربوع ، ربوع الشرق الأدنى ، أصول العمران والمعرفة البشرية . وإذا عنى علماء الغرب بتراث حضارتنا ، فما أحرانا أن تكون عنايتنا أضعافاً مضاعفة .

ومن هنا يتضح عظم المسئولية الملقاة على هذا المؤتمر الذى يضم أبناء تلك الحضارات القديمة ، ويتألف من المشتغلين بهذا الحقل من المعرفة .

وأرانى فى غنى أن أذكر حضرات المؤتمرين بالمسائل التى علينا معالجتها ، كالعناية بالبحوث العلمية والتعاون على تبادل نتائجها والعمل على بثها وإعلاء شأنها وتيسيرها للجمهور ، وكذلك التعاون بين الأقطار العربية لاستظهار بقايا الحضارات فيها ، وتمهيد السبل لتبادل الآثار فيما بينها ، وتبادل المشتغلين والمختصين بها .

وإننا لنرجو ونتمنى مخلصين أن تتكلل جهود المؤتمر بالتوفيق والنجاح ، وأن يكون مؤتمرنا هذا غرساً مباركا ، فيحقق الهدف الأعلى للأمة العربية .

وكم أتمنى أن تشاهد بغداد عقد مؤتمرنا الثانى ، وأن يصادف يوم انعقاده حفلة افتتاح بناء المتحف العراقى الجديد . والسلام عليكم .

كلمة السيد محمد أحمد شطا

باسم وفد المملكة العربيـــة السعودية

يا صاحب الفخامة

ليس فى وسعى أن أعبر عن شعور المملكة العربية السعودية نحو هذا البلد العربى بأبلغ من ذلك التعبير الكريم الذى عبر به حضرة صاحب الجلالة مولاى الملك المفدى . وإن شعور جلالته لهو شعور أمته . وإذا كان هذا المؤتمر قد أتاح لى الفرصة السعيدة لأنوه بهذا الشعور الملكى الكريم ، وأن أشيد بهذه الحفاوة البالغة التى وجدناها فى هذا البلد العزيز ، فانه يسرنى جداً أن أحمل إليها من بلد الرسالة والنبوة ، من ذلك البلد الأمين ، من تلك الصحراء التى أنجبت القواد والفاتحين — تحية الإعجاب والثناء وتحية التقدير والوفاء . الإعجاب بجهودكم المباركة فى سبيل الحرية والسلام ، والتقدير لأعمالكم المجيدة فى سبيل التضامن والوئام . وإنها لأهداف كريمة هى أهداف الجامعة العربية ورسالتها ، أهداف الأمة العربية ومهمتها . أهداف كريمة تحرص المملكة العربية السعودية على تحقيقها لأنها تستهدف خير العرب ، وترمى الى مصلحة العرب . وإذا كنا قد اجتمعنا اليوم لنوحد جهودنا فى سبيل المحافظة على ذلك التراث الفنى الرائع فقد صنتم بدمائكم الزكية الطاهرة تراثاً أسمى ، هو تراث الشرف العربى والكرامة العربية . وستقف الأجيال القادمة وقفة خشوع واحترام أمام هذا الأثر المقدس ، ترتل آيات الدعاء وأهازيج الشكر والثناء .

يا صاحب الفخامة

إن فى الآثار لصمتاً دونه بلاغة الخطباء ، وإن فى سكوتها لروعة دونها بيان الفصحاء . إنها لسفر تاريخى تقرأ فيه الأمة صحائف مجدها وآيات عظمتها . وإن المملكة العربية

السعودية لا تنظر بعين الإجلال والإكبار الى آثار السلف الصالح فحسب ، بل تجد من واجب الوفاء له والاعتزاز به أن تتخذ منه مناراً تهتدى بضيائه ، وقبساً تسترشد بسنائه . وعلى هذا المنهج القويم الذى يصل بها الى السعادة والمجد تسير قدما الى الأمام فى ثبات وعزيمة ، وفى قوة وإيمان . وما أحوج العرب اليوم إلى مثل هذا الرشاد وذلك الهدى . وتلك آثارهم تنطق بالعظة والذكرى ، إنها :

تهيب بنا ، هذا تراث جدودكم حذار حذار اليوم أن يتقسما
وإلا فقد ضاعت جهود كثيرة وكنتم بلا كهف هناك ولا حمى
وبدلتم بعد الكرامة ذلة ودارت كؤوس الدهر صابا وعلقما

أعزالله العرب والإسلام ، وأحيا الأمة السورية فى يمن وسعادة وفى حرية وسلام .

كلمة الأمير موريس شهاب

مندوب لبنان

يا صاحب الفخامة ، معالى رئيس المؤتمر ، سادتى :

قال الشاعر العربى :

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

وما أدل من آثارنا على ما للدول الشرقية التى تؤلف منها اليوم دول الجامعة العربية من الماضى المجيد الذى يمكننا بحق أن نفاخر به العالم .

فمن أهرام الجيزة ومعابد كرنك وكنوز توت عنخ آمون إلى مدافن أور التى حققت بغناها ودقة تحفها ما كان العقل لا يتصوره إلا قصصاً خرافية ، إلى شرائع حمورابى أجمل مثال لما وصلت إليه حقوق البشر ، إلى قصور الآشوريين ذات النقوش الرائعة ، إلى آثار جبيل الفينيقية التى عاصرت انبثاق فجر التاريخ وضاهت بدقتها أجمل تحفه ، إلى أعمدة بعلبك ناطحات السحاب ، إلى آثار التوراة والمسيحية والإسلام المنتشرة فى فلسطين ، إلى شوارع وأبنية وعمد تدمر وجرش ، إلى قصور الأمويين المنبعثة ، وقصور الرشيد الدفينة فى الرقة أو شوارع سامرا الواسعة ، إلى جوامع دمشق وقيروان ومراكش وقرطبة وقصور الغز فى طليطلة وغرناطة ، وآية الفن البنائى الإسلامى فى قبور الخلفاء فى القاهرة ، إلى مدارس وجوامع سلاطين المماليك فى طرابلس وقصور المعنيين والشهابيين فى دير القمر وبيت الدين ، إلى آثار المدينة ومكة المكرمة ، إلى سد مأرب وأبنية صنعاء .

سلسلة من الآثار المجيدة تنطق بعظمة حضارة الدول العربية منذ فجر التاريخ حتى يومنا هذا . سلسلة تشهد برسوخنا فى الحضارة التى نشأت فى أكناف بلادنا ، فتتلمذ لها العالم . سلسلة تشهد بما وصلت إليه هذه الدول عندما دان العالم للدول العربية من أموية وعباسية . سلسلة تشهد بأن مشعل الحضارة الذى حافظنا عليه وتمسكنا به لم يطفأ يوما على الرغم

مما هب على البلاد العربية من عواصف . سلسلة تشهد بالدور الهام الذى قام به لبنان فى مختلف العصور ، منذ نشأة الدول الشرقية المختلفة ، وعهد السيادة الفينيقية للبحار ، ونشر الأبجدية ، وعهد مدرسة الحقوق البيروتية فى دور العظمة الرومانية ، واشتراك اللبنانيين فى حملات معاوية ، وفى بعث العباسيين للعلوم ، حتى ذاك العهد الإقطاعى ، حيث وجدت اللغة العربية والأدب العربى ملجأ حصيناً فى قصور الأمراء الشهابيين ، وسرت منها إلى مصر الناهضة .

إن أهمية آثارنا والدور الذى لعبته بلادنا فى مختلف العصور التاريخية حملانا على الإقبال على ترميم أبنيتنا التاريخية فى الحقول المتنوعة والعهود المتعاقبة ترميما جديا . فدرأنا الخطر عن بعلبك وأصلحنا المعابد والقلاع والكنائس والمساجد فى طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وعلى قمم شقيف أرنون وعند أقدام جبل صنين . وقد أنعشنا القصور اللبنانية للتنوخيين فى عبيه والمعنيين فى دير القمر والشهابيين فى بيت الدين . وكان رؤساء الجمهورية والوزارات والوزراء ونواب الأمة يشجعوننا بعطفهم الدائم على أعمالنا ويتتبعونها عن كثب .

وبعثاً لتاريخنا أخذ لبنان على عاتقه حفريات جبيل الواسعة منذ سنة ١٩٢٨ فتمكنا من الاحتفاظ التام بآثارنا المكتشفة ، واتسع العمل الى حقول أخرى ، ومن أهمها صيدا وصور .

وقد بنينا للآثار القديمة متحفاً فخما فى بيروت ، وسنشىء قريباً متحفاً نبنيه فى بيت الدين لآثار الإقطاع فى العهدين العربى والعثمانى .

وجارى لبنان العالم الأثرى بالنشرات العلمية ، فأنشأ نشرة المتحف الوطني السنوية ، وسلسلة لنشر الوثائق الأثرية ونتائج الحفريات ، وسلسلة لنشر وثائق ومخطوطات التاريخ اللبنانى .

وإنى لسعيد وفخور أن أمثل لبنان فى هذا المجتمع الذى يضم أثرى الدول العربية الناهضة الذين يعملون بجد وعلم ونشاط فى إحياء مآثر بلادهم . وإن لبنان الذى كان دائما صلة الدول الشرقية يعتز بالاشتراك مع إخوانه لانسجام الأعمال والتعاون ، ويسره أن تكون باكورة هذه الأعمال فى البلد الشقيق الذى تجمعنا به الروابط المتينة وفى ظل صاحب الفخامة رئيس الجمهورية السورية شكرى بك القوتلى ، وأركان حكومته الذين شجعونا فى أعمالنا بتشريفهم متاحفنا وأبنيتنا الأثرية ، وبعهدهم بالأعمال الأثرية إلى اختصاصيين يلذ لنا جداً متابعة التعاون معهم لمجد دول الجامعة العربية والدفاع عن آثارها .

كلمة الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن

المندوب الأول فى وفد مصر

سيدى فخامة الرئيس :

يشرفنا نحن المندوبين المصريين أن نرفع إلى فخامتكم واجب الشكر على تفضلكم بشمول هذا المؤتمر برعايتكم السامية . والحق أن ما لمسناه من عناية حكومتكم السنية بشئون الآثار فى هذه البلاد العريقة فى المدنية ، وما تم على يد فخامتكم من إنقاذ شتى المعائر الأثرية والمحافظة على التراث الفنى القديم ، كل ذلك يشهد بالنهضة الطيبة التى تتزعمونها فى هذا الميدان من مظاهر الحضارة . وهو الميدان الذى شغلت عنه أممنا العربية بكفاحها فى سائر الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

وإنه لحسنة من حسنات جامعة الدول العربية ، ومأثرة من مآثر القائمين على أمرها ، أن عملت على إعداد هذا المؤتمر ، وأن اختارت لعقده مدينة دمشق التى يمتد تاريخها إلى أقدم العصور ، والتى أتيح لها أن تصبح أول مدينة ازدهرت فيها فنون الإسلام ، ثم حفلت بعد ذلك ببدائع المعائر فى عصر الأيوبيين وعصر المماليك من بعدهم .

وإننا نحن المندوبين المصريين يسرنا بوجه خاص أن نجتمع فى هذا القطر الشقيق الذى يبلى مندوبه فى مجلس الأمن بلاء حسناً فى سبيل الدفاع عن العرب والوصول إلى تحقيق العدالة بين الأمم ، والذى تعمل حكومته الرشيدة برعاية فخامتكم على تحقيق التعاون الشامل بين العرب .

والله نسأل أن نكون عند حسن ظن فخامتكم ، فنصيب الأهداف التى ترمى إليها جامعة الدول العربية ، والآمال التى تجيش فى صدورنا معشر المشتغلين بالآثار فى الشرق العربى ، فنجمع أمرنا ، ونتعاون فيما بيننا للمحافظة على التراث الفنى فى بلادنا ، وإنقاذ آثارنا وتحفنا من الدمار والضياع ، ثم النهضة بالتأليف فى شتى نواحى الفنون والآثار ، والعمل على أن تصبح لغتنا العربية لغة علمية تسع كل المصطلحات فى هذا الميدان ، كما وسعت المصطلحات فى مختلف ميادين العلم والمعرفة ، حين كان أجدادنا حملة لواء العلوم فى الدنيا .

كلمـــة الأستاذ أحمد فخرى

مندوب اليمن

(بسم الله الرحمن الرحيم)

سيدى الأجل فخامة الرئيس

حضرة صاحب المعالى وزير المعارف السورية

حضرات السادة الزملاء

إنه لشرف عظيم أن أقف اليوم بين أيديكم لأتكلم باسم اليمن شاكراً لجامعة الدول العربية سعيها المحمود لعقد هذا المؤتمر ، وشاكراً للحكومة السورية جميل ترحيبها بعقده فى دمشق ، وهو البلد الطيب ذو التاريخ القديم والماضى المجيد والحاضر الزاهر .

لقد ارتبطت هذه البلاد الكريمة بجنوبى الجزيرة العربية منذ أقدم العصور ، ولم تقف هذه الصلات عند حد التجارة وتبادل الثقافة وحسب ، ولكنها امتدت إلى ماهو أبعد أثراً من ذلك . فكثيراً ما هاجرت القبائل اليمنية إلى الشام كلما أصاب بلادهم الجفاف أو تصدع سد مأرب . فكانوا يجدون فى هذه البلاد الخصبة المضيافة كل ماتصبو إليه نفوسهم ويعوضهم عن ترك وطنهم . وكثيراً ما نتج عن اتصال ثقافة اليمن بثقافة الشام حضارات ذات شأن مثل حضارة الغساسنة الذين وفدوا إلى سورية من اليمن ، والذين يعتز كل عربى بتاريخهم .

وإنى إذ أحمل لسورية العزيزة ولشعبها الأبى الكريم تحية اليمن وتحية عاهله العظيم جلالة الإمام يحيى بن حميد الدين ، فانما أحمل إلى أبناء غسان تحية صادقة من أبناء عمومتهم فى اليمن . أسأل الله أن يوثق ارتباط البلاد العربية واتحادها . وأن يشمل سورية وأهلها الغر الميامين برعايته وعنايته ، وأن يوفقنا جميعاً لخدمة الوطن العربى ، فهو نعم المولى ونعم النصير . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

لجان المؤتمر

لجنـــة الثقافة الأثرية

الرئيس : الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن

المقرر : السيد طه باقر

الأعضاء : الأمير جعفر الحسنى ، الدكتور سليم عادل ، السيد عبد العزيز عثمان ، السيد فؤاد سفر ، السيد بشير يوسف فرنسيس ، الأستاذ السيد محمد شطا ، الأمير موريس شهاب ، الدكتور عبد المنعم أبو بكر ، الدكتور محمد مصطفى ، الأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق ، الأستاذ أحمد فخرى ، السيد نعيم مخولة ، الأستاذ حسن عبد الوهاب ، الأستاذ على جمال الدين حسنين ، السيد خالد معاذ ، الدكتور محمد حيدر ، الأستاذ عبد السلام محمد حسين ، الأستاذ محمد حسن عبد الرحمن ، الأستاذ علاء الدين الخانى ، الأستاذ عباس بدر .

لجنـــة القوانين الأثرية

الرئيس : الأمير جعفر الحسنى

المقرر : الأستاذ عبد الهـادى حمادة

الأعضاء : السيد عبد العزيز عثمان ، الدكتور سليم عادل ، السيد طه باقر ، السيد بشير يوسف فرنسيس ، السيد فؤاد سفر ، السيد عبد الرحمن البسام ، الأمير موريس شهاب ، الدكتور زكى محمد حسن ، الدكتور محمد مصطفى ، السيد نعيم مخولة ، الأستاذ حسن عبد الوهاب ، السيد خالد معاذ ، الدكتور محمد حيدر ، الدكتور يوسف عرقتنجى ، الأستاذ على جمال الدين حسنين ، الأستاذ عباس بدر ، الأستاذ بسام كرد على .

لجنة المصطلحات العلمية

الرئيس : السيد طه باقر

المقرر : الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن

الأعضاء : الأمير جعفر الحسنى ، الدكتور سليم عادل ، السيد عبد العزيز عثمان ، السيد فؤاد سفر ، السيد بشير يوسف فرنسيس ، السيد محمد شطا ، الدكتور محمد مصطفى ، الأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق ، السيد خالد معاذ ، الأستاذ حسن عبد الوهاب ، الدكتور محمد حيدر ، الأستاذ عباس بدر ، الأستاذ على جمال الدين حسنين ، الخورى يوسف نصرالله ، الأستاذ عبد السلام محمد حسين .

البحوث والمحاضرات

مظاهر الحضارة الإسلامية فى دمشق وحلب

للأمير جعفر الحسنى

يتعذر علينا تقدير حقيقة الحضارة الإسلامية فى دمشق ومبلغها ، ما لم نستعرض ولو بلمحة خاطفة الأدوار التى تعاقبت على هذه المدينة منذ أقدم عصور تاريخها . لقد غاب مع طول القدم ذكرى من بنى دمشق ، وقد تضاربت بذلك الروايات ، فمنهم من زعم أن إرم كان ينزل بجوارها ، وأن على جبلها قاسيون قتل قابيل أخاه هابيل . وروى غيرهم أن أول حائط وضع فى الأرض بعد الطوفان حائط دمشق وحران ، وأن فيها دار شداد ابن عاد وأنها هى الربوة ذات قرار ومعين وإرم ذات العماد .

كل ذلك يحملنا أن نسلم مع القائلين بتقادم عهد هذه المدينة مهما بالغوا وقالوا شططا .

فقد ورد ذكر دمشق فى النصوص المصرية والآشورية ، وتشير كلها إلى مكانة دمشق المرموقة منذ منتصف الألف الثانى قبل الميلاد من الناحيتين السياسية والاقتصادية . ويروى لنا الكتاب المقدس عن أهميتها التى تعدت فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد نطاق حدودها إلى ميدان الحقل الدولى حتى أصبحت مرهوبة الجانب ولها رأى مطاع فى تقرير مصير الشرق الأوسط ولا يستكثر عليها ذلك . فقد كانت عاصمة المملكة الآرامية التى كانت أكبر دولة فى بلاد الشام وأقواها . يضاف إلى ذلك نفوذها الدينى الذى كانت تتمتع به بصفتها مدينة مقدسة يحج إليها الشعوب السامية من البلاد المجاورة . ولم تستطع حادثات الدهر أن تقضى على مكانتها أو تنتزع سلطانها برغم الكوارث والمحن التى نزلت بها خلال الألفى سنة التى تقدمت الفتح الإسلامى . وقد تعاقب على دمشق العموريون والميتانيون والآراميون والمصريون والآشوريون والبابليون والفرس واليونان والرومان

والبيزنطيون . وترك كل منهم فى تاريخها أثره وذكرياته ، وساهم كل من هذه الشعوب على قدره فى بناء مجد دمشق وشهرتها . وقد هلك هؤلاء جميعهم، وذهب ماشيدوه، ليحل محله ما أسسه العرب وما خلدوه . استولى العرب على دمشق وكيفوا مع الزمن قديمها وفق رغائبهم ومزاجهم وصانوا من قديم معالمها ما تيسر لهم حفظه وما يعود عليهم به نفعه ، ونفذنا خلال ذلك إلى خطط دمشق القديمة وتطورها .

جاء المسلمون فوجدوا دمشق محصورة ضمن سورها الحصين ، ويمتد عمرانها على طرفى شارعها المستقيم المشهور ، وهو عمودها الفقرى الذى يخترقها من الشرق إلى الغرب ، وملتفة حول معبدها الكبير . فحلوا فيها واتخذها بنو أمية قاعدة لملكهم ومقراً لخلافتهم . وأصاب دمشق من عنايتهم ما أصبحت به عاصمة أعظم دولة عرفها التاريخ ، وتضاءل معه كل ما قيل عن ماضى دمشق وعظمتها . فقد امتد فى عهدهم عمران المدينة إلى خارج السور ، وبنى معاوية قصر الإمارة بجوار الجامع الأموى الجنوبى وسمى بالخضراء . ولم يزل يطلق هذا الاسم على مصبغته الموجودة فى هذه المنطقة . ويطلق أيضا اسم معاوية على طريق مجاور لها . وقد دك العباسيون هذا القصر مع ما هدموه من القصور الأموية وآثار الأمويين ، كما عبثوا بحرمة قبورهم . ونقضوا أسوار المدينة وحصونها وأجرى ابنه يزيد نهراً فى سفح قاسيون ، وهو يعرف باسمه (نهر يزيد) حتى يومنا هذا . وهو بحالة سليمة ينتفع به الناس لحاجتهم وزروعهم . وقد استصفى الوليد الكنيسة الكبيرة كلها — كنيسة القديس يوحنا — فهدمها وشيد مكانها جامعه الخالد وصرحه الشامخ الذى سيبقى أبد الدهر من مفاخر ما ابتدعه الإنسان وما يمكن أن يبلغه الإتقان . لا يعرف فى العالم معبد طال أجله ودام نفعه وتوارثته أديان مختلفة وأقيمت فيه شعائر دينية متباينة كما اشتهر به جامع دمشق . وقد كان قبل اليوم معبدها الاعظم ثم كنيستها . فهو أبدا زينة دمشق وعنوان عظمتها . وقد كان فى جميع أدواره من أشرف الأبنية غاية وأروعها مظهراً ، خصه الانسان بكل ما أوتى من قوة الابتكار وبراعة الإبداع . وقد توالت فيه العبادات الوثنية والسماوية بتصاريف اللغات منذ أذن الله أن يرفع هذا البيت ويذكر فيه اسمه حتى يومنا هذا . وما زال يشع منه بأساليب متنوعة نور الفضيلة والدعوة اليها . إن كان اليوم يوعظ فيه من أعلى منابره ، فقد كانوا بالأمس يبشرون فى هياكله للغاية المثلى

والارشاد لما فيه خير العباد وفلاحهم . فما برح هذا المعبد منذ فجر التاريخ — أى من نحو ٣٠٠٠ سنة متوالية — يؤدى رسالته السامية ويؤمه المؤمنون ملبين دعوة مناديهم ، ويؤدون فيه فرائضهم الدينية بنفوس خاشعة مطمئنة .

وجامع دمشق هو من أكبر مساجد العالم الإسلامى ، بنى على غير مثال معروف ، استوحى واضع تصميمه الأبنية السورية قبل الإسلام وطرازها المألوف إذ ذاك . فصاغ منها نوع بناء جديد له طابعه الخاص وشخصيته المستقلة ، وقد وفق المهندس والصانع الى حد بعيد فى الجمع بين أسلوب البناء القديم وزخارفه وما تستلزمه شروط الحياة الإسلامية وتعاليمها الدينية ، حتى كاد يلتبس على الباحث أصول هذا المزج ويعتبره ابتكاراً لامزج فيه ولا استعارة ، وهكذا وضعت معه أسس الهندسة العربية التى استراح إليها العرب والمسلمون واتخذوها مثالا احتذوه . وأصبح هذا الجامع أحد نماذج ما ابتدعه فن الزيارة فى كل زمن وفى كل بلد . ولو لم يكن لدمشق سوى هذا المظهر الإسلامى لكفى أن يطغى على كل ماسواه وتتضاءل أمامه عظمة كل ادعاء . ومع الأسف أصيب هذا الجامع غير مرة بزلازل صدعت أركانه ومناراته ، وحرق ست مرات فى عصور مختلفة: أولها حريق سنة ١٠٦٩ م والأخير سنة ١٨٩٣م ذهبت بمحاسنه ولم يبق منها إلا النزر اليسير ، وكان يعاد بناؤه فى كل مرة إلى ما كان عليه قبل الكارثة مع تحوير بسيط .

أما بنو العباس فلم تبق الأيام من آثارهم مصنعاً يعتد به فى دمشق . مع أن بعض المتقدمين من خلفائهم كالرشيد والمأمون كانوا يختلفون إليها . وقد بنى المتوكل قصراً فى ضاحية دمشق بين داريا والمزة ، وبنى خمارويه قصراً فى الربوة ، ودرست معالم دار الإمارة التى نقلها الفاطميون من المدينة إلى سفح قاسيون بجانب دير مران ، ودثر أثر القصر العجيب الذى بناه جعفر بن فلاح القائد الفاطمى فوق نهر يزيد .

ولم تزل الى اليوم الفوارة التى أجراها فخر الدولة حمزة بن الحسن القاضى الفاطمى فى جيرون شرق الجامع الأموى ، وتعرف المحلة الى اليوم باسم (النوفرة) .

وقد امتد عمران المدينة خلال المدة المتقدم ذكرها إلى ما وراء السور ، فأنشئت محلة العقيبة ظاهر باب الفرادیس ، ومحلة الشاغور ظاهر باب الصغير ، ومحلة قصر حجاج ظاهر باب الجابية ، ومحلة الصالحية فى سفح جبل قاسيون ، ولم تزل جميعها محتفظة بأسمائها القديمة .

ويستخلص مما تقدم أن دمشق قد فقدت فى العهد العباسى ما كان لها من عظمة فى العهد الأموى ، وهى نتيجة طبيعية بعد أن حول العباسيون مركز الخلافة منها إلى بغداد ، وأصبحت بعد ذلك قصبة ولاية بعد أن كانت مقر الخلافة . وبقيت على هذا الحال إلى منتصف القرن الخامس هـ يوم أقبلت من الشرق الدولة السلجوقية التركمانية وقضت على الدولة الفاطمية العربية ، وتملك تاج الدولة دمشق واستقام له الأمر . ثم انتقل الحكم بعد موت دقان بن تتش إلى مملوكه طغتكين فأحسن السيرة وحسنت بأيامه دمشق وأعمالها ، وانبسطت الرعية فى عمارة الأملاك داخل العاصمة وظاهرها ، وزاد ازدهار دمشق فى عهد الدولة النورية التركية والصلاحية الكردية اللتين جعلتا من دمشق عاصمتهما ، فأعادا إليها حقها المغصوب ومركزها المسلوب ، وهكذا استعادت فى عهدهما مكانتها العلمية والدينية والسياسية ، وأصبحت من أهم مراكز الاسلام وأمنعها ، بفضل تجديد تحصين المدينة والعناية بسورها وبناء قلعتها العظيمة .

وقلعة دمشق هى أيضاً من أجلى مظاهر الحضارة الإسلامية فيها . فقد حلت محل الحصن الرومانى والبيزنطى . ولا نعلم ما كانت عليه هذه القلعة قبل القرن الثالث عشر م . وقد ذكرت المصادر هذه القلعة أول مرة فى زمن السلاجقة لما بنى فيها تاج الدولة تتش دار الإمارة عوضاً عن التى حرقت فى فتنة الفاطميين ، وذكرت لنا أيضا أن ولده شمس الملوك دقاق قد زاد فيها . ولما جاء الملك العادل أعاد النظر فى بناء القلعة فوسعها وجعلها على الشكل الذى هى عليه اليوم ، وأصبحت القلعة بعد ذلك سكنا للملوك وأمرائهم ونوابهم ، ثم رمم الملك الظاهر بيبرس ما هدمه التتر من أعاليها وشرفاتها ثم خرب تيمورلنك قسما من غربيها وشماليها ثم أهمل شأنها إلى أن بلغت الحالة التى هى عليه اليوم . ومع هذا كله فان ما سلم منها وما تبقى يشهد بعظمة هذه القلعة ويجعلها بحق فى طليعة المنشآت الحربية الإسلامية الرائعة التى يجب أن نعتز بها ونحرص على سلامتها وصيانتها .

وعرفت دمشق فى العهد الأيوبى ميدانين للفروسية يقصدها الملوك والأمراء والجنود لممارسة الألعاب الفروسية وضروب الرمى . الأول هو الميدان الأخضر وهو غربى دمشق ، ويقوم عليه اليوم الملعب البلدى ويعرف اليوم بالمرج الأخضر . والثانى هو ميدان الحصى الواقع جنوبى المدينة حيث تقوم اليوم المحلة الكبيرة المعروفة بحى الميدان .

وما كاد يستقر الأمر للدولتين النورية والصلاحية حتى شنتا حربا شعواء على المذاهب الشيعية السائدة وقتئذ فى بلاد الشام ، وتغلب مذهب أهل السنة عليها وحل محلها وأصبح مذهب الدولة والرعية . ولذلك أخذتا بانشاء نوع جديد من معاهد العلوم الدينية خصصت لأهل السنة ، وأكثرتا منها ، وعرفت بالمدارس ودور القرآن ودور الحديث ، وكلها معاهد علمية منظمة يأوى اليها طلاب العلم ويتولى التدريس لهم وتثقيفهم فئة صالحة من المدرسين والقراء والمحدثين والعلماء . وتقوم هذه المدارس بالإنفاق على من يدخل فيها لطلب العلم والاستفادة . وكان لكل من هذه المعاهد أوقاف دارة تؤمن نفقاتها ، وقد اشترك فى هذه المبرات الحاكم والمحكوم ، منها ما أنشأه السلطان أو أفراد عائلته أو أمرائه ، ومنها ما أنشأه العتقاء والخصيان والإماء وأهل اليسار من التجار وغيرهم . وكذلك بنى فى عهد هاتين الدولتين الخوانق والربط والزوايا والبيمارستانات .

بعد أن غزا المغول الشام فى عام ١٢٦٠ م وبعد القضاء على الدولة الأيوبية وانتقال الحكم إلى مماليكهم الجراكسة واستقر لهم الملك ، دخلت دمشق فى طور آخر من مراحل تاريخها . واكتسبت فى عهدهم مظهراً جديداً . سار سلاطين المماليك فى أول أمرهم سيرة صالحة ، وعرف منهم ملوك عظام اهتموا لسعادة دمشق وعمرانها ، وفى طليعتهم الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون وقايتباى وبرسباى ، وعرف منهم ملوك أفسدوا عليها تقدمها بجورهم وسوء تدبيرهم . ولا يسعنا — برغم كل ما يؤخذ على هذا العهد من شوائب — إلا أن نعترف بما له من فضل عظيم على بلاد الشام . وحسبه فخرا جلاء جيوش الصليبيين والقضاء على فلولهم ، ودحرهم التتار ، وردهم على أعقابهم خاسرين ، وتحقيق وحدة مصر والشام حتى أصبحا لا ينازعهما سلطان أجنبى ، وأصبحت حوادثهما وطنية محلية يثيرها تنازع الحكم والاستئثار بالملك . واستعادت البلاد فى أيامهم اطمئنانها واستأنفت نشاطها التجارى وتوسيع أفقه وازدهرت الصناعات ونمت ثروة البلاد . ونلمس جميل أثر ذلك فى وفرة ما تركوه لنا من أبنية لطيفة وعمران حسن . فقد شغف الناس فى عهدهم ببناء الجوامع والمساجد وزهدوا فى المدارس ، وبنوا الحمامات والخانات والقصور وسبل الماء . ولا يخلو حى من أحياء دمشق ، ولاسيما المستجد منها فى العصور الوسطى ،

من بعض هذه الآثار أو كلها تتحلى بها ، وتلطف بجمال منظرها ورشاقة مناراتها وحسن انتقاء مواد بنائها مظهر البؤس والفاقة البادى على هذه الأحياء المتواضعة .

وقد عدد لنا النعيمى المتوفى سنة ٩٢٥ هـ فى كتابه (الدارس) نحو ١٥٧ مدرسة ودار قرآن ودار حديث و ٢٦ خانقاه و ٢٣ رباطا و ٢٦ زاوية . وكان فيها أربع مدارس للطب وثلاثة مستشفيات أو بيمارستانات . يضاف إلى ذلك عشرات الأبنية الإسلامية التى استجد بناؤها فى العهد العثمانى .

ولم يزل معظم هذه المنشآت الإسلامية عامراً ينتفع به الناس ، وبعضها آية فى الإتقان والإبداع تشهد ببراعة الصانع الشامى وتفننه ، وهى من أجمل ما أبقت عليـــه الأيام من البناء الفائق بهندسته وحسن ذوقه ، ومشاهدتها تملأ القلب رهبة والنفس غبطة . وقد تقمص فيها تاريخ ناحية مهمة من الحضارة الإسلامية وتطورها فى مختلف الأدوار . ولولا هذه المظاهر المباركة من مدارس وجوامع وقصور وحمامات وغير ذلك لعذرنا القائلين عن دمشق بحالتها الحاضرة بأنها بلدة مجينة لاشرقية ولاغربية . وهى لذلك أحوج المدن الإسلامية إلى الاحتفاظ بهذا التراث الثمين والعناية به ، ليشهد لها بنبل سيرتها فى العهد الإسلامى واصالة نبتها وطهارة فرعها .

وما قلناه عن دمشق يصح قوله عن حلب ، فهى أيضا من أعرق مدن العـالم فى القدم التى بقيت عامرة على اختلاف العصور دون أن يدب فيها الهرم . إن كنا نجهل ما كانت عليه هذه المدينة فى عصور ما قبل التاريخ فاننا نعلم بوجودها بهذا الاسم منذ فجر التاريخ ، ونعرف بأنه كان لهـا شأنها منذ القرن العشرين قبل الميلاد . وتثبت الوثائق التاريخية أنها كانت عاصمة ملك منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

ظهر ذكر مدينة حلب فى عالم الوجود وظهرت معه حركة هجرة شعوب آرية واسعة النطاق فى شرق أوربة وحوض البحر الأسود بدلت أوضاع الشرق الجغرافية والسياسية . فانتقلت حلب بسبب ذلك إلى الحيثيين والميتانيين والمصريين والآشوريين والبابليين والفرس واليونان والرومان والعرب وما تفرع منهم من الدول الإسلامية . دخل العرب بلاد

الشام وفتح المسلمون حلب الشهباء صلحا . وكانت يومئذ من أمهات المدن الشامية تزهو بحاضرها وتفخر بماض مجيد . عمرت آلاف السنين وقاست خلالها عناء الأحداث وبؤس الكوارث تناجز بها الأقدار من سلطان إلى سلطان . يخمد ذكرها حينا ويبعث حينا آخر ، إلى أن جاءها الإسلام فجعلها باذن الله من المدن الخالدات .

لم يبق الزمن من كل هذا الماضى الطويل سوى النزر اليسير لا تدركه سوى عين خبير بصير . فقد قضى حريقا عام (٩٦٢ م) وعام (١١٦٩ م) على ما تبقى من معالمها القديمة وحل محلها منشآت إسلامية . ولايحتاج بحث مظاهر الحضارة الإسلامية فى حلب إلى دليل . فكل ما يقع عليه البصر فى حلب هو عربى ، وكل مظهر للحضارة فيها هو إسلامى . ولا يتطلب إثبات ذلك جهداً عظيما ، بل عكسه هو الذى يعوزه البرهان ويفتقر للاقناع . فهى إسلامية بكليتها ، يشهد بذلك سورها وأبوابها وقلعتها ومساجدها ومدارسها وحماماتها وربطها وخوانقها وأسواقها ودورها وبيمارستاناتها،وقليلة هى المدن التى تضارعها فى هذا الشرق أهمية فى مظاهرها الإسلامية ، وتفاخر مثلها بثروتها الأثرية التى تهدى الباحث وتساعده على دراسة تاريخ الريازة الإسلامية وتتبع تطورها واستقصاء مناهلها . فيجد فيها سلسلة متواصلة من الأبنية المدنية والدينية والعسكرية تمتد من القرن الحادى عشر الميلادى حتى عصرنا هذا ، تمتاز كلها بتنوع أشكالها واختلاف طرازها ، فلكل طائفة منها طابع خاص تظهر فيه فكرة تحرر الصانع الشامى من التقاليد البالية ، وتطلعه للتجدد ، وتتجلى فى أعماله سعة تفننه وقدرته على الإبداع والابتكار . وقد أحصى فى حلب أكثر من ٣٠٠ بناء أثرى إسلامى متفاوتة الأهمية ، ومبعثرة فى جميع أحياء المدينة تمثل مختلف الأدوار التى تعاقبت على حلب ، وترسم تطور البناء فى كل منها .

لم يبق فى حلب أبنية أثرية يرجع عهدها إلى القرون الإسلامية الأولى ، إما لأنها كانت قليلة العدد فى ذاك العصر ، وإما لأن الأيام درستها وأتت عليها النكبات لحريق سنة ٩٦٢ م . لما استولى الروم على حلب واستباحوها . وقد ذكرت لنا بعض المصادر التاريخية أن أول مسجد اختطه المسلمون بعد الفتح كان بجوار بابها الغربى ، ثم بنى بعده فى زمن الوليد الجامع الأموى ، شيد فى وسط المدينة مابين باب أنطاكية والقلعة،وقد تطور

مع الزمن بناء هذا الجامع وأصابه تحوير وتعديل أضاعا علينا شكله الأصلى ، ولكن هنالك دلائل وقرائن تحملنا على الاعتقاد بأنه بنى بجملته على غرار الجامع الأموى بدمشق ، ولكنه دونه كلفة ونفقة ، وأقل منه إسرافا بالتنميق والزخارف .

ويظن بأن حلب كغيرها من مدن الشام قد أهمل العباسيون أمرها ، وزهدوا فى عمرانها ، ولذلك نرى عصرهم فى حلب من أجدب العهود عمرانا . وقد جاء فى بعض المصادر أنه كان للقائد العباسى صالح بن على الهاشمى قصر فى ضاحية حلب ، وكان لكل من ولديه الفضل وعبد الملك قصر داخل المدينة ، وقد درست جميعها وعفت معالمها .

أخذت حلب تستعيد مكانتها بعد أن اتخذها سيف الدولة عاصمة لملكه ، فازدهرت فى أيامه وطارصيتها ، فقرن اسمها باسم سيف الدولة فشاطرته شهرته ، وشاركته فى محنته . أراد أن يجعلها كبغداد حاضرة بنى العباس كعبة العلم والأدب ، ولكن الأقدار لم تساعد هذه الدولة العربية الفتية على تحقيق ما أرادته لحلب من ازدهار وعمران فقد تكالب عليها الأعداء فانهمكت بالحروب والغزوات لتدفع خطر الروم عن البلاد ، فحفظت بذلك بيضة العرب والإسلام . ومع ذلك فقد رمم سيف الدولة الجامع الأموى وحصن باب قنسرين ، وبنى مشهد الدكة وفيه قبر محسن بن الحسين ، كما بنى لنفسه قصراً عظيما على ضفة نهر قويق خارج السور من الجهة الغربية ، وأقام بجواره ميدانا لألعاب الفروسية . وقد أتى حريق عام ٩٦٢ م على أكثر هذه الأعمال . وهذا مما حمل ولده سعد الدولة أن يتخذ مقره داخل القلعة فتحصن فيها ، وقد حذا حذوه كل من جاء حلب بعده من ملوك وحكام . وهكذا تحولت العناية إلى القلعة ، فأصبحت حاضرة ملكية لها قصورها ومساجدها وأسواقها ومرافقها ، حتى حرم على غير الخاصة دخولها .

ولم يطرأ على حلب تغير يذكر فى زمن الفاطميين وبنى مرداس وآل سلجوق . لأن البلاد كانت فى أيامهم مسرحا للفتن الداخلية التى أثارتها النزوات السياسية والعصبية المذهبية ، ولذلك لم يجد العمران فى عهدهم مرتعا خصباً ولا إقبالا .

انتقل الحكم بعد بنى مرداس من أيدى العرب إلى الأعاجم من تركمان وأكراد . وكان لهذا التحول أثره فى تاريخ الشرق الأوسط ، وقد تجلى أثره فى ولاية آل زنكى

ومن تفرع عنهم . فقد حل فى بلاد الشام مذهب أهل السنة محل التشيع الذى كان يسود البلاد . ونشأ عن ذلك ظاهرة عمرانية جديدة لا عهد بهـا من قبل ، وهى بناء المدارس لأهل السنة والجماعة ودور القرآن والخوانق والربط والزوايا والبيمارستانات . وتسابق السلاطين والأمراء فى هـذا المضمار زلفة إلى الله تعالى . وتساوى فى تشييد هذه المنشآت والوقف عليها الملوك والعظماء والجمهور من الرجال والنساء .

وكانت فاتحة أعمـال السلطان نور الدين أنه رمم ما خربه الزلزال من سـور المدينة وجدد بعضه وفتح فيه الباب الصغير ، كما جدد بناء سور القلعة ومساجدها وأجدّ فيها ميدان سباق ، وشيد فيها قصره المسمى : « قصر الذهب » وجدد أيضاً بناء الجامع الـكبير ووسعه ، وكان قد احترق عام (٥٦٥هـ) ولم ينج منه سوى منارته التى بنيت عام (٤٨٣ هـ) وهى من أروع نمـاذج فن الريازة الشامية الإسلامية . وأقام حول هذا الجامع أسواقا جمع فى كل منها أرباب الصناعة الواحدة : كالبزازين والصاغة والزجاجين والسراجين وغيرهم من أهل الحرف .

وبنى فى حلب نحو ست مدارس وثلاث زوايا للصوفية والفقراء إحداها للنساء ، واقتدى به أقاربه وأمراؤه من رجال ونساء ، وتسابقوا فى بناء المدارس وعينوا لهـا مدرسين وقراء من نوابغ رجال الدين والعلم والأدب ، ووقفوا عليها أوقافا غنية تقوم بجميع ماتطلبه نفقاتها . وكانت تضم أكثر هذه المدارس والزوايا قبور مؤسسيها وأقاربهم . ومن أهم مظاهر حضارة ذاك العصر هو الاهتمام فى بناء البيمارستانات للعناية بالمرضى والعطف على البؤساء ، ومنها بيمارستان بنى الدقاق وبيمارستان نور الدين وبيمارستان أرغون الـكاملى ، رتب فيها كل ما يحتاج اليه من رزق وآلات وعلاج وخدم .

وقد حمل حرص نور الدين على تحرى العدل والإنصاف على إنشاء (دار العدل) لرفع الظلم وإحقاق الحق .

وقد نهضت البلاد فى ذاك العهد وحل العمران محل الدمار ، وحقق آل زنكى فى خمسين سنة ما عجز عن تحقيقه غيرهم فى مئات السنين ، فقد شيدوا الجديد ورمموا

القديم . وهكذا ظهرت حلب بهذا الطابع الجديد مدينة إسلامية بكل ما فى هذه الكلمة من قوة ومعنى .

وقد زادت المظاهر الإسلامية ونمت فى العهد الأيوبى ، فقد اقتفى سلاطينه وعظماؤه أثر آل زنكى ، فواصلوا عملهم ونهجوا نهجهم فى أساليب الحكم وحب العمران . وقد بلغت حلب فى عهدهم درجة من الثروة والرخاء لا عهد لها بها من قبل ، وتتجلى مظاهرها فى عظمة الآثار التى خلفوها وما أنجبت حلب فى زمنهم من كبار القضاة والعلماء الأعلام . ودخلت المشروعات العمرانية فى عهدهم فى طور جديد . فبينما كانت فى السابق ترتجل ارتجالا نراها عندهم توضع وفق خطط مرسومة ودراسة موزونة محكمة الارتباط ، فشملت تحصين المدينة وخطط أسواقها وتوزيع الماء فيها والعناية بالمرتفقات الصحية ، حتى بلغ عدد حماماتها العامة فى منتصف القرن الثالث عشر م ١٩٥ من الحمامات على حسب رواية ابن شداد ، ولم يبق فيها اليوم سوى عدد قليل . وقد بلغت الريازة الإسلامية فى عصرهم ذروة مجدها ، وتجلت عظمتها فى أعمالهم فى القلعة ، بعد أن جعلوها حاضرة ملوكهم ، فجمعوا فيها منعة الحصون وأبهة القصور . وليست قلعة حلب من أروع ما أنتجته العبقرية الإسلامية فحسب بل هى أبدع وأدهش ما ابتكرته الهندسة العسكرية فى عالم القرون الوسطى . وقد بلغ عدد المدارس التى بنيت فى العهد الأيوبى نحو ٣٥ مدرسة أهمها مدرسة الفردوس والكاملية العديمية والأتابكية والظاهرية والصاحبية والشرفية والرواحية والسيفية والهروية والمقدمية والحدادية .

وفى سنة ١٢٥٩ م قصد التتر بلاد الشام واستولوا على حلب فغدروا بأهلها وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، ونهبوا الأموال وسبوا النساء والأطفال ، ونقضوا سور المدينة وخربوا قلعتها ، وأحرقوا أسواقها وجوامعها . ثم جرت أمور تسلطن على أثرها بيبرس البندقدارى وهو من المماليك الجراكسة ، وتلقب بالملك الظاهر ، فاستقرت بلاد الشام فى ملكه ، ودخلت حلب فى طاعته فى عام ١٢٦٦ م فوجدها خرابا يبابا كما تركها التتر . وبقى أهلوها خلال ٥٠ عاما فى خوف ووجل من عودة التتر ، إذ لا سور يعصمهم ولا حصن يلجأون إليه ، فهجر أكثرهم المدينة خوفا من تكرار الفتنة . ولكن كتب لحلب

بعد برهة من الزمن أن تنهض من كبوتها ، ولاسيما بعد أن أمنت البلاد خطر الغزوات من الشرق والغرب ، بفضل تحقيق وحدة مصر والشام . وقد استفادت حلب من الوضع السياسى الجديد فائدة كبيرة ، وساعدها على ذلك مركزها الجغرافى المتوسط بين الشرق والغرب والجنوب والشمال . فراجت تجارتها ودرت على سكانها أرباحا طائلة ، فاستعادت الأسواق التجارية نشاطها وازدهرت الصناعات فيها ، وكثرت هجرة الناس إليها من البلاد المجاورة ، فزاد عدد سكانها ، وضاقت بهم أحياؤها ، فنما العمران ونشط وامتد إلى ظاهر المدينة . وحل فى عهدهم بناء المساجد محل بناء المدارس ، فارتدت بها المدينة حلة جديدة زادتها جمالا وجلالا بمشهد مناراتها المهيبة وتنوع الزخارف فى جبهات مساجدها وجوامعها . وهنالك عوامل سياسية واقتصادية كثيرة هيأت لحلب الأسباب لتكون مدينة كبيرة ، وساعدتها على المضي فى نهضتها قدما .

ثم جاء العهد العثمانى فمهر حلب بطابعه الخاص ، وأضاف إليه مظهراً جديداً بمساجدها التركية اللطيفة ومناراته الرشيقة وتكاياه الفسيحة . وكثرت فى زمنهم الخانات التجارية الفخمة ، وتعددت القيصريات والأسواق الواسعة التى تثير بمظهرها إعجاب الزائر ودهشته .

وقد أفاض كل ذلك على المدينة جوا من مدن القرون الوسطى وحياتها ، وهذا أبرز ما تمتاز به حلب عن شقيقاتها من مدن هذا الشرق ، وستبقى بفضل ماتبقى من هذا الماضى المجيد ، ويربو عدده على ٣٠٠ بناء أثري ، أصدق شاهد على ما بلغته الحضارة الإسلامية فى حلب .

وستكفل لنا هذه الأوابد الأثرية بصمتها البليغ تخليد ذكريات تراث السلف وعظمته خلال أربعة عشر قرناً .

وستبقى هذه المشاهد عنوان مجدنا ، ومدار فخرنا ، ومبعث إعجاب الأجيال المقبلة ، يعتز بها الابن البار ، ويصعق لها كل ضال .

فرحمة الله على السلف الصالح ، وأجزل الله لهم الثواب .

العلاقات بين الشرق الأدنى وبلاد اليونان

منذ فجر التاريخ حتى العهد الهلنستى

للدكتور سليم عادل عبد الحق

محافظ دار الآثار الوطنية بدمشق

عاش الشرق الأدنى بتماس مباشر مع العالم اليونانى منذ الزمن الذى تألقت فيه أقدم المدنيات . وكان لهذا الاتصال أثر كبير فى تبادل انعكاس شخصيتيهما انعكاساً نال منه كل منهما فائدة جُلَّى فى إتمام معارفه وإشعاعها وجعلها دولية إنسانية تنتقل تعاليمها إلى شعوب كثيرة فى العالم . ويعود الفضل فى ذلك إلى الطبيعة التى كان لها أكبر الاثر فى تقريب الشعوب التى تسكنها . فوادى النيل وفروع الهلال الخصيب وهضبة الأناضول ، مدعوة إلى التعاون الوثيق لما لها من موارد اقتصادية يتمم بعضها بعضا . وهى تتطلع باستمرار إلى البحر المتوسط الذى هو أجمل البحار وأكثرها نفعا . أما بلاد اليونان فهى أقرب البلاد الأوربية إلى الشرق الأدنى ، وتقع وراء مجموعات من الجزر مبعثرة ومتوزعة على خطوط متوازية محدبة كأنها قواعد لجسور غير مرئية . فمن البوسفور والدردنيل حتى السواحل المصرية تمتد بحيرة كبيرة تنقل أمواجها وتياراتها المراكب التى تحمل أفكار وحاصلات كل أمة تسكن هذه الشواطىء إلى الأمم الأخرى ، فتوجد الحياة الدولية التى يعود إليها كل تقدم ورقى .

وقد انتشرت مدنيتا مصر وآسية الغربية فى بلاد اليونان وطبعتا شعوبها بطابع حياة الشرقيين وتفكرهم منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، أى قبل تشكل الشعب الهيلينى بنحو عشرين قرنا . وتدلنا أبحاث علماء الآثار والمؤرخين فى أواخر القرن الماضى وأوائل قرننا هذا ، على الرغم من كثير من الغموض ما يزال يلابس نواحى متعددة منها ،

على أن جزيرة كريت التى نشأت فيها أول مدنية إيجية كان يقطنها شعب من التجار والزراع الذين أقاموا روابط سلمية واقتصادية مع الشعوب القاطنة ما وراء البحر على سواحل آسية وإفريقية . فأصابوا من ذلك خيراً عميما فى تحسين زراعتهم وصناعتهم واستكمال مايحتاج إليه إنتاجهم من مواد ضرورية وما ينقص حياتهم الفكرية من غذاء روحى يتوافر بغزارة عند المصريين القدماء وسكان آسية الغربية . فتهيأت لهم بذلك السبل لإعداد أساس البناء الذى سيشيد إغريق هوميروس وحفداؤهم طبقاته العلوية .

ويخبرنا علم الآثار الفرعونية كيف أن هؤلاء الكريتيين الداخلين فى زمرة الهاهونيبو (سكان ما وراء البحر كما يسميهم المصريون) كانوا يقصدون مصر بين سنتى (٢٨٩٥ — ٢١٦٠ق . م) ليبادلوا بمصنوعاتهم مصنوعاتها حينا وليكونوا قرصانا ويغيروا على شواطئها وينعجوا فراعنتها حينا آخر . وظلوا يترددون عليها إلى أن حل زمن الفوضى التى انتشرت بين عهد انحلال إمبراطوريتها القديمة ونشوء إمبراطوريتها المتوسطة . ولم يعودوا إليها من جديد إلا خلال القرن التاسع عشر قبل الميلاد . فأقامت فيها جالية كبيرة منهم ، وجعلت تنشر فاعليتها الاقتصادية . ولا ريب أن المصريين كانوا يقصدون من استخدامهم لهم نشر نفوذهم وإشعاع مدنيتهم وفرض شبه حماية على الجزر الواقعة وراء البحر . وقد حدث شىء من الفتور فى هذه العلاقات أثناء احتلال الهكسوس بين سنتى (١٦٧٥ — ١٥٨٠ ق . م) ولما تولت السلالة الثامنة عشرة مقاليد الأمور فى مصر عاد « الكفتى » سكان كفتور (كريت) ليعملوا كما اعتادوا فى خدمة المصريين ، وتمثلهم صور قبور القرن الخامس عشر كقبور « سنموت » و « ريخارا » و « مانشير ريسنب » وهم يحملون الهدايا إلى الفراعنة ليسمحوا لهم بالمتاجرة مع شعبهم . وكانوا يرغبون خاصة فى ابتياع الخضر المجففة والزيتون والمعادن الثمينة وأدوات الزينة والعاج والأوانى الخزفية والحجرية . وكانوا يستقدمون إلى جزيرتهم بعض الموسيقيين المصريين والكهان العارفين بالرسوم والشعائر الدينية ، ويلتقطون من الفنون المصرية أفكاراً ومواضيع يستهدى بها فنانوهم . ومن ذلك الموضوعان المصريان المعروفان : ورقة البردى وابن آوى الذى يطارد العصافير ، وهما اللذان يشاهدان مصورين على الأوانى الكريتية .

وكان الكريتيون يزورون الساحل السورى أيضا لأن الملاحة فى ذلك العصر كانت تقضى أن تساير المراكب السواحل وألا تبتعد عنها ، ولا يستغرب أنهم كانوا بلغوا مصر عن طريق سورية لأن ترددهم على قبرص الغنية بمعدن النحاس كان مألوفا . وقد أظهرت حفريات جبيل آنية فضية كريتية فى أحد القبور الملوكية يرجع عهدها إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . كما وجدت فى الطبقة الثالثة من أطلال رأس شمرة آنية فخارية جدرانها رقيقة وعليها حلزونات وأزهار مرسومة بدهان أبيض على سطح أسمر ، وآنية أخرى حمراء وسوداء مطلية بطلاء لامع ، وهى تشبه الآنية التى وجدت بمقابر اللاهون وأبيروس وهراجة ، وكلها كريتية ويرجع تاريخ صنعها إلى القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد . ويدل كل هذا على أن جالية كريتية أقامت فى مدن الساحل السورى منذ ذلك الزمن . وكان همها التجارة مع أهلها ونقل خشب لبنان على مراكبها إلى مصر لاحتياج منشآت وصناعات الفراعنة إليها .

وظل الكريتيون يقومون بدور الوسيط هذا خلال القرنين السادس عشر والخامس عشر حتى ثقلت وطأتهم على المصريين وعلى الميسينيين . وهؤلاء هم الآشيون من الهنود الأوربيين الذين احتلوا بلاد اليونان قبل العرق الدورى وبنوا مدينة (ميسين) وأنشأوا المدنية الميسينية وجعلوا ينتشرون شيئا فشيئا فى الجزر وعلى شواطىء آسية ويعملون جنبا إلى جنب مع الكريتيين فى تجارة البحر المتوسط . ويظن أن الفراعنة هم الذين أغروهم أخيراً بمهاجمة كريت والقضاء على سلطتها البحرية وتهديم عاصمتها (كنوس) والاستيلاء على أسواقها التجارية ، وقد وفدوا بدورهم على مصر وطفقوا يتاجرون مع أهلها خلال حكم السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ، وخلفوا آثاراً متعددة كالأوانى الفخارية ذات الركات (Vases à étrier) والأوانى البيضية ذات العروتين فى قبور وبيوت (عراب) و (تل العمرنة) وبالقرب من أسوان وفى عدة بقاع أخرى من وادى النيل .

واستصفى الميسنيون خاصة قبرص فاستثمروا مواردها . وبدأت حضارتها بالازدهار فى عهدهم فسطع نجم حاضرتها (أنكومى) وتألقت فى مدنها المتعددة مدارس فنية انتشرت تعاليمها فى البلاد المجاورة ، وذلك لأنها أصبحت لغناها الطبيعى محطاً هاما على طريق الساحل السورى الذى يقصده الميسنيون ليبتاعوا ما تأتى به القوافل إلى مرافئه من عاج وطيوب وجياد .

وأعود الآن إلى ذكر مدينة رأس شمرة . فقد دلت حفرياتها التى قام بها العالمان الفرنسيان كلود شيفر وجورج شينه منذ سنة ١٩٢٩ و التى اضطرا إلى وقفها عند نشوب الحرب العالمية الثانية على مدى اتساع المبادلات التجارية بين السوريين القدماء و بين الميسينيين ، ويظهر أن مرفأ رأس شمرة الذى هو « مينا البيضاء » الحالى كان أكبر مما هو عليه الآن ، وأن صخوره الكلسية التى تفتتت على مدى العصور كانت تحميه من أمواج البحر ، وهناك كانت تقع مدينة (أوغاريت) القديمة مقابل قبرص على ملتقى عدة طرق برية كبرى تنفذ الى الداخل وتسلكها القوافل التى تنقل تجارة « الترانسيت » العالمية . وكان أهالى « أوغاريت » من الساميين ، وكانت توجد بينهم جالية من القبرصيين الميسينيين الذين يقيمون فى حى المرفأ . وظهر من الأشياء الأثرية التى عثر عليها هناك أن مدنية هذه المنطقة قد تأثرت بحضارات مصر وبلاد الرافدين وآسية الصغرى . يضاف إليها جهود السوريين الإبداعية . وتشبه الى حد بعيد المدنية البحرية السائدة فى الجزر والشواطىء الميسينية . ويدل انتشارها الواسع هذا على مبلغ قوتها وحيويتها . فقد اكتشف سنة ١٩٣٧ منزل فى (أوغاريت) استعمل فى بناء جدرانه دعامات خشبية مستعرضة بين صفوف الأحجار . ويظن أن هذه الطريقة سورية المنشأ وأن الميسينيين اقتبسوها واستعملوها فى بناء عمارات (ميسين) و(تيرنت) وغيرهما . وكذلك فان قطع الأحجار وتماسك الجدران المشاهدين فى بناء حصن عسكرى ، فى (أوغاريت) هما نفسهما المستعملان فى بناء القلعة التى اكتشفها (شليمان) و(دوربفيلد) فى حصار (ليك) وقالا عنها : إنها طروادة الهومرية الرابعة . وفى منازل رأس شمرة وجدت قبور تحت غرف بعضها ، وهى تحوى دهليزا صغيرا منتهيا بدرج يؤدى إلى غرفة الدفن المستطيلة ذات السقف المحدب أو المجزوء . وهذه القبور تختلف قليلا عن القبور الميسينية التى وجدت فى بقاع أخرى . ويظن أن مهندسى (أوغاريت) المعمارين استوحوا فى بنائها التقاليد المحلية السورية فى تشييد القبور بدلا من شقها فى التراب . وقد وجدت فى هذه القبور أدوات وأوانٍ فخارية كانت مستعملة فى القرنين الرابع عشر والثالث عشر كالزبادى القبرصية والأباريق المختلفة والكؤوس ذوات القواعد المرتفعة والأوانى الفخارية المصنوعة على شكل قرون

والتى تمثل أشكالا حيوانية ، منها السمك ورؤوس الجياد أوالمصنوعة من مادة فخارية حمراء مزينة بحلزونات ومختومة بأختام قبل صنعها . وهى تشبه ما أخرج من مثيلاتها فى (أنكومى) و (لاماركو) و (سلامين) من قبرص ومن (أياليزوس) فى رودس .

ويطول بنا البحث إذا حاولنا أن نعدد كل الأشياء الأثرية المهمة المخرجة من (أوغاريت) والتى تدل على كمال وتقدم صناعاتها المحلية الأخرى البرنزية والعاجية والمعدنية . ونكتفى بذكر أمثال « بعل » الصغير المصنوع من البرنز والذهب والفضة والألكتروم والحجر ، والكأس والصحفة الذهبيتين المزخرفتين بمواضيع فنية منشؤها بلاد الكلدان والآشوريين وميسين وقبرص . وهذا يعطينا فكرة عن المبادلات التجارية التى كانت تجرى بين بلاد الشرق الأدنى والعالم اليونانى فى (أوغاريت) وغيرها من المدن السورية ، والتى كانت عاملا أساسياً فى نشوء المدنية السورية القديمة ، وتشكل الشعوب السورية الجريئة التى بدأ دورها بعد القرن الثانى عشر فى تسلم تجارة البحر المتوسط والقيام بدور الوسيط الذى كان يقوم به الكريتيون والميسينيون .

ولا يخفى أن الشرق الأدنى قد تعرض فى فاتحة العصر الحديدى الى إغارات أقوام هندية أوربية كان من أثرها أن تهدمت أو ضعفت إمبراطوريات الحيثيين والإيجيين والمصريين . وهذه الغزوات هى نفسها التى ساقت الفلسطينيين إلى فلسطين والدوريين إلى بلاد اليونان . وهؤلاء الأخيرون شعب محارب شديد البأس ، أحدث انقلاباً خطيراً فى حياة سواحلها وجزرها ، وأخضعها وأجبر أهلها على الهجرة ، وسكنها ، وقضى على المدنية الميسينية الرفيعة ونشر فيها حياة نصف بربرية مدة خمسة قرون قبل أن تتهيأ له الأسباب لتأسيس المدنية الإغريقية الهيلينية . وماحوادث حروب طروادة التى تصفها إلياذة هوميروس إلا ذكريات أدبية محفوظة عن إغارة المغيرين الجدد وعن انتهاء سيادة الآشيين وفرار سكان اليونان أمام الدوريين .

وأمام هذه الاضطرابات التى حدثت فى كل أنحاء العالم القديم توقفت الحياة الدولية وانقطعت العلاقات بين بلاد الشرق الأدنى وبلاد اليونان حيناً من الزمن ، حتى انتظمت

من جديد على قواعد جديدة . وكانت المدن الساحلية السورية جبيل وصور وصيدا وسيميرا وغيرها أول مستفيد من ضعف جيرانها الأقوياء، فأسست امبراطورية استعمارية بحرية ورثت الكريتيين والميسينيين ، وتعد أول مثل للامبراطوريات البحرية والتجارية التى أسستها فى العصور الحديثة دولتا البورتغال وهولندة وأمم أوربة الكبرى .وقد تكاثرت مراكب هذه المدن ، وصارت أول المراكب التجارية فى البحر المتوسط ، تنتشر فى أرجائه حاملة إلى شواطئه بضائع الفينيقيين وفنونهم وآلهتهم .

ويحدثنا هوميروس كيف كان الفينيقيون يهبطون إلى الشواطىء اليونانية فينصبون خيامهم ويجذبون إليهم السكان البسطاء . ثم يبيعونهم سلعهم ويرحلون سراً بعد أن يختطفوا نساءهم وأولادهم . ولا ريب أن حديث هوميروس هذا فيه تحامل كثير على الفينيقيين ، ويدل على ما كان يكنه الإغريق لهم من بغض وحسد . على أنه يدلنا على كيفية قيام المبادلات التجارية الأولى بين الشعبين . وقد قامت مع مرور الزمن مقام المعسكرات المؤقتة ، أسواق دائمة انتظم فيها البيع والشراء .

وكان الاحتكاك شديداً بين الفينيقيين والإغريق فى قبرص التى قدر لها أن تكون أداة الاتصال بين الشرق الأدنى وبلاد اليونان . وقد حل الفينيقيون فى مدنها (كيتيون) و (إيداليون) و (تاماسوس) و (لابيتوس) و (ناركانا) وملأوها بأسواقهم ومنشآتهم .

وعلى مايظهر كانت إقامتهم فى بعضها دائمة . وتذكر الكتابات التى وجدت هناك ملوكا فينيقيين حكموا فى (كيتيون) فى زمن متأخر . وقد نزلوا أيضاً فى كل جزر البحر المتوسط الشرقية فى (رودس) وجزر (السيوراد) و (الدوديكانيز) و (السيكلاد) و (الجزر اليونانية) وأسسوا فيها أسواقا تجارية ، وكانوا يدفعون إلى حكامها بعض الضرائب لكى يسمح لهم بالتجارة ، وكانوا يبيعون أهلها الذهب والفضة والأصواف المصبوغة والخمور والأفاويه والحبوب والتماثيل والأوانى الزجاجية والعطور وأدوات الزينة .

ولم تكن التجارة الفينيقية على كثرة العلاقات التى تنشأ عنها سبب الاتصال الوحيد بين الشرق الأدنى وبلاد اليونان فى الألف الأول قبل الميلاد . فهناك أيضا آسية

الصغرى (أيونيا) التي امتزجت فيها الحضارات الشرقية بالحضارة الإغريقية . وقد كانت هذه البلاد متأثرة قبل مجيء الدوريين إلى بلاد اليونان بمدنية بلاد الرافدين وبعبادات البابليين وعلمهم وفنهم ورموزهم ، وذلك خلال أزمنة التاريخ الحيثي وكانت مبادلتها معها تتم بواسطة الطرق الطبيعية التي تؤلفها وديان الأنهار . وأشهرها الطريق الذي يتبعه نهر (الميماندر) فيمر على (مانيزيا) و (ترالى) ويجتاز المدن الواقعة في مقاطعات (فريجيا) و(ليكونيا) و (كابادوسيا) حتى يبلغ الفرات . فتروح وتغدو عليها القوافل بين بابل والشواطىء الأسبانية ، محدثة تياراً تجاريا مهما كان عنصراً مؤثراً في حياة هذه البلاد الاقتصادية وعاملا رئيسيا في إدخال التأثيرات الشرقية إليها وإلى البلاد اليونانية الأوربية .

لهذا نشأت في هذه الأرض الأيونية التي يقول فيها هيرودوت : « إن لها أجمل سماء وأطيب إقليم » مدنية أيونية هيلينية ذات طابع شرقي ظاهر تختلف دياناتها وفنها وأخلاق أهلها عن ديانات بلاد اليونان الأوربية وعاداتها وفنها وأخلاقها . كما أن سكانها في الألف الأول قبل الميلاد كانوا من حفدة الآشيين ومنهم الليسيون والكاريون والدردنائيون وغيرهم الذين ألفوا دولا صغيرة حكمت على أفواه الأودية النهرية وعلى سواحل بحر إيجة . وبنوا فيها مدنا اشتهرت بجهودها في إنشاء الحضارة الإغريقية كـ (ميتلين) و (ميرنيا) و (سميرن) و (نياندريا) و (برين) و (ميلة) التي كان فيها معبد كبير مشهور للاهه (أبولون) و (إيفيز) التي عرفت بمعبدها المخصص لعبادة الربة (أرتيميز) المؤلفة من شعائر ورسوم شرقية أتت من بلاد الرافدين .

ويتبين من كل ماذكر أن التأثيرات الشرقية في الحضارة اليونانية حتى القرن الخامس قبل الميلاد كانت كثيرة وتؤلف عاملا هاما في تقدم هذه الحضارة وتعجيل تطورها . ولم يبدأ الإغريق بأداء ما استلفوه إلا بعد هذا العهد الذي شرحت لكم بايجاز خطوطه العامة . ويظهر تعلم الإغريق عن مدرسة الشرقيين خاصة في نواح شتى . منها الكتابة فألف باء الإغريقية مأخوذة من ألف باء الفينيقية التي توصلت قبل غيرها إلى تجزئة الكلام إلى أصوات بسيطة ، فتوافر لها عدد من الرموز السهلة الاستعمال والتركيب . ويقول هيرودوت : « إن كادموس الفينيقي باني طيبة اليونانية قد نقل إلى بلاد الإغريق الحروف

التى أوجد أشكالها ونشر استعمالها فى المستعمرات اليونانية الغربية » . ومما لاريب فيه أن الإغريق لم يكتبوا كما يقول بعض الباحثين بالحروف التى أخذوها عن الفينيقيين اللغة الفينيقية بل كتبوا لغتهم الخاصة ، على أنه ليس فى هذا أيضاً إنقاص من أهمية الفائدة الكبرى التى نالوها من استعمالهم حروف ألف باء فى فتح آفاق واسعة للغتهم ولتفكيرهم . أضف إلى ذلك أنهم اقتبسوا عدداً لا بأس به من الكلمات الفينيقية وأنهم فسحوا للتأثرات والمعارف الفينيقية مجالا واسعا كما تبينه ملحمتا هوميروس : الإلياذة والأوديسة الخالدتان . وكذلك الديانة اليونانية فانها قد تأثرت إلى حد بعيد بالديانات الشرقية واستعارت منها بعض مفاهيمها وصورها وأسماء آلهتها وكثيراً من الملاحظات الطبيعية والتأملات الفلسفية التى تنطوى عليها عقائدها ورسومها . فأصل الإلهة (كابير) التى كانت تعبد فى (ساموتراس) آساني ، وأسطورة هيراكليس تشبه أسطورة (جيلكاميش) ، وقرون بعض الآلهة اليونانية مأخوذة عن قرون الآلهة المصرية والشرقية ، وصور الجن ذوى الرؤوس الغريبة وصور الحيوانات المقدسة الحقيقية أو الخيالية مأخوذة عن صور معروفة كثيرة الشيوع فى بلاد الرافدين . وتظهر هذه الاستعارات الدينية خاصة فى (أسرار إيلوزيس) وفى ديانة الإلهة (ديونيزوس) المتأثرة بديانة (سابازبوس) إله تراكياوفريجيا الذى يدل على فكرة تجدد الطبيعة وانبعاثها ، شأن (أوزيريس) المصرى (وتموز) العراقى و (أدونيس) الفينيقى .

ثم إن تأثير الفنون الشرقية فى الفن الإغريقى واضح ولا يمكن نكرانه ، وتقول الأساطير إن (ديدال) اليونانى مبتكر التماثيل قد سافر إلى (منفيس) وتعلم فنه عن المصريين وفى الحقيقة تظهر لنا صنعة وأوضاع وحركات التماثيل اليونانية الواقفة والجالسة والراكعة التى نحتت قبل القرن الخامس قبل الميلاد ، مشابهة كل المشابهة لصنعة وأوضاع وحركات التماثيل المصرية ، كما أن طريقة حفر عيونها ووضع الأحجار الكريمة والزمرد والعاج والصدف والألباتر فيها وتزيين جيدها بعقود العقيق والزمرد والنحاس ، مماثلة للطرق الفنية التى كانت معروفة فى بلاد الرافدين . وأخيرا فان ما يشاهد من إتقان فى تبيان دقائق ألبسة التماثيل الإغريقية وأحذيتها ذات الرؤوس المعقوفة وعمرات رؤوسها العالية

المسماة (كالاتوس) ومايحيط بها من شعر جعد وخوذات وحافظات للخدود مأخوذ عن فن الحيثيين الذى أبدع كل الإبداع فى إتقان كل هذه التفاصيل .

وتعلم الإغريق عن الفينيقيين والسوريين القدماء الصناعات الفنية الدقيقة الزجاجية والعاجية والنحاسية . وأخذوا عنهم أيضا صناعة المراكب البحرية وأصول الملاحة . وفى الواقع بنى حفدة (عوليس) سفنهم الأولى وتعلموا فى مدرسة صور وصيدا البحرية مبادئ الملاحة والأسفار ، وجعلوا يحذون حذو أهلهما فى طواف أرجاء البحر المتوسط ، ويجدّون فى بناء مستعمرات وأسواق تجارية شبيهة بمستعمراتهم وأسواقهم ؛ يحدوهم إلى ذلك فكرة الفتح والسيادة وحب الربح والرغبة فى الحصول على الغنائم . فطافوا فى بادئ الأمر بشواطىء بحر إيجة وتعاطوا التجارة بين مدن آسية الصغرى الأيونية وبين بلاد (الآتيك) الأوربية . ثم مدوا فاعليتهم إلى حوض البحر الأسود فأحاطوه بزنّار من مدنهم ومن منشآتهم .

وقدتوسع الأيونيون منهم على شواطىء الأناضول الجنوبية وحلوا فى (رودس) وأقاموا فى (قبرص) حيث اشتدت المنافسة بينهم وبين خصومهم الفينيقيين اشتداداً عظيما . وكان لهم فيها مراكز تجاور المراكز الفينيقية التى ذكرتها ، وأشهرها (بافوس) و (سالاميس) .

وقصدوا بلاد النيل ودخلوا فى خدمة فراعنتها كجنود مأجورين منذ القرن الثامن قبل الميلاد ، وصاروا يتدخلون بينهم وبين رعاياهم السوريين وبينهم وبين منافسيهم ملوك بلاد الرافدين والأناضول . واستوطن بعضهم المدن المصرية مع الزمن ، وصاروا يتاجرون مع أهلها . وقد أسسوا سنة (٦٥٠ ق م) مدينة (نوكراتيس) الصغيرة بالقرب من (سايس) فغدت مركزاً مهماً لاحتكاك الثقافتين المصرية القديمة والإغريقية . وعرفت هذه المدينة بكونها مدينة عابثة لاهية اشتهرت بما كان فيها من المحظيات وبائعى الورود والأزاهير .

وقد اتسعت المنشآت الإغريقية فى مصر وصار لهم حى تجارى خاص بهم فى كل مدينة من مدنها الكبرى ، يبيعون فيه مصنوعات بلادهم ومنتجاتها كالأوانى الفخارية

والزيت والخمر ، ويشترون الحاصلات المصرية كالحبوب والألباتر وورق البردى والمعادن الثمينة والجلود والعاج وبيض النعام وريشه وكل ماينقص بلادهم الفقيرة . وكان هذا المثل مشجعاً للاغريق الدوريين فعبر بعضهم البحر وهبطوا إلى شواطىء لوبيا وأسسوا فيها مدينة (سيرين) التى صار لها شأن كبير فى التجارة مع مصر وبلاد اليونان الأوربية ، ثم ولوا وجوههم شطر البحر المتوسط الغربى فحلوا فى جنوب إيطاليا . ومن هناك نفذوا إلى (سيجيليا) وجعلوا ينافسون فيها المنشآت والمستعمرات الفينيقية . ووصلوا إلى شواطىء فرنسا الجنوبية فشيدوا فيها مدينة (فوسة) ومنها ساروا إلى أسبانيا . ولا يخفى أن الفينيقيين قد سبقوهم إلى هذه الأرجاء وأسسوا فيها مستعمرات زاهرة أشهرها (قرطاجة) التى ازدادت ثرواتها الاقتصادية فى مدة قليلة من الزمن فجعلت تشيد أمبراطورية استعمارية كبرى على شواطىء هذا البحر الجنوبية . وكان أن وجد الخصمان الإغريقى والفينيقى وجهاً لوجه مرة أخرى فى هذا البحر المغلق ، وجعلا يستعدان للصدام المسلح .

وشاءت الظروف التاريخية أن يتخذ هذا النزاع شكلا خاصا ، إذ أن الفينيقيين لم يكونوا أحرارا فى بلادهم السورية الساحلية . فعلى الرغم من قوتهم البحرية التى فرضوا بها احترامهم على أعدائهم فان استقلالهم السياسى كانت تهدده نزعات أمم الشرق القديم الإمبراطورية ، لهذا فانهم اضطروا لأن يخضعوا على التوالى إلى الآشوريين وإلى البابليين المحدثين . ثم أفضى أمرهم سنة (٥٣٩) إلى الفرس الذين كانوا بحاجة ماسة إلى مراكبهم وسواحلهم عندما أسسوا إمبراطوريتهم العالمية الكبرى التى امتدت على كل أجزاء الشرق القديم . فارتضى الفينيقيون أن يخدموهم ، واستطاعوا بمهارتهم أن يحرزوا عطفهم ومساعدتهم لأساطيلهم التجارية والحربية . فازدهرت (صور) و(صيدا) من جديد واتسعت أعمالها وراء البحر ، وصار الفينيقيون يزاحمون الإغريق مزاحمة شديدة حتى فى عقر ديارهم .

ولما نشب الصراع الفارسى الإغريقى انحاز الفينيقيون كما هو منتظر الى جانب الفرس ، وقد اشترك أسطولهم فى القضاء على ثورة المدن الإغريقية الآسيوية التى حاولت أن تتحرر من سلطة (داريوس) . وقد غلب هذا الأسطول فى الموقعة الأولى التى جرت قرب شواطىء (بامفيلة) ولكنه لم يلبث أن ثأر لهذه الهزيمة بأن أنزل حملة فينيقية إلى جزيرة قبرص التى اشتركت

فى الثورة . فاحتلت مدينة (سالاميس) الإغريقية وأخمدت حركات عصيانها . ثم سار الأسطول الفينيقى وقد بلغت سفنه عدداً كبيراً بما انضم إليها من مراكب المصريين والقبرصيين والحيثيين فساهم فى تضييق الحصار على (ميله) كبرى المدن العاصية فى آسية الصغرى حتى سقطت فى سنة (٤٩٤ ق م) فقضى نهائيا على الثورة الأيونية . ثم اندلعت نيران الحروب الميدية فكانت أول اصطدام منظم بين الشرق والغرب . واضطر الإغريق أن يلتقوا بآن واحد بأعدائهم كلهم فى ميادين القتال . وعندما نظم (كزركس) الحملة الكبرى على بلاد اليونان الأوربية سنة (٤٨٥ ق م) كلف الفينيقيين حفر قناة تصل جبل الآتوس بالقارة الأوربية وبانشاء جسر مزدوج من مراكبهم على مضيق الهلسبونت وقد جمعوا هم وحلفاء الفرس أكبر أسطول عرفه العالم القديم مؤلفا من (١٢٠٧) قطعة بحرية فجرت معركة (سلامين) المشهورة التى ظهر فيها الإغريق على الحلفاء . وقد قاتل الفينيقيون ببسالة ، رائعة وظلوا يحاربون إلى ما بعد ضـــياع المعركة . ثم سار أسطولهم وجعل يهدد المراكز اليونانية حتى رضى الإغريق أخيراً أن يعقدوا معهم صلحا مشرفا صان آسية من غزواتهم .

ولا ريب أن الإغريق خرجوا ظافرين من هذه الحروب فأنقذوا مدينتهم «وأنقذوا أولادهم ومعابدهم وآلهتهم وقبور أجدادهم » كما تقول أناشيدهم العسكرية ، وصارت بلادهم تشعر بأنها نالت استقلالها التام فى كل النواحى السياسية والاقتصادية والعقلية . وكان أن تغلغلت فيها العواطف الوطنية وانتشرت فى مدنها الحركات الديموقراطية ، فكانت عاملا كبيراً فى تأليف وحدة العالم الإغريقى الأخلاقية وشعوره بشخصيته واطلاعه على مدى عبقريته وحيويته . ولم تظهر نتائج كل ذلك إلا بعد منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، إذ تقدمت الأفكار الفلسفية اليونانية ، وانتشرت الحركات الأدبية ، ومر الفن الإغريقى إلى عهده الكلاسيكى فأبدع روائعه الخالدة .

وقد أدى كل ذلك إلى نشوء عالم جديد للمدنية فى البحر المتوسط ، صفاته الأساسية مستمدة من عبقرية المدنيات الشرقية والمدنية الإغريقية ، يشع أنواره البيضاء على كل الجهات ، فتضىء الشرق كما تضىء الغرب .

حفريات تل حريرى (مايرى)

بقلم عبد العزيز عثمان
محافظ المتحف الوطنى بحلب

سادتى :

كم كنت أود لو استطعت أن أحدثكم عن حفريات قامت بها مديرية الآثار السورية بعد أن تسلمها أبناء البلاد الوطنيون . ولكن ظروف انتقال سورية من عهد إلى عهد أخرت قيام التنقيبات برغم ما كان يرصد لها من الاعتمادات فى الموازنة .

لهذه الأسباب اخترت أن أحدثكم عن حفريات قام بها أستاذنا فى معهد (اللوفر) وكانت إلى جانب حفريات رأس شمرة أهم حفريات جرت فى سورية قبيل الحرب العالمية الثانية . ولا سيما أن للآثار المستخرجة أثناء هذه الحفريات قيمة علمية كبرى ، وتشغل مكانا مهما بين الآثار الموجودة فى متحف حلب . وعدا ذلك فانه لم ينشر عنها شىء بعد فى اللغة العربية . وقد اعتمدت فى إعداد هذه المحاضرة على مذكرات دروس معهد (اللوفر) وعلى تقارير بعثة الحفريات وعلى بعض المقالات المنشورة فى مجلة « سيريا » أو فى مجلة علم الآثار الآشورية ، وعلى الكتاب الذى وضعه رئيس البعثة الأستاذ « پارو » تحت عنوان « مارى » وأخيرا على دراستى الخاصة للقطع الأثرية الموجودة فى هذا المتحف .

اسم (مايرى) اسم معروف منذ القديم ، فقد وجد على تمثال صغير فى المتحف البريطانى (رقم ١٢١٤٦) وعلى بعض القطع الأثرية للملك السومرى « إيانادو » حيث اجتمعت أسماء مدن مايروكى وكيش واكشاك ، ووجد فى نص للملك «توغولتى نينورتا» الأول

كما ذكر فى شريعة حمورابى . ومع أن اللفظ كان يختلف بين قطعة أثرية وأخرى وبين نص ونص فيأتى تارة « مايروكى » وأحيانا « ماريكى » وثالثة « شار مارى » ورابعة « مه راكي » فان تحقيقات العالم الفرنسى « تورو دانجان » فى مجلة علم الآثار الآشورية أفضت به إلى الاعتقاد بأن اللفظ الحقيقى هو « مايرى » مستنداً بذلك خاصة إلى نص للملك « توغولتى نينورتا » ولعل اللفظ الحقيقى هو معيرى أو محيرى أو اسم مشهور موجود فى سورية وهو « معره » وقد سها عن بال المحققين الحرف الحلقى الذى يصعب النطق به . على أن الأوربيين قد خففوا اللفظ إلى « مارى » حيث نجده الآن فى كتبهم ومؤلفاتهم عند البحث عن هذه المدينة القديمة .

ولكن إذا كان هذا الاسم معروفاً فى النصوص القديمة بأنه اسم مدينة تقع على الفرات ذات مدنية كبرى وأهمية عظمى، فقد كان الموقع الحقيقى لهذه المدينة مجهولا. وقد ذكره العلماء تارة على الشاطىء الأيمن وتارة على الشاطئ الأيسر من الفرات ، وكان أقربهم إلى تعيين الموقع الحقيقى « البرايت » و « هرزفلد » و « دولاپورت » . على أن أحداً منهم لم يستطع تحديد الموقع بالضبط، لأن انحراف مجرى الفرات بمرور الزمن نحو الشرق بما يقرب من كيلومترين ونصف ضيع على الباحثين الموقع الحقيقى للمدينة . كما أن بعد التل عن الطريق العام الذى يصل بين دير الزور وأبى كمال بما يقرب من أربعة كيلومترات جعل الموقع بعيداً عن أنظار الباحثين والسائحين ، ولهذا فقد كان من المستحيل العثور عليه لو لم تأت الصدف بكشف السر المغلق الذى انطوت عليه قرية تل حريرى .

ففى يوم من أيام شهر آب (أغسطس) سنة ١٩٣٣ بينما كان بعض أفراد من البدو يحفرون فى أحد أطراف تل حريرى لاستخراج حجر ليضعوه شاهداً على قبر أحد موتاهم، إذ عثروا على تمثال ضخم بدون رأس من الحجر الأبيض ، فأخبروا السلطات الإدارية بذلك ، وهذه عملت حالا على نقل التمثال إلى المتحف الوطنى بحلب . وما إن ذاع خبر الاكتشاف حتى طلبت مديرية المتاحف الوطنية الفرنسية امتيازاً لإجراء الحفريات فأسرعت مديرية الآثار فى سورية التى كانت بيد الفرنسيين باجابتها إلى طلبها ، وتشكلت بعثة يرأسها الأستاذ « بارو » الذى عرفه إخواننا العراقيون فى « تللو » و « لارسا »

وقبل انتهاء سنة ١٩٣٣ احتلت البعثة مكانها بالقرب من تل حريرى وابتدأت الحفريات فى مقطع مستطيل رسم فى المكان نفسه الذى وجد فيه التمثال . وقد دامت هذه الحفريات حتى سنة ١٩٣٩ وعثر فيها على مدينة مايرى القديمة بمبانيها ونقوشها وتماثيلها . وسنسعى الآن لإعطاء لمحة عنها :

(١) معبد عشتار

عرف بذلك من الكتابات التى وجدت على بعض التماثيل . وليس غريباً أن تكون إلهة الحب والحرب معبودة فى مايرى ، فقد أضاف أحد ملوكها بوزور عشتار اسم الإلهة إلى اسمه ، وتمثاله موجود فى متحف استانبول من زمن بعيد .

وقد ظهر بنتيجة التنقيبات أن معبد عشتار فى مايرى يشبه فى تقسيماته معبدها فى مدينة آشور الذى قام بدراسته العالم الأثرى أندره فى كتابه (Die archaichen Ishtar-tempel in Assur) فقد عثر فى آشور وفى مايرى على معابد بنيت بعضها فوق بعض فى أجيال مختلفة مما يدل على قدم تقديس السكان لهذه الإلهة .

أما معابد مايرى فهى :

١ — عثر على بقايا آخر معبد بناه ملوك مايرى فى أواخر الألف الثالث ق م . وقد خربه حمورابى وجنوده عند استيلائهم على المدينة ، ولم يبق منه ما يستحق الذكر .

٢ — عثر على المعبد الذى وجد فى المستوى (أ) وتبلغ مساحته ما يقرب من ٢٢٥م٢ ويلاحظ فى مخطط المعبد كما فى معبد آشور مدخل وممر طويل يحيط به الجدار الخارجى من جهة وغرف صغيرة من جهة أخرى ، وينتهى هذا الممر بفناء واسع . أما الغرف الصغيرة فقد كانت مخصصة لسكنى رجال الدين والخدم وكانت مفصولة فصلا تاما عن المنطقة الحرام المؤلفة من قاعتين كبيرتين كانتا مخصصتين للعبادة ، عثر فى أولاهما على دكة مرتفعة قليلا دفن فى قاعدتها خمس كؤوس من الطين المشوى كانت ولا شك مقدمة كقرابين الى الإلهة . وقد عثر على الأشياء نفسها فى مكان مماثل فى معبد عشتار فى آشور .

كانت أرض القاعة مصنوعة فى الأصل من التراب المطروق ، ثم غطيت بطبقة رقيقة من الجص ، وأقيمت فى الوسط منصتان للتقدمة ، دفن فى قاعدتيهما نذر من صحون فخارية . وعثر فى إحدى زوايا القاعة على جرن بيضى مغطى بطبقة من القير كان مخصصاً للماء المقدس .

والقاعة الثانية شبيهة بالأولى ، ومما تجدر الإشارة إليه أن منصتى التقدمة قد صنعتا هنا من الآجر المحشو بأجزاء صغيرة من وريقات ذهبية أو صدفية أو لازوردية أو مربعات من حجر أحمر . وكانت عتبات الغرف المقدسة وأرض فناء المعبد مغطاة بالبلاط المصنوع من اللبن أو من الآجر . ورتبت مجموعة القنوات المعدة لتصريف ماء المطر أو المياه المستعملة بصورة جيدة ، فاستعملت قنوات من الآجر مشدودة إلى بعضها ومغطاة بالقير .

ومما يجدر ذكره وجود بئر فى الفناء مبنى بالآجر عثر فى داخله على كثير من التماثيل المحطمة وقطع الفخار التى رماها فيه الجنود المحتلون بعد استيلائهم على المدينة ، كما وجد فى هذا الفناء جرن ماء ومنصة تقدمة ومكان لحرق الضحايا ، مما يدل على أن هذا الفناء كان مستعملا للحفلات الدينية .

ويقع المعبد فى أحد أطراف المدينة إذ تحيط به أسوار متينة بحذاء القسم الخارجى منها وجدران من الجهة الملاصقة لها . وقد عثر على مخرج متصل بواسطة درج بأحد أفنية المعبد ، ويظن أن قاعة العبادة الثانية كانت مخصصة للسائحين الذين يأتون من خارج المدينة . ولقد دلت الكتابات والتماثيل التى عثر عليها أن عهد هذا المعبد يرجع إلى ما قبل عصر سرجون الأكادى ، وقد خرب من قبل « أيانادو » ملك لجش حوالى ٢٩٠٠ ق . م .

٣ — حل المعبد السابق مكان معبد أقدم عثر عليه عند الحفر فى مستوى أعمق ، وهو يشبهه تماما ، غير أنه لم يعثر فيه إلا على قاعة واحدة للعبادة . ومن دراسة اللقى المكتشفة فيه (تمائم من اللازورد أو الحجر تمثل حيوانات مضطجعة ، رؤوس أصنام صغيرة لرجال حليق اللحية والرأس ، قطع من الفخار) يمكن أن نرجع هذا المعبد إلى حوالى ٣٠٠٠ ق . م .

٤ — تعمق المنقبون فى منطقة المعبد فعثروا على مستوى ثالث وعلى معبد بالمخطط السابق نفسه ، غير أنه كان يوجد رواق بخمسة أعمدة من اللبن عثر على قواعدها . ويمكن أن يرجع تاريخ هذا المعبد الى ٣١٠٠ ق . م .

٥ — وفى المستوى الرابع عثر على معبد صغير بالمخطط نفسه أيضاً يبعد قليلا عن موقع المعابد السابقة ، ويرجع هذا المعبد إلى ٣٢٠٠ ق . م أى إلى أوائل عهد فجر السلالات . وأود هنا أن أشير إلى أن عادة دفن آنية الفخار فى عتبة باب قاعة العبادة حيث تبدأ المنطقة المقدسة وتحت منصات التقدمة هى نوع من الشعائر الدينية وجد فى جميع هذه المعابد على اختلافها .

اللقى فى معبد عشتار :

كانت اللقى فى هذا المعبد كثيرة ، وكان يعثر على كثير منها ملقى على بلاط الغرف أو الأفنية ، وأحياناً متراكما بعضها فوق بعض حيث كان يضعها الكهنة ، وتارة مدفونة تبعاً لإحدى الشعائر الدينية ، أو ملقاة فى بئر أو حفر عميقة ، وكان القسم الأكبر من التماثيل المكتشفة مصنوعاً من حجر رخامى غير تام (ألباتر) أو من حجر كلسى عادى . ويظهر فى بعض التماثيل أثر الفن الواقعى . وأكثر القطع تمثل أشخاصاً فى وضعية العبادة والصلاة . ولقد وجدت كتابات على الكتف العارية لبعض التماثيل .

وأهم القطع المكتشفة :

١ — تمثال الإله شاماش : أول تمثال عثر عليه البدو ، وكان سبباً فى حفريات مارى ، وتراه يظهر مطلا من وراء الجبال العالية المرسومة على بطن التمثال بشكل أنصاف دوائر بعضها فوق بعض ، وتوجد كتابة إسفينية تحتها يذكر اسم الإله واسم المعبد الذى قدم إليه .

٢ — تمثال إيدى ناروم : وقد كتب على كتفه العارية : « إيدى ناروم إلى الإلهة عشتار ... قدم » ولم يبق من هذا التمثال سوى القسم الأعلى ، ووجه التمثال سالم بصورة خاصة مما هو نادر الوجود فى مارى ، ويظهر فيه طابع الفن الواقعى . وهو مصنوع من حجر صوانى صلب .

٣ — تمثال إبى إيل : وهو تمثال رجل ملتح جالس على مقعد مستدير ، حليق الرأس ، وقد كتب على ظهره تقدمة التمثال إلى الإلهة عشتار .

٤ — تمثال لمجى مايرى : وهو تمثال صغير مصنوع من حجر رخامى غير تام ، وهو الذى كشف عن اسم المدينة إذ كتب على كتفه العارية : « لمجى مايرى ملك مايرى كبير أمراء الإله إتليل ، تمثاله إلى الإلهة عشتار قدم » ويرى لابساً ثوباً من جلد الحيوان « الـكوناكس » وقد وضع إحدى يديه على الأخرى بوضعية الصلاة متقدماً إلى الأمام . أما شعره الـكث فربما كان مستعاراً ، وهو يشبه إلى حد كبير الشعر المستعار الموجود على خوذة « مسكالمدوج » التى وجدت فى مقابر أور .

٥ — تمثال امرأة : يظن أنها الإلهة عشتار لابسة قبعة خاصة « بولوس » .

٦ — العاشقان : مما يؤسف له أنه لم يعثر على رأس هذين التمثالين الجالسين على مقعد واحد ، ويظهر الرجل عارى الصدر لابساً ثوباً من جلد الحيوان يمسك بيده اليسرى القبضة اليمنى لامرأة جالسة بالقرب منه وهو يضمها إلى صدره . أما المرأة فهى ممثلة عارية الـكتف والذراع اليسرى وتظهر مستسلمة منقادة لإرادة الرجل . وليس غريباً أن تظهر مثل هذه القطعة فى معبد للإلهة عشتار إلهة الحب . وقد وجد فرانكفورت فى تل أسمر قطعة مماثلة فى السنة نفسها . وهذا المشهد يعطينا صورة واضحة عن الفن الواقعى فى ذلك العصر ، ويدل على الملاحظة الدقيقة التى وصل إليها النحاتون فى مايرى القديمة فى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد .

٧ — مشهد انتصار : وجدت أجزاؤه مبعثرة ، وهى مصنوعة من الصدف ، والمشهد يمثل الملك وعائلته فى استقبال حاجبه الذى يقدم اليه أسرى عراة . ويرى أحدهم وهو يركع أمامه ، ويقف الآخرون بين صفين من الجنود بكل خضوع موثقين بالحبال . وهو يشبه مشهدا مماثلا وجد على « راية أور » ولا شك أنهما من العصر نفسه .

٨ — تمائم متنوعة : من الصدف أو اللازورد أو الألباتر .

٩ — إناءان من حجر زيتى (Stéalite) يشاهد على أحدهما صراع بين أسد وثعبان ، وعلى الآخر حيات ملتف بعضها حول بعض .

١٠ — أختام أسطوانية ودمى وأصنام نذر وآنية من فخار كثيرة العدد ، وترجع جميع الآثار الموجودة فى المعبد الى أوائل الألف الثالث قبل الميلاد .

(٢) قصر مايرى

يتطلب التنقيب العلمى أن تقوم البعثة بعمل مجسات فى نواح مختلفة من التل أو المنطقة التى تنقب فيها لكى تحصل على فكرة كاملة عما يمكن أن يضمه الموقع الأثرى من مخلفات العصور الماضية . ولهذا السبب قامت بعثة التنقيب التي تحفر فى مايرى بعمل مجسات منذ الموسم الأول ، واكتشفت مواقع بعض المقابر الآشورية . وفى الموسم الثانى قامت أيضا بعمل مجسات فتوصلت الى اكتشاف موقع القصر الملكى ، فابتدأ فيه الحفر فى الوقت عينه الذى كان فيه يحفر فى المعبد ، ولم ينقطع العمل فى هذين المركزين فى جميع مواسم الحفر التى قامت بها البعثة ، بل أضيف إليهما مركز ثالث فيما بعد .

كان اكتشاف القصر الملكي من المصادفات السعيدة التى رافقت البعثة ، فقد اكتشف فيه حتى اليوم مايزيد عن ثلاثمائة غرفة وممر وفناء . ومما يزيد فى قيمة هذا القصر بقاء جدرانه سالمة بارتفاعاتها فى وسط القصر ومؤتكلة بفعل الزمن فى الأطراف والمنحدرات ، وقد عثر على جدران يبلغ ارتفاع بعضها أكثر من خمسة أمتار مما لم يوجد له نظير قط فى أية بقعة من بقاع آسية الغربية يرجع تاريخها إلى مثل هذا العهد أى إلى الألف الثالث ق . م . ولهذا فان لقصر مايرى أهمية كبرى بما يقدم إلينا من معلومات عن فن البناء فى الشرق القديم ، إذ أن ذلك سيفسح لنا المجال واسعا لدراسة طريقة تنوير الغرف نهاراً وقضية عدم وجود النوافذ وارتفاعات الأبواب ، والطريقة المتبعة قديما فى صنع السقف وعلو البناء وشكل المخطط والنسب العامة التى تسيطر على فكرة المعمار فى هندسة البناء . جميع هذه المسائل الهامة كانت لا تعدو من قبل حد الفرضيات ، فجاء قصر مايرى بسلامة بعض أجزاء بنيانه يقدم لنا حلولا لها هى أقرب إلى الصحة من غيرها .

لاشك فى أن القصر لم يبن دفعة واحدة ، بل شيد على مراحل كلما دعت الحاجة إلى إضافة أجنحة جديدة . وكان الأصل المتبع فى وضع المخطط يسهل عليهم تلك الإضافات . ذلك أنه كان يدور حول فكرة بسيطة ، وهى بناء غرف متصل بعضها ببعض حول

أفنية واسعة . ولقد كانت هذه القاعدة متبعة لتضمن دخول نور الشمس إلى داخل الغرف ، فقد ثبت أنه لم تكن توجد نوافذ لغرف القصر برغم الفرضية القائلة بوجود نوافذ صغيرة علوية فى بعضها بالقرب من السقف . وسبب عدم وجود النوافذ هو شدة الحر خاصة فى أيام الصيف . أما الأبواب فكانت مرتفعة ، ويبلغ ارتفاع بعضها مايزيد عن خمسة أمتار ، وذلك لكى تسمح بدخول نور الشمس الى الغرف .

وكانت مواد البناء المستعملة هى اللبن لبناء الجدران التى تطلى بعد ذلك بطبقة من الطين المخلوط بالتبن ، وكان يستعمل الآجر والحجر لبناء الأسس ، كما كان يطلى القسم الأسفل من الجدران بالقير وتغطى أرض الغرف ببلاط من الآجر أو بطبقة من الجص ، وأحيانا يكتفى بالتراب المطروق . وكانت أبواب الغرف تصنع من الخشب ومن مصراع واحد فى أغلب الأحيان، ويلى الباب عتبة كانت تعتبر مقدسة وتدفن فيها القرابين . وكانت طريقتهم فى سقف الغرف هى أن توضع الدعامات من جذوع الشجر الضخمة ، ثم تمد فوقها أغصان شجر مضفورة بصور تقاطعها عموديا ، ثم يوضع فوقها طبقة من اللبن ويصب فوق ذلك طبقة من الجص مائلة قليلا لتسهيل جريان مياه المطر نحو قنوات خاصة . وكانت تصنع هذه القنوات وقنوات توزيع الماء وتصريف المياه القذرة من الآجر وتطلى بالقير .

ومما يدهش حقاً أن جميع وسائل الرفاهية كانت موجودة فى هذا القصر ، ولم تنقصه الحمامات من الطراز الحديث مع مغاطس بقيت سالمة حتى اليوم، ولا المطبخ وأدواته وأفرانه وغرف المؤونة والمخازن والمستودعات ، ولا الغرف الخاصة بالإدارة وتسيير أمور الدولة ، ولا الغرف الخاصة بنساء القصر وحياة الملك الخاصة والتى يقدر أنها كانت فى القسم الشمالى منه حيث وجدت غرف معتنى بها غاية العناية ومنقوشة بأفاريز وأشكال هندسية على شكل (S) معكوسة ، وكان يوجد فى وسط القصر فناء واسع قدر أن جدرانه كانت ترتفع الى ما يقرب من تسعة أمتار إذ أن ما بقى منها يزيد ارتفاعه عن خمسة أمتار . وكانت أرض الفناء مصنوعة من التراب المطروق المائل من الأطراف إلى قناة فى الوسط تستعمل لتصريف مياه المطر . وتشير بعض الدلائل إلى وجود طبقة فوق غرفتين من غرف القصر . ولكن من الثابت أن بقية أجزاء القصر كانت مؤلفة من طبقة أرضية فقط .

وعثر على مركز يظن أنه كان مركز الحياة الدينية حيث أقيم فيه معبد خاص ووجدت قاعة واسعة فيها مصطبة مرتفعة منقوشة بما يشبه المرمر الكاذب ويظن أنها كانت قاعة العرش . وقد عثر على غرفة واسعة وجد فيها عدة صفوف من المقاعد المصنوعة من اللبن بينها ممرات ضيقة ، وكان التفسير الوحيد لهذه الغرفة هو وجود مدرسة فى القصر لتعليم الأطفال قواعد الكتابة والحساب والمسائل الدينية . ولا سيما أنه عثر على لوحات من الفخار وأدوات يظن أنها كانت تستعمل فى الكتابة . ويمكننا القول بأن هذه المدرسة هى أقدم مدرسة يعثر عليها المنقبون .

واكتشفت مصانع فى القصر بشكل مستطيل وفيها دكات ملتصقة بالجدران حفرت فيها حفر متقاربة للموقد . وقد عثر حين اكتشافها على كمية كبرى من الفحم الخشبى الذى بقى قابلا للاستعمال حتى اليوم . كما وجدت فى هذا المكان قطع كثيرة من الفخار المشوى ولوحات فخارية مكتوبة قرأها العالم البلجيكى « دوسان » ووجد فيها ذكراً لكيفية صنع المعادن ، مما يدل على أن جميع أدوات القصر المنزلية من معدنية أو فخارية كانت تصنع فى هذا المكان .

وظهر أن القسم الشرقى من القصر كان معداً للضيافة والمراسلات والسجلات، إذ عثر فيه على عدد كبير من الرسائل الدبلوماسية التى كان يتلقاها آخر ملوك مايرى « زمريليم ».

وتبين أن الجناح المخصص لحياة الملك الخاصة متصل بقاعة الاستقبال رأسا بواسطة ممرات ومنعطفات خاصة لا صلة لها بأقسام القصر الأخرى . وكان للملك وعائلته معبد خاص بنى أحسن البناء وزين ببعض النقوش الهندسية .

وكشفت تنقيبات عام ١٩٣٧ عن مدخل القصر الملكى من الجهة الشمالية ، وهو كما يلى : مرتفع بميل بسيط ، ويليه باب عرضه ستة أمتار يحيط به برجان من كل جانب . ويضيق المدخل عند الباب الثانى الذى كان يغلق بمصراعين إذ عثر على حجرين من « الديوريت » كان الباب يدور عليهما ، وقد شوهد على أحدهما خطوط مستقيمة بدئت الكتابة عليها حيث يقرأ « أنيم داجان ملك . . . » وعثر بالقرب من هذين الحجرين

على بقايا عظام حيوانات مدفونة لا شك أنها ضحيت عند بناء الباب ودفنت عظامها فى هذا المكان — ويلى ذلك باب آخر يوصل إلى فناء أول على شكل شبه منحرف ، ويوجد باب رابع فى أحد أطرافه يفضى إلى رواق مستطيل ، وهذا الرواق إلى الفناء (١٣١) وهو أكبر فناء وجد فى القصر ، ويتصل هذا الفناء بقاعة الاستقبال التى يصعد إليها بعدة درجات مستديرة .

وبالاختصار يكون مدخل القصر الملكى المعد ليبهر أنظار الزائرين مؤلفاً من بابين كبيرين فممرين بينهما فناء أول فرواق ذى منعطفات ففناء واسع فدرج مستدير موصل إلى غرفة الاستقبال ، وهذا المدخل شبيه بمدخل القصور الحيثية ، ويثبت نقل الحيثيين لأصول بناء مداخل قصورهم عن شعوب ما بين النهرين .

اللقى التى عثر عليها فى القصر :

١ — تمثال إلهة الماء المتفجر : وهو تمثال امرأة مصنوع من حجر رخامى غير تام (ألباتر) بحجم يعادل ثلاثة أرباع الحجم الطبيعى وتظهر دقة الفن السومرى البابلى وروعته فى الوجه وخاصة فى الابتسامة الرمزية التى ترتسم على شفتى الإلهة الصغيرتين حتى لكأنها ابتسامة الجوكندا ، وكذلك فى الذقن الصغيرة وفى زى الشعر المتدلى على الكتفين والذى لا يقل جمالا فى تصفيفه عن أزياء عصرنا الحديث . وقد حفر مكان العينين لوضع عينين صناعيتين . ويحلى جيد الإلهة ستة عقود من الجواهر ومعصميها ستة أساور وتظهر عارية الذراعين تحمل بكلتا يديها إناء كان يتفجر منه الماء أثناء الحفلات الدينية إذ أنه متصل بقناة ممتدة الى داخل التمثال . وترتدى الإلهة ثوبا طويلا يصل إلى قدميها اللتين تظهر أطرافهما ، وقد رسمت على الثوب خطوط متقاطعة بشكل مربعات فوق صدرها الناهد ومتموجة ترمز إلى الماء فى الجزء الذى يبدأ من خصرها الضيق حتى قدميها ، وتشاهد على هذه الخطوط المتموجة سمكات كأنها تسبح فى الماء ، وتحمل الإلهة على جبهتها زوجا واحدا من القرون يدل على مكانتها الدنيا بين الآلهة .

٢ — تمثال إيشتوب إيلوم : تمثال لأمير من أمراء ماىرى مصنوع من حجر الديوريت الصلب ، وقد كتب على كتفه العارية : إيشتوب إيلوم (الإله أبقاه حياً) شاكاناك (أمير) ماىرى . ويظهر الأمير بلحية طويلة لابساً القبعة التى كان يلبسها الأمراء السومريون الملقبون « بجوديا » وتراه واقفاً فى وضعية تدل على الخشوع والاحترام ، إذ يضع إحدى يديه فوق الأخرى كأنه يصلى .

٣ — رأس محارب : وهو مصنوع من الرخام ومن فن بابلى واقعى ، ويشاهد رأسه ملفوفا بما يشبه الخوذة ، وقد يكون منقولا من مكان بعيد كغنيمة حربية .

٤ — قوالب الحلوى : وهى قوالب من الفخار يظن أنها كانت تستعمل لصب الحلوى ، وقد حفر فيها مشاهد جميلة دقيقة فيها تصوير واقعى ، ولاسيما فى مشهد صيد الوعل وصور الحيوانات والطيور ، وفى مشهد حيوانين حول الشجرة المقدسة ، وفى قالب لامرأة عارية تعصر ثدييها وتلبس فوق رأسها العمامة الهندية . وهنالك قوالب أخرى بأشكال هندسية مختلفة .

٥ — عقد من الذهب واللازورد وقطع ذهبية أخرى .

٦ — النقوش الجدارية (وسيأتى الكلام عليها) .

٧ — تمثال إيدى ايلوم ، وهو تمثال صغير بدون رأس .

٨ — تمثال « لاسجان » مقدم إلى الإلهة أنونيت .

٩ — عشرون ألف رقيم من الفخار مكتوبة ، وتقسم إلى قسمين ، أحدهما وثائق اقتصادية ، والآخر مراسلات دبلوماسية .

١٠ — قطع مختلفة شتى : تمائم وأختام وأجزاء تماثيل وحجر يدور عليه الباب وأحجار وقطع ذهبية لعقود وغير ذلك .

النقوش الجدارية :

برغم الزمن المتطاول وما أصاب مدينة مايرى من تهديم وتخريب حفظ لنا قصر مايرى فى بعض قاعاته وأفنيته نقوشاً كانت تزين بعض الجدران . وهذه النقوش تعد من أثمن اللقى النادرة المثال ، وخاصة فى مثل ذلك العصر الذى كانت المدينة السومرية البابلية تشع فيه ضيائها على أديم هذا الشرق . ولقد وجد أكثر هذه النقوش بحالة أجزاء مبعثرة جمعت بكل عناية ودقة ، وساعد على إنقاذها وجود العالم الأميركى « پيرسون » الذى رمم الكنيس اليهودى فى دورا ، فاشتغل فى تثبيتها على حين كان بعض أفراد البعثة ينقلون عنها صوراً ملونة .

ولا يتسع المجال لذكر جميع القطع التى عثر عليها ، فلنكتف إذن بذكر أهمها :

١ — ثور يساق الى التضحية : هذه القطعة هى الوحيدة التى يحتفظ بها المتحف الوطنى بحلب وتمثل ثوراً مزيناً بحلية ذهبية أو فضية فى أعلى قرنيه . ونجم بينهما فوق جبهته . وقد رسم الثور رسماً جانبياً سوى جبهته فهى تظهر وكأنها مرسومة من الأمام ، ويقود الثور رجل ملتح له شاربان عريضان ، وهو يلبس قبعة تشبه قبعات العمال ، ويلبس ثوباً مشدوداً الى وسطه بنطاق مزدوج ، وقد رسم رأس الرجل رسما جانبياً ورسم جسمه متجها الى اليسار فى وضع بعيد عن الاتزان ، ويرى واضعاً يده فوق رأس الثور لتهدئته .

٢ — مشهد تضحية : وهو تابع للمشهد السابق ، ويزيد عليه بوجود « آمر التضحية » وشخص ثالث عظيم يشغل القسم الأعلى والأسفل من المشهد ، ويظن أنه الملك ، وهو يلبس ثياباً فخمة مزخرفة .

٣ — مشهد تقليد الملك : وهو يشبه لوحا كبيراً ، إذ يحيط بمشهد تقليد الملك إطار من صور أشجار وحيوانات وآلهة وقاطفى التمر مرسومة بصورة متناظرة ، ويحيط بجميع هذا إطار ثان من أشكال حلزونية وثالث من أشكال هندسية .

أما المشهد الأوسط فهو ينقسم إلى قسمين : علوى ، وسفلى ، تفصل بينهما خطوط مستقيمة :

(ا) القسم العلوى : يشاهد الملك وهو يتلقى من يد الإلهة عشتار الخاتم وعصا القيادة بحضور إلهين آخرين الى جانب عشتار وإلهة إلى جانب الملك ترفع كفيها لحمايته ورعايته والدعاء له . وبرغم اغبرار لون الصور بمرور الزمن فانه من السهل تمييز محيط الرسوم الذى خط بريشة حادة الرأس وبيد واثقة من فنها وبراعتها .

والجدير بالوصف هو صورة الإلهة عشتار الممثلة هنا كالهة للحرب تحمل أسلحتها وتضع رجلها اليمنى فوق ظهر لبؤة مضطجعة فاغرة فاها ورافعة ذيلها . وتمد الإلهة يدها اليمنى لتقدم للملك الخاتم وعصا القيادة وتمسك بيدها اليسرى حربة طويلة . ولكن إلهة الحرب لم تنس أنها إلهة الحب أيضاً فلم تهمل زينتها ، فهى تحلى جيدها بأربعة عقود من الجواهر ومعصميها بالأساور ، وتلبس ثوباً بديع الصنع بأكمام قصيرة وصدر مفتوح وخصر ضيق . ومع أن ثوبها يصل الى أقدامها فان مد رجلها اليمنى قليلا إلى الأمام لوضعها فوق ظهر اللبوة ترك الثوب ينفرج قليلا فتبدو ساقها حتى نصف فخذها ، وقد ذهب التشويه بجزء من تاجها ، ولم يبق منه سوى ثلاثة أزواج من القرون . وفى الحق أن رشاقة جسم الإلهة وجمال ملبسها ليجعل من هذه القطعة آية من آيات الفن القديم نادرة المثال .

(ب) القسم السفلى — تشاهد هنا إلهة الماء المتفجر وقد صورت صورتين متناظرتين ، وترى حاملة إناء يخرج منه أربعة تيارات من الماء ، اثنان باتجاهها يمر أحدهما فوق رأسها ثم يسقط وراءها ويسقط الآخر من الأمام عند قدميها . أما الآخران فيجريان بالاتجاه المعاكس بعيداً عنها ، ويتصلان بالتيارين الآخرين الآتيين من الإلهة المقابلة . وتشاهد على طول مجرى التيارات سمكات تسبح فى الماء ، ويخرج من كل إناء غصن من النبات ، مما يدل على أن هذه الإلهة هى إلهة الماء والخصب ، وملابسها تشبه ملابس التمثال الذى تكلمنا عنه آنفا .

٤ — مشاهد متعددة : عثر على بعضها منهارة على الأرض ، وأنقذت بكل صعوبة . منها مشهد تقدمة ومشهد تضحية ومشهد صيادى السمك وقطعة تمثل جنديا مثخنا بالسهام وقطعة تمثل حارس باب السماء . . . الخ .

وأهم خصائص هذه النقوش الجدارية هى أنه برغم قلة عدد الألوان المستعملة استطاع المصور أن يستعمل كل لون على درجات مختلفة من الشدة ، فأضفى على هذه النقوش رونقاً وحياة تشهد له بالإبداع والمهارة . وقد وضعت الألوان على أرضية من الجص ، وأكثر الألوان استعمالا هو الأحمر والأسود ، أما الأبيض فقد ترك مكانه بدون تلوين .

الزقورة والمعابد الأخرى :

فى ربيع سنة ١٩٣٧ بدأت البعثة بالتنقيب فى أعلى نقطة موجودة فى التل ، وكان من المقدر أن يعثر فيها على زقورة . وقد تحقق الظن منذ بدء العملية ، وكان من الضرورى قبل كل شىء إزالة جميع ما كان حولها وما أقيم من أبنية ، وهذا ما جر المنقبين إلى التعمق فى الحفر ، وإلى اكتشاف عدة طبقات من الأبنية بعضها فوق بعض نذكرها باختصار :

١ — مقابر من العهد الساسانى .

٢ — مقابر من العصر الآشورى ، وقد وجدت متجمعة فوق المنحدر الشمالى للزقورة .

٣ — آثار مندرسة لأقوام سكنت ماير بعد خرابها ، ووجدت بين هذه الآثار لوحات مكتوب إحدها باسم إيشاريم ملك هانا .

٤ — مستوى يرجع إلى عهد ملوك ماير قبل زمن يليم ، أى إلى الأسرة السومرية — البابلية .

٥ — مستوى عثر فيه على بقايا عمرانية يظن أنها ترجع إلى ملوك أسرة أور الثالثة ، وكان ملوك ماير « إيدى ايلوم » و « بوزور عشتار » و « تورا داجان » آخر من يمثل هذا العهد ، وقد استقلوا استقلالا محليا وقطعوا علاقتهم مع أور . ولقد استدل الأستاذ « دوسان » على النفوذ الذى كانت تتمتع به أسرة أور فى ماير من اللوحات المكتوبة

بكتابة أسفينية مشابهة للكتابات التى تركتها أسرة أور . كما عثر على لوح يذكر اسم ثلاثة معابد كانت مشهورة عند أسرة أور الثالثة ، وهى معبد نين إجال ونينور ساج وداجان .

٦ — مستوى سابع عثر فيه على بقايا عمرانية من عصر ما قبل سرجون .

٧ — بقايا منحوتة تؤيد امتداد سلسلة أور الدينية إلى مايرى .

أما الزقورة فقد ظهر أنها بنيت على سطح مرتفع من اللبن وقد انهدم قسم كبير من أجزائها المرتفعة وسويت منحدراتها بمرور الزمن ، وتبين أنه حفر فى القسم الجنوبى منها لإقامة معبد بقى محفوظا بصورة جيدة ، ولم يعثر إلا على باب واحد ضيق له وعلى غرفتين فى الداخل ، مما يدل على أن هاتين الغرفتين كانتا تظلان فى ظلام دامس ، وقد يكون هذا المعبد معبداً للأسرار ، ومما يؤيد هذا الظن أنه أقيم على بابه حارسان مخيفان وهما أسدان من البرنز فاغرا الفم يسددان نظرا شديداً يترك فى النفس أثراً بالغا . ولم يكن يظهر من هذين الأسدين سوى رأسيهما ، أما مابقى فقد كان داخلا ضمن البناء . وتقع أمام هذا المعبد ساحة الزقورة الواسعة ، وقد شوهدت فيها ترميمات متعددة لمنصات التقدمة ، وعثر فى هذه البقعة على نحو سبعين عينا مشابهة لأعين أسدى البرنز ، مما يدل على أن الزقورة كانت محمية بحرس مؤلف من عدد كبير من الأسود مصنوعة من البرنز أو الخشب ، وقد تلفت أو نهبت على أثر خراب المدينة . وعثر فى الجهة الشرقية على قواعد حجرية لأعمدة اللبن أو الخشب لم يبق منها أى أثر .

وكان اللبن يستعمل فى بناء الزقورة ، ويوضع ضمنه جذوع شجر لتقويته ، وقد تلف الخشب مع الزمن فظهر مكانه فارغا ، وقد استعملت هذه الطريقة فى بناء قصر سليمان فى القدس ، كما استعملت فى العصور الكريتية . ويرجح أن أصلها يرجع إلى بلاد مابين النهرين لحاجة السكان إلى تقوية المبانى القليلة المقاومة التى كانت تصنع من اللبن . وظهر أن المعبد ذا الأسدين كان محاطاً بمعابد أخرى لم يبق منها شىء يذكر ، وقد بنيت هذه المعابد فوق معابد أخرى مندرسة ربما كانت المعابد التى ذكرها أحد اللوحات والتى تكلمنا

عنها سابقاً (مستوى ٦) . وقد أغير على هذه المعابد ورفع قسم كبير من آثارها ، وظهر أن مخططات هذه المعابد متناسقة ، ووجد فى أسسها أحجار وقطع برنز تذكارية .

ومما تجدر الإشارة اليه أن قطع البرنز التذكارية وجدت ضمن بلاطة مربعة غطيت ببلاطة أخرى وخبئت عن الأنظار . وكانت هذه القطع التذكارية مثقوبة وفيها مسمار يضمها إلى البلاطة ، وربما كان هذا الوضع الدينى يدل على تخليد ذكرى ارتباط المتعبد بالمعبود بواسطة المعبد الذى بناه . وقد قرئ على إحدى هذه القطع : « نيو أرمير أمير مارى إلى نينورساج ، معبداً بنى » وقد بنيت هذه المعابد فوق معابد أقدم منها فى المستوى الثالث ، وهذه نفسها بنيت فوق معابد أقدم منها أيضاً . ويمكننا أن نقول بأن جميع هذه المعابد كان يعاد بناؤها من جديد كلما تهدمت وأصبحت غير صالحة للاستعمال . ولذا يمكننا أن نفرض أن المعبد الذى وجد تحت معبد نينورساج يحمل الاسم نفسه أيضاً وهكذا ... لأن العادة القديمة كانت تقضى باقامة المعبد الجديد فوق القديم تماما ، وعدم مس أرض المعبد التى يجب أن تبقى مقدسة . ويمكن إرجاع عهد معابد المستوى الرابع إلى ما قبل عهد سرجون أى ٢٩٠٠ ق . م ومعابد المستوى الثالث إلى عهد أسرة سرجون (٢٧٥٠ ق . م) ومعابد المستوى الثانى حيث وجدت فى الأسس الأحجار وقطع البرنز التذكارية إلى أسرة أور الثالثة ٢٣٥٠ ق . م .

اللقى فى منطقة الزقورة والمعابد :

١ — أسدا البرنز ، وقد شاهدتم أحدهما فى المتحف .

٢ — عيون لأسود لم يعثر عليها .

٣ — عدة تماثيل لحامل الخروف ، ويظهر فيها عادة حامل الخروف لابساً ثوباً مشابهاً لجلد الخروف الذى يحمله ليقدمه إلى التضحية . والثوب يغطى جسمه إلى أعلى الرقبة .

٤ — أحجار وقطع برنز تذكارية .

ويرجع عهد ما ذكر إلى أسرة أور الثالثة (٢٣٥٠ ق . م) .

٥ — تمثال لشخص ملتح عارى الصدر جالس على مقعد مستدير ، ولم يعثر على رأس هذا التمثال .

٦ — رأس امرأة تحمل قبعة خاصة (پولوس) .

٧ — قطعة من الصدف تمثل حامل الخروف .

٨ — قطع صدفية متعددة منها أربعة رؤوس جانبية .

وهذه القطع من عصر الأسر السرجونية (٢٧٥٠ ق . م) .

٩ — نقوش جدارية ملونة بالأسود والأحمر لأشخاص أخذت صور سريعة لهم ، وتراهم واقفين على حيواناتهم الخاصة ، وجميعهم يلوحون بأيديهم كأنما يرقصون .

ويمكن إرجاع عهد هذه النقوش إلى مطلع الألف الثالث ق . م .

هذه خلاصة وافية عن حفريات مارى ، ولقد اضطررنا إلى إهمال كثير من التفصيلات التى لم نجد مجالا لذكرها . وقبل أن نختتم كلمتنا نود أن نذكر قائمة كاملة بأسماء ملوك مارى الذين عرفوا حتى الآن بما قرئ من اللوحات الكتابية ، وهم أربعة عشر : « إيزى داجان — تورا داجان — بوزور عشتار — إيدى إيلوم عيشار — إيشما داجان — إيشتوب ايلوم — نيوارمير — اجيش بيلجى — ياجثليم — يهدونليم — يشما حدد — زمريليم — انيم داجان » .

وقد حكم جميع هؤلاء الملوك فى العصر الذى كان فيه قصر مارى عامراً ، أى بين سنة ٢٣٥٠ وسنة ١٩٧٥ قبل الميلاد .

وأختم كلمتى بأنه برغم التنقيبات العلمية التى دامت ست سنوات ، فانه لم يكتشف من هذه المدينة سوى سدسها ، وقد يستغرق العمل لاكتشافها بأجمعها مدة تزيد عن ربع قرن .

فالى المؤتمر الأول للآثار فى البلاد العربية أقدم نتائج المرحلة الأولى من الحفريات التى قامت بها البعثة الفرنسية ، لعل فيها ما يثير هم الحكومات والمؤرخين والأثريين من العرب لإتمام هذه التنقيبات التى قد تكشف عن أسرار مدفونة على غاية كبرى من الأهمية .

العلاقات بين العراق القديم
وبلدان الشرق الأدنى

للأستاذ طه باقر

حضرات الأعضاء

إنني بموقفي أمام حفلكم الكريم أحق الخطباء الذين اعتادوا طلب الصفح والمعذرة سلفاً، ذلك لأنني أحدث صفوة من أهل الفضل والعلم في موضوع على جانب كبير من التعقيد بسبب طول العهود التاريخية واتساع الرقعة الزمانية والمكانية في حضارات الشرق الأدنى، وتعدد الأوجه في الصلات التي تكونت بين حضاراته في العهود التاريخية المختلفة.

ولعل من باب استباق النتائج أن أقول ان الباحث في العلاقات التاريخية بين أقطار الشرق الأدنى ولاسيما الأقطار العربية يخلص الى نتيجة خطيرة هي: أن أبرز ظاهرة تاريخية في حياة هذه الأقطار اتساع العلاقات فيما بينها واستمرار تلك العلاقات منذ أزمان واغلة في القدم. وأنها كثيراً ما قاربت الوحدة في الحضارة في جميع الشرق الأدنى بوجه عام. وقد تحقق هذا الاتجاه التاريخي الى الوحدة في العهد العربي الإسلامي. وإن أسباب وثوق تلك العلاقات أعمق من أسباب القرب الجغرافي، وتمتد جذورها إلى فجر التاريخ عندما نشأت في هذه البقاع حضارات الإنسان الأصلية الأولى.

ويحسن بنا قبل البدء بذكر أوجه تلك العلاقات أن نذكر في سياق هذه المقدمة مسألة خطيرة تتصل ببحثنا، وهي مسألة نشوء الحضارات البشرية الأولى والمهد الذي نشأت فيه، حيث اختلفت في ذلك آراء الباحثين حتى يومنا هذا. فطائفة من الباحثين ذهبت إلى أنه لم تنشأ في تاريخ الإنسان منذ وجد على هذه الأرض إلا حضارة واحدة

أصلية منها تفرعت واشتقت حضارات البشر الأخرى . وإن هذه الحضارة الأولى نشأت فى وادى النيل على ما يقول به جماعة من الباحثين [١] أو فى العراق على قول فريق آخر منهم ، ولأن طبيعة كلمتى لا تسمح لى بأن أسهب بالقول ، فأنى أقتصر هنا على ذكر الرأى المعتدل الذى عليه كثير من المؤرخين والباحثين . وهو أنه لم يقتصر تاريخ الجنس البشرى على نشوء حضارة أصلية واحدة ، بل نشأت فى مطاوى التاريخ عدة حضارات (ست حضارات على أكثر تقدير) . وهى أصلية غير مشتقة من حضارات سابقة لها [٢] وأن اثنتين من هذه الحضارات الأصلية بلغ أمر اصالتهما وقدمهما وتأثيرهما فى جميع الحضارات حد الإجماع عند الباحثين، ونعنى بهما الحضارة السمرية فى العراق والحضارة المصرية فى وادى النيل . أما وجه الأصالة فى كل من هاتين الحضارتين فهو أن كلا منهما نشأت من طور بدائى فى العصر الحجرى المتأخر فى موطنها الأصلى ،ونمت وتطورت إلى ما نسميه تطور الحضارة الناضج ، ولم تشتق من حضارة سابقة لها .

والآن فلنبدأ بعرض الصلات التاريخية بين العراق وبلدان الشرق الأدنى ولعل أحسن سبيل للعرض أن نتتبعها بحسب العهود التاريخية ، متخذين العهود المعروفة فى تاريخ العراق وما يضارعها من التاريخ المصرى [٣] أساساً لذلك العرض .

فأول ما نبدأ به الطور المعروف « بالحجرى — المعدنى » (Chalcolithie) الذى يعد أول مرحلة فى حضارات الشرق الأدنى انتقل إليها الإنسان من العصر الحجرى المتأخر، وكان فى بداية معرفته بالمعادن، ولم يهتد بعد إلى طريقة للتدوين. لقد دام هذا الطور بوجه التقريب منذ الألف السادس حتى الألف الرابع ق . م. وإذا أعوزتنا السجلات المكتوبة لمعرفة العلاقات بين أقطار الشرق الأدنى فى هذا العهد فان التنقيبات فى مواقع قديمة فيه قد أظهرت حديثاً وجود علاقات حضارية بين الشرق حتى فى هذه العصور الواغلة فى القدم . فقد كشفت البحوث الحديثة فى سورية (فى العمق والجديدة ورأس شمرة وأريحا وغيرها) وفى العراق وفى مصر عن أطوار حضارية متشابهة فى جميع الشرق الأدنى، أبرز ما تمتاز به نوع جميل من أوانى الفخار الزاهى المنقوش . وقد بدأت هذه الصناعة

ملاحظة : الكلمات التى عليها أرقام معلق عليها فى آخر البحث .

فى أواخر العصر الحجرى المتأخر ، وعمت فى الشرق الأدنى حتى بداية العصر التاريخى فى أواخر الألف الرابع ق . م. وكان هذا الطور على ما يرجح المرحلة المشتركة التى بدأت منها حضارات الشرق الأصلية ، ثم سارت كل منها بالطريق الخاص بها فى العصور التاريخية .

وفى نهاية هذا الطور تهيأت الأسباب لنشوء الحضارة الراقية فى الشرق الأدنى فنشأت حضارتان أصليتان فى العراق وفى مصر ، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق . وقد كشف البحث الحديث فى الموازنة بين حضارات الشرق الأدنى عن وجود صلات حضارية قوية بين العراق ومصر فى المراحل الأولى من نشوء الحضارة الناضجة فيهما : فقد وجدت آثار بينة من حضارة السمريين الأولى فى الحضارة المصرية فى أواخر عصور ما قبل السلالات المصرية وبداية عهد السلالات (Proto- Dynastic) وتتضمن هذه الآثار نواحى مهمة وهى :

(١) آثار مادية .

(٢) صناعات واختراعات .

(٣) أساليب وأطرزة فنية .

وهى كلها خاصة بحضارة السمريين ، واستمرت فيها ، ولكنها غريبة عن الحضارة المصرية ، انحصر وجودها فيها زمناً محدوداً ثم انقطعت . وهذه اعتبارات مهمة لا تدع مجالا للشك فى أصلها السمرى [٤] . وإذا منعنى الوقت من الإسهاب فى هذه الصلات فاننى أكتفى بالإشارة الى أن أولى هذه التأثيرات بدأت فى حدود منتصف الألف الرابع ق . م فى نهاية طور نقادة الثالث [٥] فى مصر وعهد الورهاء فى العراق ، ومنها الآثار التى وجدت فى جبل « العرق » وفى مقبرة « هيراكونبوليس » ويرجع عهدها الى أواخر ما قبل السلالات [٥] . واستمرت هذه التأثيرات فى عهد بداية السلالات المصرية الأولى ، وأبرزها رؤوس الدبابيس الحجرية وأوانى الحجر المزينة بالنحت البارز ، وبعض الأطرزة فى العمارة خاصة بالأبنية السمرية لوحظت فى المقابر الملكية المصرية وفى المصاطب القديمة وفى تخطيط اللحود الملكية الأولى ، ولا سيما لحد « منا » وخلفائه وكذلك استعمال الختوم الأسطوانية الخاصة بحضارة العراق [٦] .

وأول ما تشير إليه هذه الأشياء وجود العلاقات التجارية والثقافية بين مصر والعراق بوجه خاص وبين أقطار الشرق الأدنى بوجه عام، وذلك منذ فجر التاريخ. وقد ذهب كثير من ثقات الباحثين فى أصول الحضارة إلى استنتاج أمور مهمة تتعلق بأصول الحضارة المصرية فى أطوارها الأولى واقتباسها الحوافز من الحضارة السمرية كفكرة الكتابة مما أشار إليه العلماء حديثاً [٧]. وبما أننا لسنا هنا فى معرض أصل الحضارة، ولسنا كذلك من الجازمين فى الوقت الحاضر باشتقاق أصول الحضارة المصرية من الحضارة السمرية، فاننا نقصر القول هنا على إبداء رأى متحفظ يشاركنا فيه بعض الثقات، وهو حصول الحضارة المصرية فى أول أطوارها على حوافز من الحضارة السمرية[٧] وأنها أخذت فيما بعد منذ عصر المملكة المصرية القديمة تنمو مستقلة وتتصف بطابعها الخاص. ومن الأمارات القوية على وجود الاتصال التجارى والثقافى بين العراق وأقطار الشرق الأدنى فى هذه العهود السحيقة استعمال الحضارة السمرية الأولى بعض الأحجار والمعادن وغيرها من الأشياء التى لا توجد فى العراق. وكان الجزء الشرقى الجنوبى من جزيرة العرب من أقدم المصادر التى جلب منها السمريون النحاس. فقد كانت كذلك فى العهود التاريخية القديمة، حيث ورد ذلك فى أخبار « نرام — سن » الأكدى و« جودية » واتصالها « بمجان » و « ملوخا » [١٣].

العلاقات بين مملكة (سمر وأكد) :

وإذا انتقلنا من عهود بداية الحضارة إلى العصور التاريخية كثرت مصادر معرفتنا بسير العلاقات بين العراق وأقطار الشرق الأدنى. وذلك منذ عهد المملكة المصرية القديمة ومملكة « سمر وأكد » فى بداية الألف الثالث قبل المسيح حتى الألف الثانى. فتشير الأخبار المدونة إلى اتساع العلاقات وبضمنها الصلات السياسية إثر الفتوح والغزوات. وكانت بلاد الشام واسطة الاتصال السياسى والثقافى بين العراق ومصر والأقطار الأخرى فى آسية الغربية[٨].

فتعلمنا الروايات التاريخية أن الملوك السمريين القدامى مما قبل سرجون الأكدى قد مدوا فتوحهم إلى الأناضول عبر سورية . ومن بين هؤلاء الملك السمرى لوكال زاكيزى [٩] . وقد تأسست حلة بهيئة مستعمرة سمرية فى كبدوكية لاستخراج المعادن قبيل العهد الأكدى [١٠] .

واتسعت الحملات الحربية فى عهد سرجون [١١] ونرام — سن [١٢] الملكين الأكديين . ومن الطريف أن نذكر بهذا الصدد قصة قديمة عنوانها « بطل الحرب » تعرض طرفا من حملات سرجون الى الأناضول . وقد وجدت هذه مدونة باللغة البابلية وبالخط المسمارى فى أحد البيوت فى تل العمرنة [١١] .

لقد عملت هذه الفتوح على نشر الحضارة السمرية فى جزء كبير من الشرق القديم ونشرت الخط المسمارى إلى الأناضول حيث استعمله سكان كبدوكية [١٣] واتصل الأكديون والسمريون بجزيرة العرب ، ولا سيما القسم الجنوبى الشرقى منها طلباً للنحاس والتوابل وخاصة (اللبان) . وقد ذكر نرام — سن فى نقوش أحد تماثيله أنه فتح مجان(*) وقهر ملكها مانيوم [١٤] . وورد ذكر البحرين (دلمون) و (ملوخا) فى المصادر المسمارية منذ أقدم العهود .

وبالرغم من أن الحملات الحربية المارة الذكر لم تسفر عن سلطان دائم للأكديين فانها كانت ذات أثر بعيد فى توحيد أساليب الحياة والحضارة فى الشطر الآسيوى من الشرق الأدنى ، فالسالك فى ذلك العهد إحدى الطرق التجارية الكبرى من سورية إلى التقاء الخابور بالفرات ثم إلى آشور فى أعالى دجلة ،أو اتجه إلى مارى « تل الحريرى » ونزل مع الفرات إلى موطن الحضارة السمرية يجد فى أى مدينة يمر بها أن مظاهر الحضارة الأساسية واحدة : فى الفن والعمارة وفى اللغة والكتابة، حيث الخط المسمارى الخط العام

(*) من المرجح أن "Magan" هى « عمان » ولا علاقة لها « بمعان » وقد أطلق اسم « مجان » و « ملوخا » فى العهود القديمة على موضعين فى شرقى ووسط الجزيرة العربية . ولكن الآشوريين استعملوها فى موضعين بعيدين فى طور سينا وفى شرق افريقية . وأصبح من المؤكد أيضاً أن (دلمون) هى البحرين (١٣) وعرفها البابليون أيضاً باسم القطر البحرى الذى نشأت فيه سلالة بابلية (سمرية الأصل) عرفت بسلالة القطر البحرى، وذلك بعد سلالة حمورابى .

فى المصالح والمعاملات التجارية والسياسية [١٥] . وانتشر فى سورية منذ هذه العهود القديمة كثير من المعتقدات البابلية كالأساطير الدينية . ففى وسع المتتبع أن يفترض أن ملاحم مهمة مثل قصة (الطوفان) (والخليقة) قد أخذت عن البابليين (السمريين القدامى) . وتوارثت رواياتها الأجيال المختلفة، حتى وجدت طريقها إلى العهد القديم [١٦] . وقد اتصلت الحضارتان السمرية والمصرية فى تأثيرهما عند مدن الشام الساحلية « كجبيل » و« أوغاريت » (رأس شمرة) . وتشير ظواهر الأحوال إلى أنه لم يحدث بين الحضارتين تصادم ، وكذلك كان الحال فى العهود التالية فى عهد المملكة المصرية الوسطى [١٧] .

أعقب عهد المملكة المصرية القديمة وعهد المملكة الأكدية زمن اضطربت فيه الحياة فى مواطن كل من الحضارتين السمرية والمصرية ، وتدهورت الحال السياسية ، إذ قضى على السلالة الأكدية برابرة من شمال العراق وشرقه (وهم الكوتيون) وضعفت مصر من بعد سلالتها السادسة وحلت فيها الفوضى السياسية بسبب الانشقاق الداخلى وخروج الأمراء على السلطة المركزية [١٨] . وبعد ارتباك دام زهاء القرنين استطاع أمراء طيبة أن يوحدوا البلاد من جديد ، فبدأ عهد مجيد فى مصر هو عهد المملكة الوسطى (السلالتان الحادية عشرة والثانية عشرة). أما فى العراق فقد أعقب الفترة المظلمة التى دامت زهاء القرن الواحد عهد جديد، بوسعنا أن نعده آخر أمبراطورية سمرية، وهى سلالة أور الثالثة المشهورة . وقد انتعشت فى عهدها العلاقات بين العراق والبلاد السورية .

واستمرت العلاقات مع الجزيرة العربية حيث ورد فى الأخبار أن « جودية » آخر الأمراء السمريين قد جلب النحاس والخشب من مجان وملوخا لبناء معابده [١٣] .

واستأنفت مصر علاقاتها بالشرق الأدنى فى عهد السلالتين الحادية عشرة والثانية عشرة. كما أبانت المصادر المصرية والبحوث التى تمت فى مواقع سورية حيث تمكن النفوذ السياسى والثقافى فى البلدان الشامية ، وأظهرت تلك البحوث أيضاً أنه أعقب ذلك حلول النفوذ البابلى فى عهد سلالة بابل الأولى التى اشتهرت بملكها السادس حمورابى [١٩] .

ومن الأشياء الجديدة التى أظهرها البحث الحديث أن هذا الملك البابلى كان يعاصر ملكا آخر بالاسم نفسه، حكم فى مملكة « يمخد » التى كانت عاصمتها حلب . وكان بين الاثنين

حلف وصلات [١٩] . وانتشرت الحضارة البابلية وتغلغلت فى المدن الكنعانية [٢٠] كما تشير إليه نتائج التنقيبات الحديثة فى المدن السورية [٢١] ولاسيما فى (تل العطشانة) « الآلاك » القديمة [٢٢] وفى تل الحريرى (مارى أو مائر) [٢٣] وفى رأس شمرة (أوغاريت القديمة) [٢٣] وفى تل عشارة (ترقا) عاصمة المملكة القديمة « خانا » [٢٤] . وتعزى سهولة نشر الحضارة البابلية بالإضافة إلى الفتوح إلى الروابط الجنسية بين ملوك بابل ومعظم سكان الشام، إذ أن أصلهم من الساميين الغربيين ، أى الأموريين الذين كانوا يحكمون فيما قبل العام ٢٠٣٠ ق . م ، فى دويلات كثيرة تمتد على طول الفرات الأوسط ، ثم أخذوا يتجهون إلى الجنوب ، فأسسوا فى العراق سلالات بابلية تنازعت على السيادة حيناً من الزمن حتى تفردت بالزعامة سلالة حمورابى الأمورى [٢٥] .

ومما يحسن التنويه به بصدد العلاقات بين مصر والعراق فى هذا العهد انتقاد التصادم بين البابليين فى عهد حمورابى والمصريين فى عهد السلالة الثانية عشرة . وإنما التقى نفوذ الحضارتين عند مدن الساحل الفينيقى التى كانت عاملا مهما فى الاتصال الثقافى والتجارى فى العالم القديم [٢٦] .

وفيما كان عالم الشرق الأدنى ينعم بالاستقرار فى زمن المملكة الوسطى وسلالة حمورابى كانت براى « أوريسية » (أورية — آسية) تموج بالكتل البشرية الهمجية وهى تندفع بهيئة موجات إلى الشرق الأدنى مركز العالم المتمدن ، فأحدثت فيه الفوضى والخراب ، واستوطنت فيه أقوام جديدة ، كالحثيين الذين حلوا فى الأناضول وشمالى سورية ، والكشين الذين حكموا فى العراق بعد سلالة حمورابى ، والهكسوس [٢٧] الذين قضوا على المملكة الوسطى . وظهر بعد حين فى عالم السياسة الدولية الآشوريون فى شمالى العراق بجوار الميتانيين الذين كانوا من الأقوام الهندية — الأوربية .

العلاقات فى عهد الامبراطورية المصرية (١٥٧٣ — ١١٤٩ ق . م) :

اندمج الكشيون بالبابليين فى العراق وطغت عليهم الحضارة البابلية وأسسوا سلالة دامت نيفاً وخمسة قرون . أما فى مصر فبعد أن حكم الهكسوس فى الدلتا زهاء القرنين

ثار عليهم آخر نبلاء السلالة السابعة عشرة ، وتم طردهم وتحرير البلاد منهم بقيام السلالة الثامنة عشرة . ولكن لم يكتف ملوك هذه السلالة بطردهم بل لاحقوهم إلى فلسطين وسورية التى منها غزوا البلاد المصرية[٢٧] . فنتج عن ذلك تكوين الأمبراطورية المصرية[٢٨] . وبدأ طور جديد فى تاريخ الشرق الأدنى انمحت فيه جميع الحواجز فى العالم القديم واتصلت الشعوب ، ودخلت فى علاقات مباشرة ، وتكونت صلات دبلوماسية هى الأولى من نوعها فى تاريخ العلاقات الدولية ، واستأنفت الحضارة طوراً عالميا فى جميع مظاهرها وأوجهها . وتتميز العلاقات فى هذا العهد إلى سعتها وشمولها بكثرة النصوص والوثائق التاريخية ، مما جاءنا من السجلات الرسمية الملكية ، ولاسيما من مصر ومن عاصمة الحثيين حاتوشاش[٢٩] .

إن اتساع العلاقات بين دول الشرق الأدنى فى هذا العهد يجعل من المتعذر تفصيل القول فى أوجهها المختلفة . ولاسيما الأوجه الثقافية والسياسية ، لذلك نجتزىء هنا بذكر أبرز المظاهر ، محيلين السامع الكريم إلى المراجع المبسطة فى هذا الموضوع[٣٠] .

فأولا اتصفت العلاقات السياسية والحربية بتوازن القوى الدولية فى النزاع بين المصريين والحثيين والميتانيين على الشرق الأدنى أولا ، ثم بين الآشوريين والبابليين والأرميين ، ونتج عن ذلك المعاهدات والتحالف والعلاقات الدبلوماسية الواسعة ، مما لم نعرف له مثيلا فى تاريخ الشرق القديم فيما قبل هذا العهد . وثانياً أنتجت هذه الصلات المباشرة الواسعة اتصال حضارات الشرق القديم فأثر بعضها فى بعض تأثيرا متبادلا جعلها تدخل فى طور أصح مايتميز به الوحدة فى الحضارة ، فى الفن وفى العادات وفى الأزياء ، حتى استعمل الناس لغة واحدة ، هى اللغة البابلية بالخط المسمارى فى معاملاتهم التجارية ، والملوك فى علاقاتهم الدبلوماسية .

وبلغ أمر الاتصال من الشدة ذيوع المعتقدات الدينية ، فكانت تماثيل الآلهة يتبادل إرسالها ملوك ذلك الزمان . فمن الحوادث الطريفة فى هذا الصدد أن الملك المصرى (أمنوفس) الثالث مرض مرة فأرسل إليه صديقه الملك الميتانى (تشراتا) تمثال الإلهة الآشورية عشتار من نينوى لتشفيه من مرضه ، وكان يصحب هذا التمثال على مايرجح

أطباء آشوريون [٣١] وأرسل الملك البابلى مرة طبيبا وراقيا إلى الملك الحثى (مواتلى — ١٣٠٠ ق . م) . وكان أطباء مصر الذين اشتهروا بحذقهم يزورون بلاطات الملوك فى الشرق الأدنى [٣١] .

والآن اسمحوا لى أن أقرأ لكم نموذجا مختصراً من المخاطبات الدبلوماسية من إحدى رسائل (العمرنة) من الملك البابلى (بورنابورياش) إلى أمنوفس الرابع (أخناتون) [٣٢] :

« إلى (نفخورويا) (*) ملك مصر .

هكذا يقول (بورنابورياش) ملك بلاد بابل أخوك .

إننى بخير . فعسى أن تكون أنت وبيتك وزوجاتك وأولادك وبلادك ونبلاؤك وخيلك وعرباتك بأحسن حال .

منذ عقد أبى وأبوك الود فيما بينهما كانا يتهاديان أنفس الهدايا . ولم يمنع أحدهما ما كان يطلبه الآخر منه ، مهما عز وغلى .

والآن لقد أهدى إلى أخى « منين » من الذهب . فوددت لو أنك أرسلت إلىّ ذهباً بقدر ما كان يهديه أبوك . وإذا كان لابد من تقليل المقدار فأرسل إلى نصف ما كان يرسله أبوك . فلم أرسلت « منين » من الذهب فقط ؟ إننى الآن باذل جهداً كبيراً فى المعبد . وقد تعهدت العمل بقوة ، وسوف أنجزه بالدقة ، فأرسل إلىّ قدراً كبيراً من الذهب ، وإذا رغبت فى شىء فى بلادى مهما كان فابعث رسلك يأتوك به .

فى عهد أبى « كوريكالزو » أرسل اليه الكنعانيون يقولون : (لنذهب إلى حدود مصر ولنغزها جميعنا وسوف نعقد معك حلفاً) أما أبى فقد أجاب عن هذه الرسالة قائلا : (كفوا عما تنشدونه من الحلف . إذا كنتم أعداء ملك مصر أخى ، فليكن الحلف فيما بينكم ، ولكن لتحذروا جانبى . وإذْ كان ملك مصر حليفى ، فمن ذا الذى يصدنى عن أن أغزوكم ؟)

وهكذا فلأجل أبيك لم يسمع أبى مقالتهم .

(*) وباللسان المصرى « نفر — خفيرو — ر (ع) » (أى أمنوفس الرابع) .

أما ما يخص بعض الآشوريين من أتباعى [كذا] أفلم أخبرك برسالة فى شأنهم ؟ فلم دخلوا بلادك ؟

وبما أنك تحبنى فيقين أنك لن تدخل معهم فى شىء ، وأنك ستعمل على إحباط جهودهم وسعايتهم .

وبالختام لقد أرسلت إليك هدية : ثلاثة منات (*) من اللازورد ، وعشرة أفراس لخمس عربات من الخشب » .

إن هذه الرسالة جزء من قصة طويلة فى العلاقات السياسية بين أقطار الشرق الادنى . ولعل أحسن سبيل لفهم فحواها تقسيمها إلى فصلين يؤلفان حقبتين متميزتين فى تاريخ الشرق الأدنى . أما الفصل الأول فيبدأ بتكوين الامبراطورية المصرية منذ السلالة الثامنة عشرة (فى القرن السادس عشر ق.م) وينتهى بزوال تلك الامبراطورية بعد عهد رعمسيس الثالث (آخر عاهل قوى فى السلالة العشرين) فى نهاية القرن الحادى عشر ق.م ويبدأ الفصل الثانى بزوال الأمبراطورية المصرية فى بداية السلالة الواحدة والعشرين (فى حدود ١٠٩٠ق.م) ويتميز هذا العهد بضعف المملكة المصرية وتعاظم الآشوريين وسيطرتهم على الشرق منذ زمن شيلمنصر الأول (القرن الثالث عشر ق.م) وتجلا ثلبليزر الأول (فى حدود ١١٠٠ ق.م) وقد انتهى بالنزاع المسلح بين الآشوريين والمصريين فى القرن السابع ق.م (٦٧٠ — ٦٦٣ ق.م) ولعل الفصل الأول أمتع قصة فى التاريخ البشرى وأطرف حقبة فى العلاقات الدولية فى العالم المتمدن حينذاك . فعندما تكونت الامبراطورية فى البلاد الشامية انحصر النزاع الحربى فى بادىء الأمر بين فراعنة السلالة الثامنة عشرة والأمراء الشاميين وملوك الهكسوس . ولم تكن دول الشرق الأدنى فى هذا الطور على جانب من القوة السياسية ، فلم تدخل فى المراحل الأولى من هذا النزاع الدولى .

(*) يزن « المن » البابلى نحو نصف الكيلو غرام .

فالملوك الكشيون فى البلاد البابلية كانوا ضعفاء ، ولعل ذلك ما جعلهم يلتزمون الحياد ويركنون إلى صداقة الملوك الفراعنة على الدوام تقريباً [٣٣] وكان الآشوريون فى بدء قوتهم السياسية يتربصون الفرص ويرقبون ذلك النزاع . ولم يلجأ الحثيون فى بادىء الأمر إلى النزاع المباشر مع ملوك مصر ، ولكنهم كانوا فى الوقت نفسه يتحينون الفرص المواتية للدخول فى النزاع المسلح . وقد جاءت الأحوال المناسبة فى نهاية حكم (أمنوفس) الثالث (فى حدود ١٣٩٠) (*) حيث خلفه أمنوفس الرابع (أخناتون) الذى شغلته ثورته الدينية عن شؤون الملك فى الداخل وفى الخارج . ولكن جاء إلى العرش الحثى ملك هو (شوبيلوليوما) (†) كان على جانب كبير من المقدرة والدهاء . ومن الأمور الطريفة فى سير العلاقات نشوء دولة فى الشرق الأدنى تدعى (ميتانى) عرفها المصريون باسم (نهارين) بشمال العراق وجنوب سورية كانت بمثابة دولة حاجزة ومفتاح النزاع والتنافس بين مصر والحثيين على بلاد الشام . وانضم إلى الدول المتنافسة الآشوريون الذين كانوا يخشون الدولة « الميتانية » فى جوارهم . وقد رأت مصر تجاه خطر الحثيين والآشوريين أن تكسب صداقة هذه الدولة ، فكانت بين الطرفين مصاهرات سياسية . ولكن ذلك لم يخلص الميتانيين من تدخل الحثيين والآشوريين ، ففرض الحثيون أولا حمايتهم على (ميتانى) بعد انقسام فى البيت المالك فيها ، ثم قضى عليها الآشوريون عندما صفا لهم الجو السياسى بعد الحثيين .

وقد بدأ الملك الحثى « شوبيلوليوما » نزاعه مع الفراعنة على السيادة باثارة المعارضين من أمراء سورية ، ثم بدأت بين الطرفين حروب ومعارك دامت زهاء القرن الواحد (§) آخرها المعركة المشهورة فى (قاديشا) بين رعمسيس الثانى والحثيين مع أحلافهم من الأمراء السوريين . وبالرغم من أن المعركة لم تكن حاسمة فان الإعياء الذى أصاب

(*) أو ١٣٨٠ .

(†) ويدعى Seplel فى المصادر الهيروغليفية .

(§) منذ مجىء شوبيلوليوما الى الحكم فى حدود ١٣٨٠ حتى ابرام المعاهدة الحثية المصرية فى حدود ١٢٧٨ ق. م.

الجانبين وخوف الحثيين من الخطر الآشورى الذى دهمهم فى زمن (شيلمنصر) الأول [٣٤] كل ذلك عمل على وقف النزاع المسلح وعقد معاهدة بين رعمسيس الثانى والملك الحثى (حاتوسيل) فى حدود ١٢٧٨ ق . م (+) تنطوى على إحلال الصداقة وعدم الاعتداء بين المصريين والحثيين ، وقد تزوج على أثرها الفرعون المصرى بأميرة حثية [٣٥] . وكان من نتائج وقف النزاع بين مصر والمملكة الحثية عود العلاقات المصرية السورية إلى السلم ، فكانت فترة هدوء وسلام فى الشرق الأدنى عادت فيها العلاقات التجارية ، وازدهرت المدن الفينيقية من جديد .

ولكن لم يدم هذا السلم أمداً طويلا ، إذ حل اضطراب جديد فى أقطار الشرق الأدنى ، كان مبعثه من الخارج ، بنتائج هجرات الأقوام (الهندية — الأوربية) التى أزاحت موجات أخرى من الأقوام ودفعت بهم إلى أقطار الشرق الأدنى . فقد أزاحت القبائل الإغريقية الإيجيين من مواطنهم واندفعت فلولهم إلى الشرق الأدنى إلى سورية وفلسطين ، فغزت بعض المدن الفينيقية فى الساحل مثل « جبيل » (وأوغاريت) وهدد قسم منها الحدود المصرية ، مما اضطر رعمسيس الثالث إلى الاشتباك معهم بمعارك برية وبحرية لدرء الخطر عن أبواب مصر . وكان من النتائج الخطيرة لتلك الهجرات تحطيم المملكة الحثية وإزالتها من الوجود فى (حدود ١٢٠٠ ق . م) وتمكن قسم من فلول الإيجيين وهم الفلسطينيون المشهورون فى العهد القديم من تأسيس دويلات فى بعض مدن الشام الساحلية كغزة وعسقلون وأشدود وغيرها .

ومما زاد فى اضطراب الأحوال فى حدود هذا الزمن هجرات أخرى من البشر (*) من الأقوام السامية وهم الأرميون والعبرانيون [٣٦] وقد بدأ الأرميون يثبتون أقدامهم فى ربوع الشرق الأدنى ، ودخلوا فى نزاع رهيب عنيف مع الآشوريين شغل القرنين الحادى عشر والعاشر ، وقد كاد يقضى على كيان الآشوريين .

(+) أو ١٢٧٢ ق. م.

(*) Völkerwanderung

وإلى هنا نكون قد بدأنا فى الفصل الثانى من طور الصلات بين أقطار الشرق الأدنى ، وقد سبق أن عنونا هذا الفصل بأنه يبدأ بزوال الأمبراطورية المصرية فى عهد السلالة الواحدة والعشرين (فى حدود ١٠٩٠ ق . م)[٣٧] . وقد صفا الجو للآشوريين الذين بدأوا بتعاظمهم الحربى وفرض سيطرتهم على الشرق الأدنى منذ القرن الثالث عشر ق . م[٣٨] ولم يتصد لتحديهم من شعوب العالم القديم إلا الأرميون الذين ألفوا دويلات ومدنا مزدهرة فى شمال العراق وسورية وهددوا كيان الآشوريين تهديداً خطيراً فكانت حروب طاحنة دامت طوال القرن الحادى عشر والعاشر . ولم يستطع الآشوريون برغم جهازهم الحربى الرهيب كسر مقاومة الدويلات السورية إلا فى النصف الثانى من القرن الثامن ق . م ، وكان من جملة تلك الحوادث القضاء على مملكة إسرائيل فى العام ٧٢١ ق . م .

أما المملكة المصرية فانها بالرغم من الضعف الذى حل فيها وانكماشها فى داخل بلادها لم تنفض يديها من مشاكل الشرق الأدنى بالمرة ، فقد كانت تلتزم جانب الدويلات السورية فى جميع أطوار النزاع بينها وبين الآشوريين . فالى إرسالها الجيوش فى بعض الأحايين لمساعدة هذه الدويلات فى مقاومتها للآشوريين كانت كثيراً ما تحرضها على الثورة للتخلص من الحكم الآشورى القاسى ، مما حدا بالآشوريين فى آخر عهدهم إلى الركون إلى مغامرة حربية هى غزو مصر فى زمن أسرحدون وأشوربانيبال فى القرن السابع ق.م فى زمن السلالة الخامسة والعشرين . وبالرغم من أن هذا الغزو لم يحقق غاية الآشوريين من إدماج مصر فى الأمبراطورية الآشورية فان مجرى الحوادث يشير إلى تكوين طور جديد فى العلاقات المصرية الآشورية يتميز بنوع من الصداقة ، ولا سيما فى أواخر أيام الآشوريين ، إذ يحدثنا التاريخ أن بعض فراعنة مصر (من السلالة السادسة والعشرين(†)) قد ساعدوا الآشوريين فى حروبهم مع الكلدانيين والماذيين ، ولكن ذلك لم يخلص نينوى من المصير المحتوم وتحقيق نبوءة النبى (ناحوم) فيها فى عام ٦١٢ ق . م[٣٩] .

(†) الملك « نيخو » (٦٠٩ — ٥٩٣ ق. م.)

وبحلول البابليين محل الآشوريين فى العهد البابلى الحديث (+) نكون قد وصلنا إلى نهاية القصة فى تاريخ الشرق الأدنى . وإن هذه النهاية لا تخلو من علاقات طريفة بين العراق والبلاد الأخرى . فقد اتصل نبوخذ نصر الثانى بـ « نيخو » (ثانى ملوك السلالة السادسة والعشرين) بحرب حاسمة فى كركميش (جرابلس) أنهت التنافس بين الطرفين حول اقتسام أملاك الدولة الآشورية[٤٠] وصارت سورية وفلسطين تحت تأثير الامبراطورية الكلدانية. وبالرغم من اندحار نيخو فى كركميش لم يتخل ملوك السلالة السادسة والعشرين بالمرة عن شؤون سورية ولا سيما فلسطين . فقد حرضوا مملكة يهوذا على الثورة ، وقد ساعد الفرعون أفريز صدقيا بالجيش ، ولكن ذلك لم ينقذ أورشليم ، حيث قضى نبوخذ نصر الثانى على دولة يهوذا ، كما قضى الآشوريون على مملكة إسرائيل من قبل .

ولم تنقطع علاقات بابل بجزيرة العرب فى هذا العهد ، وقد سبق أن اتسعت علاقات العرب مع الآشوريين ، وورد ذكر اسم العرب أول مرة فى عهد شلمنصر الثالث ، وجاء ذكر الثموديين فى أخبار سرجون الثانى[٤١] ومن الأخبار الطريفة فى عهد الدولة الكلدانية (العهد البابلى الحديث) أن « نبونهيد » آخر ملوك البابليين قد اتخذ واحة (تيماء) متنزها له بعد أن قهر أميرها . وكان هذا الملك الذى شغف بالتاريخ والتنقيب عن آثار الماضى يقيم فى تيماء عند ما هجم الفرس على بابل ، وكان ابنه (بياشاصر) يقود الجيش[٤٢] .

(+) ٦٢٥ — ٥٣٩ ق.م .

التعليقات

(١) ولاسيما المدرسة الانكليزية القائلة بمبدأ « الانتشار التاريخى » فى تفسير نشوء الحضارات (British School of Diffusionism) لاحظ نقد آراء هذه المدرسة وتفنيدها فى : Toynbee, *A study of History*, Vol I & III

(٢) انظر المصدر نفسه (Vol. I) . أما الحضارات الأصلية الأخرى الى الحضارتين السمرية والمصرية فهى بحسب رأى المؤلف : الصينية ، والأندية ، والمنوية ، وحضارة المايا .

وراجع المصدر نفسه حول الأسباب التى حفزت الانسان الأول على الانتقال من الأطوار البدائية الى طور الحضارة فينشىء الحضارات الست الأصلية . وبوسع الباحث أن يضيف احتمالا جديداً حول أصل الحضارتين السمرية والمصرية بفرض أن كلتيهما اشتقت من أصل مشترك يمثله فى الشرق الأدنى طور الفخار المصبوغ الذى شاع فى جميع أنحاء الشرق الأدنى فى نهاية العصر الحجرى المتأخر فيما يسمى بطور الـ (Chalcolithic) .

(٣) وقد سميت هذه الأطوار بأسماء المواقع التى وجدت فيها الآثار الخاصة بتلك الأطوار وقد تسمى فى كل من مصر والعراق بعصور ما قبل التاريخ أو ما قبل السلالات . وتدعى أطوارها فى مصر : « البدارى » ، « الأمراشى » ، « الجرزى » ، « السمينى » (نقادة ٣) . وفى سورية فى العمق (E و D) ووجدت آثارها فى رأس شمرة وفى الجديدة وأريحا . وفى العراق الأطوار التالية : « حسونة . سامراء . حلف . العبيد » .

(٤) للوقوف على هذه الآثار ودرسها انظر المراجع الآتية :

1. Childe. *New Light on the Most Ancient East* (1934), 106, 120 ff.
2. Frankfort, *Studies*, I, 118 f.
3. Scharff in *Zeit. für ägyptische Sprache und Altertumkunde* (1935), 89 ff. quoted by Jacobsen, *The Sumerian King - List*. p. 189
4. *Journal of Egyptian Archaeology*, Vol. VIII, 252 ff.

(٥) الطور « السمينى » (نقادة ٣) الذى يعلم بالتسلسل التاريخى : (S. D. 63-80) ومن الجانب العراق تعود أقدم هذه الآثار الى منتصف عصر الورقاء . واستمر وجود التأثيرات السمرية فى الحضارة المصرية الى طور « جدة نصر » الذى يقابل عهد سلالة « منا » والى القسم الثانى من عصر فجر السلالات (Jacobsen *The Sumerian King-List* p. 189) وأبرز الآثار التى تعود الى طور « نقادة ٣ » : مقبض السكين العاج الذى وجد فى جبل « العرق » وبعض الآثار التى وجدت فى القبر المزوق فى « هيراكونبوليس » ومن بينها نوع من القوارب الغريبة عن السفن المصرية ولكنها من القوارب السمرية . وصور على مقبض السكين السالف الذكر بعض الحيوانات الخاصة بالعراق كالكلب . وفى مقبض السكين وفى قبر « هيراكونبوليس » صور مشهد خاص بالفن السمرى وهو بطل يصارع أسدين . ومن صور الحيوانات الغريبة التى ظهرت فى نهاية عصر ما قبل السلالات الأسود والقردة والعقارب وقد مثلت بأطرزة الفن السمرى . وتحت تماثيل الأسود وصورت فى أولى أطوار الفن المصرى بهيئة تبدو فيها فغرة الأفواه على طراز الأسد البابلى و « السوسى » .

وقد استمر هذا الطراز فى العراق فى جميع العهود ولكنه ترك فى الأطوار التالية من الفن المصرى .

(Childe. *ibid.* , p. 124 and n. 16, referring to *the Journal of Egyptian Archaeology*, VIII, p. 252.

(٦) لزيادة الأمثلة ووصفها راجع : Childe, *ibid.* , 124 ff.

(٧) انظر المراجع الآتية :

1. Childe, *ibid.*, p. 127.
2. Alan Gardner in the *Legacy of Egypt*, p. 72.
3. Wilson in *the Intellectual Adventure of Ancient Man*, p. 95.

(٨) راجع : *Reallexikon der Assyriologie*, I, p. 64, referring to *The Cambridge Ancient History* (192), I, 577 ff .

(٩) راجع أخبار « لوكال زاكيزى » فى Thur.- Dangin, *Die Sumerischen und Ahkadischen Koningsinschiften* .

(١٠) راجع : Childe, *o. p. ct.*, pp, 286 - 7 referring to S. Smith, *Early History of Assyeria*, p. 83 .

(١١) وبهذه المناسبة نذكر القصة الطريفة المعنونة « بطل الحرب » التى وجدت فى أحد البيوت فى تل العمرنة ، وهى مدونة باللغة الأكدية والخط المسمارى .

(S. Smith, *ibid.*, 83 ff.

(١٢) بلغت حملات « سرجون » و« نرام — سن » فى البلاد الشامية الى جبيل و(Yarimuta) جنوب جبيل (S. Smith, *Alalakh and Chronology*, p. 32) .

(١٣) راجع : Thur. - Dangin, *op. ct.*, (1907) , pp. 166-167 Statue A

أما عن « دلمون » وتعيينها بمنطقة البحرين فراجع :

P. B. Cornawall, "on the Location of Dilmun" in *Basor*, No, 103 (1946), 3 ff .

وكذلك : Hitti, *History of the Arabs* (Third ed. 1943), p. 36.

(١٤) Childe, *o. p. ct.*, p. 289, referring to Conteneau, *Manual*, III p. 116.2

(١٥) راجع : *The Legacy of Egypt* (1942/3) p. 26

ومما يحسن ذكره بهذا الصدد تشابه الأساليب الفنية تشابهاً كبيراً ، حتى ان لوح حجر منحوتاً وجد فى خفاجى من عصور فجر السلالات مخروماً وكذلك وجد فى مارى كسرة لوح مماثل بلغت فيهما المشابهة أن الكسرة تكمل الجزء المخروم من لوح خفاجى .

(١٦) راجع : Steindorff and Seele, *When Egypt Ruled the East* (Un. of Chicago Press 1945) p. 49

(١٧) أسفرت البحوث التى تمت فى جبيل عن تغلغل الحضارة المصرية فيها ، ولكن الى ذلك وجدت بعض العناصر من الحضارة السمرية ، مما يشير الى التقاء الحضارتين وتأثيرهما المشترك ، كاستعمال « حجر الأساس » فى أسس المعبد المصرى الذى وجد هناك (Childe, *o. p. ct.* p. 286) .

(١٨) يرى الأستاذ « توينبى » أن العهد الذى توقفت فيه الحضارة المصرية عن النمو يبدأ بعد السلالة السادسة . ويعبر عن مفهوم توقف النمو بـ Breakdown . واذا أردت الوقوف على الاعتبارات التى جعلت هذا الباحث يرى الرأى المذكور والأسباب التى يسوقها لتعليل هذه الظاهرة التاريخية فراجع بحثه القيم :

A. J. Toynbee, *A study of History*, Vol IV (1939) .

(١٩) راجع : S. Smith, *Alalakh and Chronology*, p. 34 f. & nate 37
وقد تبين حديثاً أنه يوجد حمورابى ثالث عرف بملك « كوردا أو كردا » وهى اقليم لم يعين بالضبط حتى الآن (*ibid*) .

(٢٠) حول النفوذ البابلى فى البلاد الشامية فى عهد السلالة الأولى (البابلية) راجع :
The Legacy of Egypt, p. 29 .

(٢١) 1. S. Smith *o. p. ct.* p. 15, quoting Schäffer, *Ugaritica*, I, 18, note 2.
2. Steindorff & Seele, *o. p. ct.*, 50-51 .

(٢٢) حول ملخص التنقيبات فى « الآلاك » « تل العطشانة » راجع الكراس :

(S. Smith, *Alalakh and Chronology* (1940)

وكانت الآلاك عاصمة دويلة تدعى (Mukish) لا تعرف حدودها وسعتها على وجه التأكيد . ولعل الحديدة القريبة من تل العطشانة التى نقبت فيها جامعة شيكاغو كانت تابعة لهذه المملكة . وكانت تتاخم مملكة أخرى هى (Tunip) وكثيراً ما قاست العاصمة « الآلاك » من الحملات الحربية فى سهل حلب . ومن المرجح أن «سرحون الأكدى» و«زام — سن» قد مرا بالمدينة فى حملاتهما على مدينة (Yarimuta) جنوب جبيل (S. Smith, *ibid*, 31 ff. referring to *AJ* 5L, LV,81&77)

(٢٣) حول التنقيبات فى « أوغاريت » (رأس شمرة) راجع : Schaeffer, *Ugaritica* .

وكذلك S. Smith, *ibid.*

أما عن التنقيبات فى تل الحريرى (« مارى » أو « ماثر ») (١٩٣٦ — ١٩٣٩) فراجع
Albright in *Rasor*, No. 77, 20 ff. و S. Smith, *ibid* وكذلك *Syria*, vols, XVIIIXX.
وفيه بحث عن الضوء الذى تلقيه نتائج التنقيبات فى مارى على الصلات التاريخية بين أقطار الشرق الأدنى .

(٢٤) نشرت نتائج التنقيب الاستكشافى الذى قام به Thureau-Dangin و Dhorme فى *Syria*, V وقد أقام الكشيون مستعمرات قرب مملكة « خانا » التى كانت عاصمتها « ترقا » (تل عشارة) (راجع S. Smith, *ibid.*, p. 23) .

(٢٥) بدأ حمورابى عمله فى العراق ، وبعد أن قضى على خصمه الجبار « ريم — سن » العيلامى وجه همه الى الفتوح الخارجية ، ومن المرجح أنه بدأ ذلك بغزوة « مارى » فى سنته الثانية والثلاثين وقضى على ملك مارى المعاصر « زمرى — لم » (S. Smith, *ibid.*, 22-23) وكان ذلك بعد موت الملك الآشورى « شمسى — أدد » الأول الذى بسط سلطانه على تلك المملكة .

وقد حالف حمورابى البابلى فى أول أمره حمورابى السورى ملك « يمخد » الذى خلف « يرم — لم » وقد ساعده هذا بالجيوش فى حروبه مع « ريم — سن » العيلامى (*R A*, XXXV 110) .

(٢٦) لقد عثر حديثاً على كنز من الآثار مخزون فى صناديق دفنت تحت معبد مصرى فى مصر العليا تدل محتوياته على سعة الاتصالات التجارية بين مصر وأقطار الشرق الأدنى ، فمن جملتها أختام أسطوانية بابلية من حجر اللازورد وفضة وذهب وأوان حجرية من الصناعة الايجية (*The Legacy of Egypt*, 29 - 30) .

(٢٧) لا تزال قضية أصل الهكسوس ومهدهم موضع خلاف بين المؤرخين. ولعل أسلم الافتراضات أنهم كانوا قوما خليطاً يتكلمون لغة سامية . وقد عبدوا الاله العاصفة (Sutelsh) وقد سببت هجرات الأقوام (Völkerwanderung) فى هذا العهد الى الجنوب الى آسية الصغرى وسورية وشمالى العراق ازاحة السكان فى كثير من بقاع الشرق الأدنى ، فساقت الهكسوس الى سورية وفلسطين (*The Legacy of Egypt*, p. 33) ويحتمل أنهم أزعجوا من مكان ما فى آسية الصغرى فغزوا سورية وفلسطين وبقوا فيهما مدة تأهبوا فيها لغزو مصر . ومن المرجح كثيراً أن جماعات من الساميين التحقوا بهم ابان بقائهم واستعدادهم فى البلاد الشامية (*ibid.*, p. 220) وشاركت فى غزو مصر. ومما يشير الى وجود العنصر الآرى فى مجموعة الهكسوس ما خلفه الهكسوس أنفسهم من ذلك العنصر فى سورية وشمالى العراق ، كما تؤيد ذلك أخبار الأمبراطورية المصرية . راجع حول قضية الهكسوس :

1. E. Meyer, *Geschichte des Altertums* (Second ed.) Vol-II, part. 1, 33-8
2. Toynbee, *A study of History*, II, 136, III, 404 .

أما سبب تسمية « منيثو » المؤرخ الكاهن المصرى الذى كتب فى حدود ٢٨٠ ق . م . لهم بالفينيقيين أو العرب ، فلعله يرجع الى بقائهم فى سورية وفلسطين زمناً ثبتوا فيه سلطانهم هناك قبل فتحهم مصر ، وكذلك لاختلاط كثير من الساميين بهم فى غزو مصر فى قسم الدلتا منها ، حيث ابتنوا عاصمهم *Avaris* كما يروى « منيثو » (راجع *The Legacy of Egypt*, p. 220 note 2) وقد استمر سلطان الهكسوس فى مصر حتى العام ١٥٨٠ ق. م. واختلف فى مدة حكمهم فى مصر . أما طردهم فقد بدأ بثورة آخر ملوك السلالة السابعة عشرة وتم طردهم وتحرير مصر منهم فى بداية السلالة الثامنة عشرة حيث طاردهم « أحموسة » أول ملوك هذه السلالة ، ولاحقهم الى جنوبى فلسطين . وغزا مدينة « شاروهين » . واستمر غزو الفراعنة فلسطين وسورية فى عهد خلفاء أحموسة وهم : « أمنحوتب الأول » و « طوطمس الأول » وقد تمكن « طوطمس الثالث » (١٥٠٦ — ١٤٦١ ق. م) من القضاء على قوة الهكسوس وفلولهم نهائياً ، وذلك فى معركة كبرى وقعت فى « مجدو » (١٤٧٨) (*The Legacy of Epypt*, p. 221) والى ذلك راجع ما يأتى حول قضية الهكسوس :

1. R. M. Engberg, *The Hyksos Reconsidered* (The orient. Instit. *S A O C*, No. 18) .

2. Steindorff and keith C. Seele, *when Egyqt Ruled the East* (1945) Chap. III.

(٢٨) شملت الأمبراطورية المصرية ثلاث سلالات ، وهى الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرون (١٥٨٥ — ١٠٩٠ ق . م) . ويستحسن أن يراجع عن الأسباب التى عملت على تكوين الأمبراطورية وأهميتها التاريخية *Cambridge Anceint History*, II وكذلك الدراسات القيمة فى Toynbee, *A study of History* .

(٢٩) راجع : Figulla & Weidner, *Keilschrifttexte aus Bughazkoi*

(٣٠) راجع 1. *Cambridge Ancient History*, Vol. II

2. Reallexikon der Assyriologie, I, (Agyptien) .

(٣١) Meissner, *Babylonien und Assyrien*, II, 285 .

(٣٢) راجع 1. Knudtzon, *El-Amarna Tafeln* (1915), No-9 .

2. *A Guide to the Babylonian and Assyrian Antiquities* (1922), pp. 126-7

(٣٣) كما تدل على ذلك رسائل العمرنة المتبادلة بين الملوك البابليين من السلالة الكشية (سلالة بابل الثالثة) والفرعونين المصريين أمنوفس الثالث والرابع (أخناتون) . وهى خمس رسائل بين أمنوفس الثالث و « كدش مان — انليل » وكذلك الرسائل بين بورنابورياش وأمنوفس الرابع (أخناتون) (راجع ٣٢—١) .

(٣٤) ان لجوء الملك الحتى (حتوسيل) الى وقف النزاع المسلح مع المصريين وابرام معاهدة الصداقة مع رعمسيس الثانى فى سنته الواحدة والعشرين يدل على ما كان يتصف به الملك الحتى من بعد نظر وفهم صحيح للوضع الدولى فى زمنه ، فأدرك أولا أن انهيار مملكة « ميتانى » (بعد انقسام البيت المالك فيها) قد عرض الحدود الحثية الشرقية الى خطر الآشوريين المباشر ، فان غزو (شيلمنصر) الأول (١٢٧٦) « ميتانى » واستيلاءه على كثير من الرعايا الحثيين ووصوله الى الفرات الى « كركميش » واخضاع « كبدوكية » و« خانا » بالرغم من مساعدة الحثيين ، كل ذلك جعله يدرك حقيقة الخطر المحدق بالدولة الحثية . فبعد أن جدد صداقته القديمة مع البابليين أبرم المعاهدة المشهورة .

(٣٥) راجع نص المعاهدة فى :

1 Langdon and Gardiner, "The Treaty of Alliance Between Hattusil, King of the Hittites and the pharaoh Ramsess II of Egypt" in *Journal of Egyptian Archaelogy, VI. 179 ff.*

2. *Cambridge ancient History.* II, 149 ff.

(٣٦) لا يعلم بوجه التأكيد تاريخ الخروج الاسرائيلى وهو يدور على الاقتراحات الآتية :
١ — من زمن طرد الهكسوس الى غزوات طوطمس الثالث أى من ١٥٧٠ ق.م. الى ١٥٠٠ ق . م . بوجه التقريب .

٢ — من زمن تدهور السلالة الثامنة عشرة الى عهد سيتى الأول ورعمسيس الثانى أى من ١٤٠٠ الى ١٣٠٠ ق . م . بوجه التقريب .

٣ — بعد نهاية السلالة التاسعة عشرة أى منذ ١٢٠٠ ق. م فما بعد .

وليس ما يقال فى ترجيح أى من هذه الاحتمالات ، لأنه لا توجد دلالة قاطعة تؤيد احداها . ولكن الفرض الأخير أبعدها عن الاحتمال ، والثانى من هذه التواريخ يبدو أرجحها . (أنظر بحث المسألة فى *the Legacy of Egypt*, 223 ff. وفيه الاشارات الى المراجع المهمة فى ص (223) الهامش رقم (١) .

(٣٧) بدأ التدهور فى الأمبراطورية المصرية يسير سيراً سريعاً بعد عهد الفرعون (Merneptah) وليس أدل على هذا التدهور وزوال النفوذ المصرى من سورية وفلسطين من القصة الطريفة التى تروى حول « وين — آمون » سفير الفرعون « هاريهور » أو « حاريحور » (١٠٩٠—١٠٨٥ق.م) الى جبيل . ومما يمتاز به هذا العهد توطيد شأن الاسرائيليين وتكوين كيانهم . وقد صارت لهم اليد العليا على أعدائهم الفلسطينيين فى عهد شاؤول وداود .

Breasted, A *History of Egypt*, p. 526 quoted by the *The Legacy of Egypt*, pp 224-225.

(٣٨) من الممكن حصر الهجمات العسكرية الآشورية المتتابعة التى دوخت الشرق القديم الى أربعة أدوار أو عهود يبدأ الأول منها فى الهجمات الحربية المتوالية على الدولة الميتانية والسلالة الكشية فى بابل فى القرن الرابع عشر ق . م . وكذلك بهجمات شيلمنصر الأول على العالم الحثى فى العقد الثالث من القرن الثالث عشر عند ما كانت المملكة الحثية على وشك الانهيار بسبب الاعياء الذى أصابها فى حرب المائة سنة مع المصريين فى عهد الامبراطورية . ويميز العهد الثانى بحروب تجلاتبليزر الأول وتوسع غزواته فى سورية الى ساحل البحر المتوسط فى نهاية القرن الثانى عشر والحادى عشر ق . م . ويبدأ الدور الثالث باعادة العمليات الحربية نفسها فى زمن آشور ناصربال فى سنة ٨٧٦ ق . م واستمر الى عهد شيلمنصر الثالث الذى قام بعدة حملات لاكمال فتح سورية وقد خمد النشاط الحربى بالتدريج فى النصف الثانى من القرن التاسع بعد ما نكص شيلمنصر الثالث فى حربه مع الاتحاد السورى فى موقعة (القرقار) فى ٨٥٣ ق . م .

أما العهد الرابع فيبدأ باعتلاء « تجلاتبليزر » الثالث العرش الآشورى فى ٧٤٥ ق . م . واستمر فى العنف والتوسع حتى نهاية مجد الآشوريين العسكرى فى حروبهم مع الماذيين وأحلافهم من البابليين و « العيثيين » فى ٦١٤ — ٦١٠ ق . م .

(Toynbee, *A study of History*, IV, 473, nate 3

(٣٩) انظر Gadd, *The Fall of Nineveh* (1923) و « ناحوم » ٣ : ٨ — ١٠

(٤٠) ورد وصف الموقعة فى « جرماية » ٤٦ : ١ — ١٢١ و ٢ ملوك ٢٤ : ٧

(٤١) Hitti, *History of the Arabs* (1943), 36 ff.

(٤٢) Dougherty, *Nabonidus and Belshazzar* (1929), 106-7.

المظاهر الفنية فى عواصم العراق الإسلامية القديمة

على ضوء الاستكشافات الحديثة

محاضرة السير بشير يوسف فرنسيس

موضوع محاضرتى « المظاهر الفنية فى عواصم العراق الإسلامية القديمة على ضوء الاستكشافات الحديثة » وأعنى بها اكتشافات مديرية الآثار القديمة فى العراق ، التى ظفرت منها بنتيجة أعمال التنقيب والتنظيف فى العواصم الإسلامية الأربع المشهورة ، تلك العواصم التى كان لها عظيم الأثر وجليل الخطر فى تاريخ العرب والإسلام بوجه عام ، وتاريخ العراق بوجه خاص ، وهى بحسب زمن تأسيسها : الكوفة وواسط وبغداد وسامراء ، وقد قصرت البحث على وصف المظاهر الفنية التى أخرجتها للنور تنقيباتنا ليس إلا ، لأن ما توصل إليه الأجانب فى هذا الشأن معلوم أمره من كتبهم التى يعرفها أصحاب الاختصاص ، وحضراتكم النخبة الطيبة من هؤلاء .

وقد عنيت مديرية الآثار العامة بعد أن تولت إدارتها الأيدى الوطنية باستجلاء ما تبطنه خرائب هذه العواصم ، وبالكشف عن بقاياها ، والتعرف بوجوه رقيها الفنى والعمرانى ، بالنظر لأهميتها التاريخية ، ولما هو محتوم عليها من واجب إحياء التراث القومى ودرسه وإذاعته بين الناس ، ولأنها وجدت أن بقايا هذه العواصم قد ظلت مطمورة تحت طيات التراب وأكداس الأنقاض لم تمسها يد المنقب المحقق ، ما عدا سامراء التى عُنى بالكشف عنها قبيل الحرب العالمية الأولى المنقبان الألمانيان المشهوران ساره وهرزفلد .

ولأبدأ بالكوفة أولى المدن التى أنشأها العرب بعد الفتح فى العراق ، وأولى العواصم العربية الإسلامية فيه .

تجمع الأخبار على أن الخليفة عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبى وقاص لما افتتح العراق يأمره أن ينزل بالكوفة ويأمر الناس أن يختطوها ، فاختطت فى نحو السنة السابعة عشرة للهجرة (٦٣٨م) ، وأن أول ما اختط من المدينة هو المسجد . ويروى البلاذرى أن سعداً لما انتهى إلى موضع مسجدها « أمر رجلا فعلا بسهم قبل مهب القبلة فأعلم على موقعه ، ثم علا بسهم آخر قبل مهب الشمال وأعلم على موقعه ، ثم علا بسهم قبل مهب الجنوب وأعلم على موقعه ، ثم علا بسهم قبل مهب الصبا فأعلم على موقعه ، ثم وضع مسجدها ودار إمارتها فى مقام العالى وما حوله ، ثم اقتطعت الأراضى واختطت كل قبيلة موضعها . وفى الطبرى أن « أول شىء خط بالكوفة وبنى حين عزموا على البناء المسجد . . . » . ولم يبن فى جوانب المسجد حين تأسيسه بناء ، ثم زادوا عليه مع الأيام حتى كمل بناؤه فى أيام زياد ابن أبيه عامل معاوية بن أبى سفيان على العراق ، وكان « قصر الإمارة » يتصل بالمسجد من جهة القبلة .

ويصف ابن جبير الأندلسى فى « رحلته » الجامع كما شاهده ، وكان قد زار العراق فى سنة ٥٨٠ هـ فيقول : « وهو جامع كبير ، فى الجانب القبلى منه خمس أبلطة ، وفى سائر الجوانب بلاطتان ، وهذه البلاطات على أعمدة من السوارى الموضوعة من صم الحجارة المنحوتة قطعة على قطعة مفرغة بالرصاص . . . وهى فى نهاية الطول متصلة بسقف المسجد ، فتحار العيون فى تفاوت ارتفاعها » .

أما خرائب الكوفة القديمة فتقع اليوم بين الكوفة الحديثة والنجف . وهى تتألف من آكام ومرتفعات واسعة الأرجاء ، كثيرة الحفر والأخاديد ، وحينما أقدمت مديرية الآثار العامة على التنقيب فيها سنة ١٩٣٦ ، وجدت الهيئة الموفدة لهذا الغرض أن الحجارين الجشعين وأصحاب المصالح الجاهلين ، قد سبقوهم بعشرات السنين بل مئاتها إلى هذا المكان ، فجعلوه مقالع للآجر ، استخرجوا ما شاء لهم أن يستخرجوا من حجارته ، وخربوا

ما قدر عليه غيهم من التخريب ، دون أن يردعهم رادع من دين ، أو يثنيهم عن عزمهم بقية من ضمير . فطمسوا بذلك — وا أسفا — معالم عزهم وأضاعوا آثار قومهم وهم لا يعلمون أى إثم يرتكبون ! على أن هذا الوضع المثير لصنوف الأشجان لم يضعف من عزم الهيئة ، ولم يفل من عضدها ، فعقدت أمرها على الوصول إلى هدفها على قدر ما وسعها من طاقة وحيلة . ولما كان المعروف أن مسجد الكوفة القديم القائم الآن كان قد شيد فوق المسجد الأول، وأن قصر الإمارة كان يلاصق جداره القبلى ، درست الموضع ورسمت كسوره (الكونتور) واختارت نقاطاً للشروع بعملها ، فوفقت إلى تحديد القصر وتعيين شكل أسواره وأسلوب بناء بعض أجزائه ، وتوصلت إلى الكشف عن الجدار القبلى للمسجد الأول والملاصق للقصر فقط ، لأن التحقق من حدود المسجد أيضاً صعب عليها لقيام الجامع المحدث فوقه ، ولأنه ما زال يصلى فيه .

ولقد تبين أن قصر الإمارة شيد بالآجر المحكم التشكيل والجص ، وكان مربع الشكل تقريبا ، وأقول تقريباً لأن أبعاده — كما قيست من داخله — كما يأتى : الضلع الشمالية ١٧٠ متراً والجنوبية كذلك والشرقية ١٦٩ متراً والغربية ١٧٢ متراً . وأن معدل ثخن الجدار ثلاثة أمتار وستون سنتيمتراً .

وظهر أنه كانت تدعم ثلاثة من أركانه ، وهى : الركن الشمالى الشرقى والركن الجنوبى الشرقى والركن الجنوبى الغربى ، أبراج مستديرة ، طول قطر البرج الواحد منها ٤٫٤٠ أمتار ، ماعدا الركن الشمالى الغربى فقد كان بلا برج لملاصقته للضلع القبلية للجامع . وتدعم كل ضلع ، إلا الضلع الشمالية ، ست دعامات نصف دائرية ، معدل قطر الدعامة الواحدة منها ٣٫٣٠ أمتار يتساوى بعد بعضها عن بعض . أما الضلع الشمالية فان جزءاً منها يلاصق جدار الجامع القبلى ، وتمتد بقيته شرقا بعيدة عن حدود الجامع ، وتدعم هذا الجزء الأخير دعامتان على شاكلة الدعامات الأخرى . وفيه على بعد نحو سبعة أمتار من الجدار الشرقى للجامع فتحة المدخل إلى القصر ومقدارها ثلاثة أمتار . ووجد على جانبى المدخل من الخارج دكتان ، وثخن كل ركن من ركنى المدخل ٦٫٢٠ أمتار .

وقد نقب فى داخل القصر عند الضلع الشمالية ، وعثر على ثلاث غرف فى الجهة الشرقية تخن أضلاعها ١,٥٠ متر ، وهى مشيدة بالآجر والجص ووجوهها مكسوة بكساء من الجص لحظت فى بعض نقاط منه آثار زينة زوقت بأصباغ من اللون الأحمر والأسود والمائى وغيرها من الألوان التى نصلت ، ولم يكن فى المقدور التحقق منها ، وقوام هذه الزخرفة أشكال هندسية معظمها مربعات ومعينات وأشكال أخرى مألوفة فى المبانى الإسلامية .

ووجد فى الزاوية الشمالية من هذه الضلع ، غرفتان إحداهما ذات ثلاثة مداخل أحدها يؤدى إلى الجدار القبلى للمسجد ، ولعله كان الممر الخاص للأمير ، منه يدخل لأداء الصلاة . وتدل بعض المعالم الباقية من هذه الغرفة أنها كانت عقادة نصف كروية ، وقد حفرت أيضاً بعض الآكام فى وسط القصر ، وعثر على مجموعة من غرف وممرات يظهر من شكلها ومواد بنائها أنها لا تعود إلى دور البناء الأول .

ولم يكشف من القصر أكثر مما وصفنا لشدة التخريب فيه من جراء اقتلاع الطابوق فى الأزمنة الأخيرة ، كما سبق أن بينته ، إذ وجد فى بعض الأماكن من القصر أن المجرمين قد سطوا حتى على آخر ساف من أسسه ، وبهذا لم تتسن معرفة مداخله وطرز ريازته وشكل نقوشه وزخارفه .

وكانت المواد المستعملة فى البناء تتألف من الآجر الكبير الحجم المحكم التشكيل ، ويغلب فيه اللون الأحمر القليل الطبخ مع جص ، وكانت الجدران غير متعاشقة البناء بعضها مع بعض فى الأركان ، على الضد من الأبراج والدعامات فانها متعاشقة البناء مع الجدران .

ومع أنه لم يتسن العمل فى الجامع ، لما أوضحته قبلا من أسباب ، فان بالإمكان القول استناداً الى الأخبار التاريخية ، أنه يشبه فى تخطيطه جامع الحجاج فى واسط ، إذ المأثور أن الحجاج بنى جامعه على غرار جامع الكوفة ، وبما أن مديرية الآثار العامة قد وفقت إلى وضع تخطيط واف عن جامع الحجاج ، كما سأبينه فيما بعد ، فبالوسع أن نستنتج شكل جامع الكوفة من هذا التخطيط . ولا يفوتنى أن أذكر بهذه المناسبة أن فى صحن مسجد الكوفة الحالى سردابا يعرف اليوم باسم « السفينة » وينزل إليه بدرج ، تعلوه

عقادة ، تفضى إلى ساحة مكشوفة مثمنة الأضلاع ، تعلو جدرانها إلى مافوق أرض المسجد الحالى قليلا ، وفى كل ضلع من هذه الأضلاع إيوان ، واثنان من هذه الأواوين الثمانية ينفذان إلى دهليزين ، يفضيان إلى سردابين مسقوفين ، ترى بعض زخارف آجرية على سقف أحدهما وعلى جدران الآخر .

ويلاحظ أن لهذا السرداب فروعا أخرى قد سدت بحائط فى الأزمنة الأخيرة ، مما يدل على أنه لا ينتهى بهذه الحدود ، ويرى بعضهم أن السرداب المذكور وتفرعاته من بقايا بناء الجامع القديم .

ولندع الكوفة بعد هذا ، لننتقل إلى واسط عاصمة الحجاج بن يوسف الثقفى عامل الخليفة عبد الملك بن مروان على العراق . فان الحجاج وجد أن الأصلح له ولإدارة البلاد الانتقال من الكوفة ، واتخاذ عاصمة جديدة يكون فيها مقر جنده من أهل الشام ، وكانوا صفوة من يعتمد عليهم . فأسس مدينة واسط فى وسط العراق . وإن معظم المؤرخين وبينهم البلاذرى والطبري والسمعانى وياقوت والقزوينى فى آثار البلدان ، مجمعون على أن الحجاج أسس عاصمته سنة ٨٣ هـ (٧٠٣ م) أو ٨٤ هـ (٧٠٤ م) وأنه انتهى من إنشائها سنة ٨٦ هـ ، إلا بحشل وهو أسلم بن سهل الرزاز المتوفى فى حدود سنة ٢٨٨ هـ (٩٠١ م) ابن واسط ومؤلف تاريخها (مخطوط فى المكتبة التيمورية فى دار الكتب المصرية ونسخته المصورة فى خزانة كتب المتحف العراقى) فانه يجعل تأسيسها سنة ٧٥ هـ (٦٩٤ م) والانتهاء من بنائها فى سنة ٧٨ هـ . وقد أنفق الحجاج على بناء المسجد الجامع والقصر والسور فى الجانب الغربى من واسط نحو ثلاثة وأربعين مليون درهم . وكانت واسط على جانبي دجلة ، وكان فى الجانب الشرقى قبل مجىء الحجاج بلدة ساسانية يسكنها الفرس وغيرهم تدعى كسكر . ولما توفى الحجاج فى سنة ٩٥ هـ دفن فى واسط كما يقول ابن خلكان .

وظلت واسط عاصمة العراق طوال العهد الأموى ، ثم بدأ عزها بالأفول بمجىء العباسيين ، وما حل القرن الثانى عشر للهجرة حتى هجرها الناس هجراناً تاما ، لتحول مجرى

دجلة إلى مجراه الحالى ، فصارت خرابا ، وتعرف خرائب واسط اليوم باسم المنارة ، لأن منارة قديمة لا تزال قائمة فى الجانب الشرقى منها . وأطلال هذه المدينة الدارسة واسعة الأرجاء ، مترامية الأطراف ممتدة على جانبى عقيق دجلة القديم المعروف اليوم بالدجيلة ، وتعلو آكامها فى بعض جهاتها نحو ١٥ متراً وتنتشر بقاياها فى أرض مساحتها ثلاثة كيلومترات مربعة ، وتقع على بعد نحو ٢٥ كيلو متراً عن جنوب شرقى الحى فى جنوب الكوت .

وقد أظهرت تنقيبات مديرية الآثار العامة العراقية التى استمرت ستة مواسم منذ سنة ١٩٣٦ ، من جملة ماأظهرت ، جامع الحجاج وقصره ذا القبة الخضراء التى كانت ترى من فم الصلح ، على سبعة فراسخ من شمالها أى ٣٥ كيلومتراً ، وعثر فوق هذا الجامع على ثلاثة مساجد جامعة أخرى ، ولم يبق من الأول والقصر غير بقايا الأسس والسوارى وأجزاء صغيرة من الجدران ، إذ الظاهر أن من شيدوا الجوامع التي أعقبته استعملوا فى بنائها نقض الجامع الذى قبله ، وكانت البقايا المكتشفة كافية للاستدلال بها على أبعاد الجامع وعدد بلاطاته وأروقته . فالجامع مربع الشكل ذرعه ١٠٣ × ١٠٣ من الأمتار ، وجدرانه ثخينة تناهز المترين ونصف المتر ، مشيدة بجص وآجر أصفر اللون صلب محكم التشكيل ، وفى مصلى الجامع خمسة أروقة يتألف كل منها من تسع عشرة بلاطة ، وفى مؤخره رواق من تسع عشرة بلاطة أيضا ، وفى كل من جانبيه رواق واحد فيه ثلاث عشرة بلاطة . ويلاصق الجامع فى جهته القبلية قصر الحجاج ، الذى أظهرت الحفريات قسمه القريب من الجامع بوساطة أنفاق بقيت فى النقض إلى عمق ثمانية أمتار ، وكان يقوم عند تقاطع أسس البلاطات مع أسس أروقة المصلى ، سوار مؤلفة من قطع الحجارة الرملية ، وبعض هذه السوارى ساقط فى مكانه ، ويلاحظ فيما هو موجود أن قطع السارية الواحدة كانت موضوعة قطعة على قطعة ، تصل بينها أصابع الحديد ، وما اكتشف منها هنا يشبه ما وجد فى الجامع الثالث ، مما يؤكد أنه قد استعمل فى هذا الجامع سوارى الجامع الذى قبله . ولكنه كان استعمالا مهوشا ، إذ لم يؤخذ بنظام الزخرفة الكامل الذى تؤلفه قطع كل سارية فضاع انسجامها ، مما دعا القوم إلى إكسائها طبقة من الجص . ويختلف حجم هذه القطع ، فطول قطرها بين ١١٠ و ٩٥ سم . ومن الصعب معرفة طراز النقش معرفة دقيقة ،

على أن هناك بعض القطع كانت زخرفته بارزة وأرضيته محفورة ، وقوام الزخرفة غصن كرمة متموج بتشابك ورقها مع خيوطها ، وكذلك أزهار وعناقيد وغيرها ذات سطح مقعر تنتهي فيه القنوات بنطاق مزخرف يغلب أن يمثل زخرفة نباتية أو نجوما أو أزهاراً أو نصف كرات . وكانت الجدران والأسس مبنية بالآجر والجص .

وقد شيد الجامع الثانى فوق الأول ، ولا يختلف عنه فى جملة تخطيطه إلا أن قبلته قد حولت نحو الجنوب بزاوية مقدارها ٣٤° عن قبلة الجامع الأول (أى من الاتجاه ٥١° بالاتجاه الجنوبى الغربى إلى ١٧° بالاتجاه نفسه) وأما الجامع الثالث فانه مثل ما قبله ، ولكن الظاهر فيه ، أن أضلاعه الأربع يدعمها من الخارج اثنا عشر برجا أو دعامة ، أربعة منها على هيئة ثلاثة أرباع الدائرة فى الأركان ، والبقية بشكل نصف دائرة . وفى وجهته ثلاثة أبواب وفى كل من جانبيه أربعة . وثمة باب ضيق بالقرب من المحراب ، وشكل هذا المحراب سداسى يقع فى وسط الجدار القبلى . وقد عثر على قطعة أسطوانية فى هذا الجامع كتابتها :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا آخر أسطوانة عملوها

الواسطيين فى هذا الرواق

وبالله . . . . . .

وقد اكتشف ، فى مكان آخر من واسط ، مئات من دمى الطين يعود زمنها إلى القرن السابع ، وهى الخانية ، أو بعد هذا الدور بقليل ، ومعظمها يمثل فرسانا وعازفين وراقصات وآلات طرب وطيوراً .

وتشبه وجوه هذه الدمى ما يوجد من الصور فى فخار البربوتين الذى كثر استعماله فى منطقة الموصل فى القرن السابع أيضاً ، وتشبه كذلك ما بقى من صور زخرفية فى قصر بدر الدين لؤلؤ فى الموصل ، ومحراب سنجار فى متحف بغداد ، وكلها من القرن نفسه . أما المواد الفخارية والخزفية فانها كثيرة كثرة هائلة فى واسط ، وبين الفخار صحون

وجرار طينتها وردية ناعمة ومزخرفة بأشكال هندسية باللون الأحمر ، وبعضها مطعم بقطع اللازورد والشذر ، ومعظمها من القرن الثامن ، ووجدت فى طبقات أقدم زمنا كسر من الفخار المختوم .

* * *

ونكتفى بهذا المقدار فى وصف ما أنتجته التنقيبات فى هذا الموقع من ظواهر فنية لم تكن قد رأت النور قبلا ، فنترك واسطاً ونقصد بغداد مدينة السلام عاصمة بنى العباس ، التى أسسها الخليفة أبو جعفر المنصور فى سنة ١٤٥ هـ وأتم بناءها سنة ١٤٩ هـ ، وكانت مدورة يطيف بها سوران ، وفى وسطها بنى المنصور قصره المعروف بقصر الذهب والمسجد الجامع ، وأقام حول ذلك سورا ثالثا ، ثم اتسعت فى زمنه وفى زمن خلفائه ، وامتدت خارج الأسوار ، ثم إلى الجانب الشرقى .

ولم يبق الخلفاء ولا ولاة عهودهم أو وزراؤهم وقوادهم وكبار القوم فى بغداد شيئاً سمعوا بجماله وحسنه وإبداعه إلا أدخلوه فى القصور التى شيدوها أو المساجد والمدارس والمارستانات التى أنشأوها . ولكن أين تلك البدائع ؟ أين مدينة المنصور بجامعها وقصرها وأسوارها ؟ أين قصور الرصافة ؟ وأين تلك المنشآت التى تحفل بوصفها كتب التاريخ والبلدان والأدب وغيرها مما يعد بالعشرات ؟

إن بغداد فى الواقع من أحسن الأمثلة التى تضرب عن تغير المدن ، وعن أثر العوامل الطبيعية والبشرية فى زوال العمران واندراس الآثار ، فلقد تظافرت على بغداد كوارث الطبيعة ويد الإنسان ، فقضت على أبنيتها وذهبت بجمالها . فان طغيان دجلة فى كثير من السنين ونيران الحرائق وما تحدثه الحروب والفتن من تدمير وتخريب ، كل ذلك أزال الآثار ببغداد وطمس معالمها وأضاع خططها ، ولم يسلم من تلك القصور الشاهقة والمبانى الفخمة والمساجد الجامعة والمدارس الحافلة ، إلا قليل من المبانى العباسية ، من ذلك : المدرسة المستنصرية والبناية المعروفة بـ « القصر العباسى » وعدد من المآذن والأضرحة وباب الظفرية فى سور بغداد المعروف الآن بالباب الوسطانى ، بل إن هذا الذى

سلم من أبنيتها كان نهبا مقسما بين الإهمال والأطماع ، مما زاد فى تصدع جوانبه وتشويه بنيانه وضياع بعض أقسامه ، ولكن ما بقى من أجزائه خير دليل على ما وصلت إليه الريازة فى ذلك العصر الزاهر من رقى ، وعلى بلوغ أبناء العراق شأواً عالياً فى الفن والصناعة ، ولا سيما فى الريازة والزخرفة والنقش وما إلى ذلك .

ودارت الأيام دورتها ، وآلت الأمور إلى أبناء البلاد ، وتسلمت الأيدى الوطنية إدارة شؤون الآثار ، فما كان منها إلا أن بادرت إلى بذل ما فى وسعها من جهد ونشاط لإنقاذ البقية الباقية من مآثر الأجداد فى بغداد ، والمحافظة على ما سلم من معالم رقيهم الفنى والعمرانى ، فوضعت لها خطة تسير على منوالها فى ترميم المبانى التاريخية المتصدعة ، وإحياء المهجور منها ، وإخراجها للأنظار بثوب قشيب ومظهر قريب من حالتها الأولى .

وعلى هذا ، بدأ العمل فى صيانة «القصر العباسى» فى قلعة بغداد ، والباب الوسطانى القريب من ضريح الشيخ عمر السهروردى والمدرسة المستنصرية . وكانت هذه المبانى التاريخية ، قبل أن تعمل فيها يد التنظيف والترميم ، قد أخذ منها الدمار كل مأخذ ، بسبب الإهمال الشنيع طوال القرون الستة الأخيرة . فالى ما أصابها من تخريب بفعل العوامل الطبيعية لم تنج من يد الإنسان المدمرة ، فقد قلعت بعض جدرانها ، وأحدثت جدران غيرها جديدة ، وسدت مداخل وأبواب وفتحت أخرى بدلا منها ، إذ أن هذه المبانى استخدمت فى الأدوار الأخيرة لأغراض حكومية مختلفة . فكانت مهمة إنقاذها ، على هذا ، شاقة صعبة ، والهدف عسير المنال ، والأمر يتطلب جهداً كبيراً قد يخف أمامه الجهد الذى أقام هذه المبانى ، والعناء الذى تطلبه تحقيق إنشائها . ومع ذلك أقدمت دائرة الآثار العراقية على العمل بقلب عامر بالإيمان ، وبخطة يدعمها العلم والفن . فبدأت أول ما بدأت بالقصر العباسى فى سنة ١٩٣٥ ثم فى الباب الوسطانى فى سنة ١٩٣٨ وأخيراً فى المدرسة المستنصرية فى سنة ١٩٤٦

وكانت أول خطوة خطتها فى هذا السبيل ، نقل الأنقاض ثم رفع الإضافات الحديثة التى لا تمت بصلة إلى البناية الأصلية ، وأعقب ذلك الشروع بالترميم والصيانة .

وهى ما زالت مولية عنايتها بهذه المبانى دون انقطاع ، وسيبقى هذا شأنها حتى يتم لها النجاح التام فى تعميرها وإحيائها .

إن زمن هذه المبانى يرقي إلى أواخر عهد الدولة العباسية ، فالقصر العباسى والباب الوسطانى ، وهو الذى كان يسمى باب الظفرية ، من أبنية المائة السادسة من عهد الخليفة الناصر لدين الله ، والمدرسة المستنصرية من مبانى النصف الأول من المائة السابعة ، فقد شرع الخليفة المستنصر بالله ببنائها فى سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧م) وتكاملت فى سنة ٦٣١ هـ (١٢٣٣ م) فبين هذه وتلك نصف قرن أو يزيد . وفى ذكر هذه الحقيقة فائدة مهمة لمعرفة مميزات الريازة فى ذلك العهد مما بقى من مظاهرها الفنية .

إن هذه المبانى مشيدة كلها بالآجر المحكم التشكيل والجص ، وسقوف غرفها وحجراتها وأروقتها معقودة كذلك بهما .

وتشترك المدرسة المستنصرية والقصر العباسى بوجود إيوان أو أكثر واسع الفتحة وعلوه يعادل علو طبقتى البنايتين ، يزين معظم أجزائه زخارف جميلة التكوين رائعة المظهر .

إن الزخارف التى تزين هاتين البنايتين ، ولا سيما القصر العباسي ، لا يمكن وصفها بالكلمات لدقة صنعها وروعة منظرها وتنوع أشكالها وانسجام تنسيقها وبداعة تركيبها وترتيبها ، وكلها مصنوعة من الآجر ، بخلاف زخارف سامراء المصنوعة من الجص ، والتى هى من المائة الثالثة .

وتوجد هذه الزخارف فى معظم أجزاء البناية ، فهى تزين عقادات الأروقة والأواوين وأركانها وأقواسها وبعض أقسام جدرانها .

ويتكون نظام هذه الزخارف ، من تلاصق قطع متعددة من الآجر ، مختلفة الأشكال والحجوم ، كل قطعة منها منقوشة نقشا دقيقا على غرار حفر النقوش فى المعدن أو الخشب ، وهذه القطع المتنوعة شكلا ونقشا وزخرفة ، مركبة تركيبا دقيقا ، كل واحدة تلاصق الأخرى ، بحيث تألف من مجموعها منظر رائع جميل أخاذ ، يريح العين ويعجب النفس ويحلق بخيال المرء إلى آفاق واسعة . . . إنه لشعر منظوم من قطع الآجر المهندمة ، أو حديقة غناء متنوعة الأزهار والورود تحلت بها الجدران .

تتألف نقوش هذه الزخارف من أنواع ، منها الهندسية ومنها الزهرية ، وفيها المنقوش على سطح مستو أو على سطح مقعر قليلا أو محدب قليلا ، وبينها البارز وبينها الواطىء .

ويتشابه القصر العباسى والمدرسة المستنصرية بتخطيط بنائهما ، والتخطيط يتألف من صحن مستطيل أو مربع فى الوسط تحف به الأواوين والغرف والحجرات ، وأبوابها مفتوحة على الصحن وأمامها أروقة متصلة البناء .

ومما تحلت به المدرسة المستنصرية ، الكتابات التذكارية بعضها تزوقه زينة نباتية ، وهذه الكتابات كانت فى أعلى باب المدرسة فى جهتها الشرقية أوفى الجهة المطلة على النهر ومكتوبة بخط الثلث الكبير الجميل ، وتتألف من قطع الآجر المهندم ، وكل قطعة تلاصق أختها ، وقد يتكون الحرف الواحد من قطعتين أو أكثر من الآجر أعلى سطحا من قطع الأرضية المزخرفة . أما القصر العباسى فلم يعثر على أية كتابة فى أى قسم بقى قائما منه ، سوى قطعة آجر مكسورة كتب عليها بين زخارف زهرية « ذلك فى . . . ».

وقد تركت ذكر تاريخ هذه البنايات ووصف مرافقها وتخطيطها وصفا مسهبا ، تجنبا لتطويل لا يمكننى منه الوقت المحدد ، وأحيل من أراد التوسع فى هذا الباب إلى أعداد مجلة « سومر » الفائتة ، ففيها ما يغنى عن المزيد .

* * *

أما « سر من رأى » أو سامراء العباسية ، فقصتها عجيبة فذة فى بابها ، ومن أغرب وأمتع قصص المدن فى التاريخ ، فقد أسسها الخليفة المعتصم بالله ثامن الخلفاء العباسيين سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) بعد نقله عاصمة الخلافة من بغداد إليها ، وتوسعت وازدهرت ازدهاراً عظيما ، ولاسيما فى أيام المتوكل . لكن سرعان ما هجرها الخليفة المعتمد عائدا إلى بغداد ففقدت مركزها ، وقل أهلها ، وذهبت مكانتها ، فصارت قرية صغيرة بعد أن امتدت خمسة وثلاثين كيلو مترا على ضفة نهر دجلة بأقل من نصف قرن .

غير أن سامراء إذا كان أمرها قد انتهى بمثل هذه المأساة ، فانها اشتهرت بجمال قصورها ، وسعة مساجدها ، وبداعة زخارفها ، على قصر عمرها . وكنت أود لو أسعفنى الوقت للتفصيل فى ذلك ، ولكنى أجتزىء القول فيها لكثرة ما نشر عن مبانيها وزخارفها وفخارها وزجاجها وبقية آثارها ، فأذكر كلمة عن منارتيها العلويتين : الأولى فى جامع الجمعة والثانية فى جامع أبى دلف . إذ أن دائرة الآثار القديمة العراقية قد عنيت بترميمهما ورفع الأنقاض التى كانت قد دفنت قاعدتيهما المربعتين ، وإعادة المئذنتين إلى حالتهما الأصلية .

أما « ملوية » المسجد الجامع المعروف اليوم بجامع الجمعة ، فانها تقع خارج ضلع الجامع الشمالية على ٢٥ متراً منها ، وفى محور الباب الوسطى . وهى مئذنة مخروطية الشكل بوجه عام ، تستند إلى قاعدة مربعة ، يصعد إلى قمتها من سطح مائل عريض يدور حول بدنها من الخارج دوران الحلزون ويبلغ طول ضلع القاعدة ٣٢ متراً ، وقطر قبة الملوية ٦ أمتار ، ويبلغ علو المئذنة عن سطح الأرض ٥٢ مترا .

ويبدأ المصعد الحلزونى الذى يوصل إلى القمة ، من وسط الضلع الجنوبية ، أى التى قبالة الباب الشمالى للجامع ، ويدور حول بدن المئذنة باتجاه دوران الساعة ، خمس مرات ، إلى أن يصل إلى باب فى القمة ينفتح هو أيضا فى وسط الجبهة الجنوبية .

وينتهى أعلى المئذنة بغرفة صغيرة مدورة الشكل يبلغ علوها نحو ستة أمتار ، فى وجه جدارها ثمانى مشكيات صغيرة مذببة العقد ومقعرة السطح ، وتقوم إحدى هذه المشكيات مقام باب يفضى إلى داخل الغرفة ، ويوصل الى ذروتها بدرج حلزونى يدور داخلها حول محورها .

وقد عملت يد الطبيعة والزمان على تخريب أجزاء كثيرة من المئذنة ولا سيما قاعدتها التى كانت مدفونة كلها فى بطن الأنقاض ، فكان يظن أن المصعد اللولبى يبدأ من سطح الأرض ، فأزالت أعمال التنظيف هذا الوهم .

أما مئذنة جامع أبى دلف فمبنية بالآجر والجص ، وتشبه مئذنة جامع سامراء المعروفة بالملوية ، ولكنها أصغر حجما منها ، وتقع فى خارج الجدار الشمالى للجامع على ٩٫٥٠ أمتار منه ،

وفى محور الباب الأوسط فى هذا الجدار . قاعدتها مربعة الشكل تقريباً طول ضلعيها الجنوبية والشمالية ١٠,٨٧ م والشرقية والغربية ١٠,١٠ م ، وتعلو عن مستوى التطبيق ٢,٧٠ متراً ، ويزين وجوهها صف من مشكيات فى كل وجه ١٣ مشكاة ، ماعدا الوجه الجنوبى ففيه عشر مشكيات لوجود باب المصعد فى وسطه . ويرتفع القسم الحلزونى فوق القاعدة إلى علو ١٦,٢٥ متراً ، فيكون ارتفاع الملوية من مستوى التبليط حتى القمة المتهدمة نحو ١٩ متراً . ويبدأ الحلزون ، وهو مصعد المئذنة ، من يمين الباب ، ويدور ثلاث دورات كاملة باتجاه معاكس لدوران عقرب الساعة ، وعرضه نحو متر واحد .

هذا وأشكر حضراتكم على ما أوليتمونى من شرف الاستماع إلى هذا العرض الموجز لبعض المظاهر الفنية التى تسنى لدائرة الآثار فى بلادنا أن تكشف القناع عنها وتخرجها للنور صفحة ناصعة ، تذكر الحفداء بمآثر الأجداد .

التنقيبـــات الأثرية فى العراق

خلاصة محاضرة السير فؤاد سفر

لا يخفى ما للعراق من أهمية كبرى فى نشوء الحضارة العالمية الحاضرة ، ولا يضاهيه فى ذلك سوى مصر . فتاريخ العراق حافل بعهود الحضارة المجيدة ، إلا أن الزمن عفى على معظمه . ولم يكن يعرف منه قبل قرن من الزمن إلا النزر اليسير المدون فى تآليف اليونان والعرب والوارد فى الكتب المقدسة .

ولما أخذ الغرب فى نهضته وفى توسعه خارج أوربة زار بلاد الشرق الأدنى ومنه العراق عدد من السائحين ، فوصفوا آثاره الشاخصة ، ونقلوا إلى بلادهم من آثاره ما كان له هوى فى نفوسهم وتيسر لهم نقله ، ونشروا رحلاتهم ، فنشأت الرغبة عند غيرهم للاطلاع على شئون الشرق وماضيه .

وكان التنقيب الوسيلة الوحيدة لإظهار مافى باطن الأتربة ، إذ أن معظم المدن القديمة قد درست وأصبحت أطلالا تضم آثار السلف من منحوتات ومبان وكتابات . وهكذا بدأ التنقيب فى العراق نحو منتصف القرن التاسع عشر . وكان هدف المنقبين الأوائل فى أعمالهم أن يكشفوا عن آثار نفيسة يسهل نقلها إلى عواصم أوربة لتزين متاحفهم . فنقلت معظم آثار العواصم الآشورية كنينوى وخرصباد والشرقاط ونمرود ، وبعض المدن البابلية كمدينة لجش .

وفى الزمن عينه حلت الرموز المسمارية فقرئ ما دونه سكان العراق القدماء من أعمالهم ومعتقداتهم وعلومهم .

وكان أسلوب التنقيب فى بداية أمره حفائر وخنادق ضيقة فى النقاط التى ظن المنقب أنها غنية بالآثار . إلا أن ذلك الأسلوب البدائى تطور تدريجياً ونشأ

عنه التنقيب العلمى المنتظم الذى لم يعد الاهتمام فيه مقتصراً على الآثار القابلة للنقل ، بل شمل المبانى وطبقات السكنى والآثار الدقيقة وضبط المعاثر . وأول من أتقن هذه الطريقة العلمية هى البعثة الألمانية فى مدينة بابل فى بداية القرن الحاضر .

واتجهت عناية المنقبين فى الفترة بين الحربين العالميتين إلى الحفر فى مواطن آثار ما قبل التاريخ ، حيث لم تكن الكتابة معروفة ، وكانت الحضارة فى بداية أطوارها .

وتشكلت مديرية الآثار القديمة فى العراق بعد تأسيس الحكم الوطنى للمحافظة على آثاره والمساهمة فى حقل التنقيب ، فعملت على سد الثغرات التي أهملها المنقبون ، فشرعت فى عام ١٩٣٦ تحفر فى « سامراء » و « واسط » المدينتين الإسلاميتين . ثم نقبت فى « تل العقير » حيث كشفت عن معبد يرجع زمنه إلى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد ، كانت جدرانه مزينة برسوم ونقوش . وحفرت فى « تل حسونة » حيث عثرت على أقدام مستوطن معروف فى العراق ، ونقبت فى أطلال « الدير » وفى « عقرقوف » عاصمة الكشيين ، وفى « تل حرمل » وأماكن أخرى وانفردت المديرية فى سنى الحرب الثانية بأعمال التنقيب ، وكانت جهودها عظيمة ، حتى إنه لم تضارعها مؤسسة أخرى فى ما استحقت من تقدير الهيئات العلمية المختصة فى هذه البحوث .

أثر الفينيقيين فى حضارة الشرق

للأمير موريس شهاب

سادتى :

لعب الشعب الفينيقى دوراً هاما فى التاريخ ، إذ كان رسول الشرق نحو الغرب ، وقد حمل إليه حضارات الشرق السامية ، فساعد الغرب على الخروج من دياجى الظلام ، مشعاً عليه بتلك الأنوار الشرقية التى قادت به إلى عالم النور والحضارة .

لكن لن نطرق اليوم موضوعا أشبعه العلماء درساً ، بل نكتفى — ضناً بالوقت — بتحديد مركز الفينيقيين بين الدول الشرقية التى كانت ركناً للانسانية الناهضة ، والتى أصبحت اليوم تتحفز للوثوب فى العالم الجديد لاحتلال المركز السامى الذى أورثها إياه عن حق ما لها من الحضارة الراسخة في القدم .

منذ فجر التاريخ فى عهد يعود إلى أكثر من خمسة آلاف سنة ، تركّز الفينيقيون على الشواطئ اللبنانية والعلوية وفى الجبال المجاورة لها . وإن عمق الوديان وعلو الجبال والتطام الأمواج بأقدامها ، وكثافة الغابات فى أكنافها ، وتكليل الثلوج لهاماتها ، فصلت بين أجزاء البلاد الفينيقية المختلفة ، ووزعت السكان فيها جماعات جماعات ، فقسمتهم إلى دويلات وممالك تعيش عيشها الإدارى الخاص ، وتتكاتف وتتعاضد عند تدفق سيول الغزاة على أطرافها .

إنما ارتبطت هذه الجماعات بروابط معنوية قوية ألا وهى روابط العنصر واللغة والدين . وما الفينيقيون إلا فرع من الدوحة السامية ، يتراوح ويتهادى بين إخوته الفروع الأخرى ، من عربية وأكادية وعامورية وآرامية . هذا من حيث العنصر .

أما اللغة فهى كما تظهر لنا من أسماء الأعلام والمدن والقرى والنصوص العائدة إلى الألف الثانى لغة سامية على قرابة متينة مع غيرها من اللغات السامية .

وإذا بحثنا فى أصل الفينيقيين ، فانا نرى أن الاسم الذى أطلق عليهم اسم حديث العهد ، ولعله اسم فرعى انطبق على سكان البلاد من جبل الكرمل إلى مصب العاصى . وقل ماعرف الفينيقيون أنفسهم بهذا الاسم ، فانهم كانوا يعرفون بالكنعانيين ، وهم يؤلفون مع الكنعانيين الذين سبقوا العبريين فى أرض كنعان شعباً واحداً فصل بين أقسامه اتجاه أبنائه الطبيعى نحو الزراعة والإبحار .

وإن هذه الصبغة السامية فى الفينيقيين تسمح لنا بقبول تقاليدهم عن أصلهم، إذ كانوا ينسبون هذا الأصل إلى الجزيرة العربية ، عرين السامية فى العصور التاريخية .

عرف الفينيقيون بميلهم إلى الاجتهادات الدينية الروحية وباقبالهم على فلسفة الأمور الطبيعية وإدراك ما فيها من المغازى الالهية . وقد عبد الفينيقيون روح النبات بشكل إله شاب لقبوه بادونى أى سيدى . إله يقتله حيوان مفترس وتنبت من دمائه شقائق النعمان ، وينبعث من الموت بعد حين كالنبات الذى يموت فى فصل الشتاء ويعود إلى الحياة فى الربيع .

وقد نسب الفينيقيون مسرح هذه المأساة الإلهية إلى مدينة جبيل وما جاورها من الجبال المروعة والأنهار المتدفقة .

وها إن فى مصر منذ أقدم العصور إلهاً سيصبح يوماً من أكثر الآلهة تمصراً، ألا وهو الإله أوزيريس . هذا الإله يموت فريسة مناوئه الإله سيت ويقذف فى عباب اليم ، فتلقيه الأمواج على شواطىء جبيل ، حيث يلتف عليه غصن نضير ويصبح شجرة باسقة . وقد عادت إيزيس إلى مصر بهذه الشجرة وأحيت بعلها أوزيريس بحنانها الزوجى .

ولو ثبتت اليوم نسبة أساطير أوزيريس إلى عبادة أودنيس ، كما يرجح ذلك كثير من علماء تاريخ الأديان المصرية ، لرأينا فى هذا الأمر أول دور لعبه الفينيقيون فى تاريخ الحضارة الشرقية .

مرت القرون بالحضارة المصرية ، واتحدت كلمة المصريين ، فألفوا دولة عظيمة الشأن واسعة الأرجاء تمتد قلائد مدنها وقراها على شواطئ النيل .

وكان الفينيقيون فى ذاك الحين قد تركزوا على شواطئ البحر الأزرق ، فجذبهم بجماله الفتان، وامتطوا متنه بمراكبهم، وأعملوا فى مياهه مقاذيفهم، وبسطوا على سطحه أنسجة قلوعهم، فحملهم الإبحار الى البلاد المصرية أكبر الدول المجاورة لهم ، وقد اقتطع الفينيقيون لمصر من أحراجهم أخشاب الأرز الصلبة وجذوع الأشجار الباسقة ، فاستعانت مصر بهذه الخشب على إنشاء أبنيتها الأنيقة وصنع نواويسها الخالدة .

توثقت عرى التجارة بين الفينيقيين والمصريين، وأعجب المصريون بالمراكب الفينيقية الكبيرة ، فأطلق اسم جبيل المصرى على هذه المراكب ، وعرف ما يمخر منها عباب اليمّ بالمراكب الجبيلية أو كبنيت . وما لبثت المواد الفينيقية أن تسربت الى صميم الحياة المصرية . فكان المصرى يسعى إلى تخليد الروح بالمحافظة على الجسم مقرها ، ويلجأ الى التحنيط ومن مواده الأساسية صموغ أشجار لبنان .

إن هذه المساهمة لاقت عند الفراعنة حق قدرها ، فأغدقوا هباتهم على معبد جبيل وأجلوا آلهتها ، وأتحفوها بالآنية الثمينة منذ عهد حاسخا موى حتى عهد خوفو وخفرع ومنكورع ، وحتى عهد الفرعونين ببى الأول وببى الثانى .

* * *

فى أوائل الألف الثالث طرأت على العالم الشرقى أحداث هامة ، أثرت فى حياته السياسية ، فقوضت بعض الممالك والدول وأنشأت غيرها .

انتقل محور الحياة السامية إلى البلاد السورية الشمالية، وقامت فيها دولة العموريين تقوى وتنهض وتتدفق على شواطئ الفرات الخصبة . وقد اندفع العموريون بسيولهم إلى بلاد شمر وأكاد ، فأنشأوا فى أواسط البلاد العراقية تلك الدولة البابلية الأولى التى أنبتت حمورابى أقدم مشترعى العالم . وقد اتسعت الدولة العامورية ووليدتها الدولة البابلية من الخليج الفارسى إلى البحر المتوسط . ويظن أن طغيان العموريين وصل إلى البلاد المصرية ، ويعتقد البعض أن الأسرة الثامنة الفرعونية عامورية النسب .

على كلٍّ فى هذا العهد الذى تبلبلت به الهيئة الاجتماعية المصرية وثار به الشعب على الحكم الفرعونى المستبد ، نرى طلائع العامورين والآسيويين على مختلف عناصرهم السامية تتسرب زرافات ووحدانا إلى البلاد المصرية .

انقلبت الأمور على فرعون ، فتقلص ظل سلطته ، وضعفت هذه السلطة الإلهية ، وتقرب ابن الإله الشمس رع من البشر ، وخلق لهم شرائع تعترف بحقوقهم .

وهل بالإمكان أن تنكر ما للروح الشرقية من التأثير فى هذا التطور فى عقلية الفراعنة ، ونحن نرى ملوك البلاد السامية لا يدعون الألوهية بل جل ما يعتبرون أنفسهم أنهم كهنة للآلهة ، يتصدرون شعوبهم فى عبادتها ، وينشرون عدل هذه الآلهة على الأرض .

أما الدور الذى لعبه الفينيقيون فيتضح لنا من نقمة المصريين على من تغلغل فى بلادهم من الغرباء ، وعلى الشعوب الذين حاربوها فى بدء نهضتهم . ونرى فى صفوف هذه الشعوب أهل صور وجبيل وغيرهما من البلاد الفينيقية . وكان الفينيقيون فى ذلك العهد على اتصال وثيق بالشعوب العامورية ، والأسماء العامورية منتشرة فى بلادهم .

* * *

بعد ردح من الزمن استعادت مصر قوتها فى القرنين التاسع عشر والثامن عشر وعادت علاقاتها مع البلاد الفينيقية ، وقد وجدنا عدداً من مدافن ملوك جبيل من ذاك العهد ، فاذا بها تضاهى بغناها غنى مدافن الأميرات الدفينات فى دحشور ، وحلاها الكثيرة تأثرت إلى مدى بعيد بالفن المصرى .

أما معابد جبيل المعاصرة للمدافن فنراها حريصة على تقاليدها برغم تأثير الفن المصرى فى بعض التماثيل والأسلحة المخبوءة فيها .

وإن تخطيط المعبد بقى على الطريقة السامية التقليدية التى قل ما تميل إلى تجسيم صورة الإله ، بل تفضل الرمز إليه . فمعبد جبيل يشكل أرضاً مستطيلة تؤلف الأرض الحرام ويفصلها عن الخارج سور يحيق بها . وفى منتصف المعبد فى الهواء الطلق نصب يرمز إلى الإله ، وقد أنشئت حوله أنصاب أخرى شيدها تعبد المؤمنين ، ولا أحد منا يجهل

اللعنات التى صبها زمناً على المعابد الكنعانية أخوات المعابد الفينيقية أنبياء إسرائيل الموحدين ، وأن أنصاب جبيل أقدم مثال لتلك الأنصاب التى قضى عليها الإسلام فى مكة المكرمة .

عرفت جبيل فى القرنين التاسع عشر والثامن عشر عهداً من أحسن عهودها ، وكان الشعب الجبيلى على علاقات حسنة ، لا مع مصر وحدها بل أيضاً مع البلاد الشرقية إجمالا .

وإن ما وجدناه فى المعبد يدل على أن هذه العلاقات تعدت الأقطار السامية ، وأنها كانت كبيرة مع المناطق الشمالية ، حيث حل الآريون برحالهم ، ويستدل على ذلك من الخلاخيل الفضية والبرنزية التى كان يؤتى بها من جهات القفقاس .

إن ازدهار البلاد الفينيقية فى القرنين التاسع عشر والثامن عشر جذب إليها العناصر الآرية التى كانت قد تركزت فى آسية الصغرى وعلى الفرات الأعلى ، فاختلفت أسماء ملوك فينيقيا عما قبل ، واتخذت شكلا غير سامى ، وما لبثنا أن رأينا العناصر الشمالية تتدفق على هذه البلاد ، وتضم فى طريقها الشعوب التى بها ، وتتضخم بهذه العناصر الجديدة ، فتصبح نواة لغزوة تتدحرج بعجلاتها وخيولها ومشاتها على البلاد المصرية وتتركز فى مصر الشمالية ، ساحقة بسرعة انقضاضها المقاومة المصرية ، مخضعة مصر لحكمها . وأن البلاد الفينيقية ملأى فى هذا العهد بمدافن ذات أسلحة وخزف تتشابه كل الشبه مع ما اكتشف فى مدافن تل اليهودية فى مصر .

بعد احتلال دام قرناً ونيفاً تمكن المصريون من طرد الرعاة ومن التحق بهم من الشعوب من عبريين وغيرهم ، واحتل المصريون البلاد الشرقية الواسعة .

فى البلاد الخاضعة للواء فرعون وجد الفينيقيون عالما يتسع لملاحتهم ولقوافلهم التجارية ، فجابوا أنحاء هذه البلاد ، وحاكوا بين أطرافها شبكة تجارية متلاحمة الخيوط . فازدهرت تجارتهم ازدهارا كبيراً ، وأصبحوا أداة الوصل بين الأقطار المختلفة . ولم يبرز للفينيقيين من مزاحم فى عالم التجارة ، وخاصة فى عالم الملاحة ، سوى الشعب الإيجى الذى نشأ وترعرع فى بحر الأرخبيل وجزره وعلى شواطئه حول أوساط كنوسوس وميسين .

* * *

لهذه الحياة العملية التى حملت الفينيقيين على نقل بضائعهم المختلفة من قطر إلى قطر يتبادلونها مع الشعوب ولا يعودون إلى بلادهم إلا بعد معاملات كثيرة وأسفار شاقة ، لهذه الحياة رأى الفينيقيون أنفسهم بحاجة إلى طريقة سهلة للتعبير عن أفكارهم ولتدوين أعمالهم ، فدفعتهم الحاجة إلى اقتباس الطريقة الأبجدية .

وإن الكتابة الأبجدية الفينيقية ظهرت قبل القرن الثامن عشر ، إذ أن لدينا ، على بعض الحناجر والفؤوس والأوانى الحجرية المكتشفة فى جبيل والعائدة إلى هذا العهد ، بعض أحرف مبعثرة يلوح أنها أبجدية ، وإن أقدم نص لهذه الأبجدية هو النص المنقوش على أنفس قطع متحف بيروت ، أى على ناووس الملك أحيرام ملك جبيل فى القرن الثالث عشر .

* * *

لم يشرف القرن الثانى عشر ، إلا ورأينا العالم يتصدع فى جميع أجزائه . يتصدع فتنهار الحضارات العظيمة ، وتتدفق القبائل البربرية أمواجا أمواجا على البلاد الإيجية . فقضت على الحضارة الإيجية ، وزعزعت الدولة الحثية .

ولم تلبث عرى الدولة المصرية أن تفككت لانغماس المصريين فى النعم بعد توسع دولتهم ولمهاجمة اللوبيين والإيجيين للبلاد المصرية ، وقد انفرط عقد تلك الدولة العظيمة وتحولت إلى دويلات صغيرة فى أغلب الأحيان .

هذا ماحل بالعالم فى أواخر القرن الثانى عشر . دول عظيمة انهارت أمام القوى الغاشمة ، أو غرقت فى الملذات فتلاشت قواها ، وجهل عم بلاداً واسعة الآفاق كانت بالأمس من أمهات الحضارة . فى هذا الجو الذى حطمت فيه الدول الكبرى ، اندفعت الدول الصغرى من حدودها الضيقة ، فتسنى لبعضها أن تهيئ لنفسها بالعمل الجدى المركز الرفيع الذى يليق بجهودها وبروحها الوثابة . وإن فينيقيا التى كادت أن تخنق فى مهدها ، رأت السلاسل المحيقة بها تتحطم وتسقط إلى الحضيض ، فبسطت أجنحة سفنها ووثبت فى البحار نحو شواطىء إيجه حاملة إليها مشعل حضارتها وحضارات الدول الشرقية ،

منيرة غياهب الجهل الذى سادها ، ناقلة إلى سكان إيجه الجدد تلك البذور التى ستثمر ، وتساعدهم على تكوين الحضارة اليونانية التى استحقت أرفع منزلة فى العالم بحق .

فى نفس العهد تركز الفلسطو فى القسم الغربى الجنوبى من بلاد كنعان ، وهاجم العبريون هذه البلاد من الشرق ، وتلاحم العبريون مع الفلسطو وسادوا البلاد فى القرن العاشر .

لم يكد الأمر يستتب لداود فى القدس ، حتى حاول جمع شمل القبائل العبرية . فأنشأ الملكية العبرية ، واتخذ يروشليم عاصمة له ، وسعى لبناء معبد تلتف حوله قبائل العبريين المنتصرة . وأنى لهذه القبائل الحديثة فى الحضارة أن تنفذ رغبات ملكها داود ؟ فهى القوة الحربية ، لكن القوة الفنية تنقصها . لذلك وجه داود أنظاره إلى البلاد الفينيقية التى اعتادت البلاد المحتلة الكنعانية أن تستمد نورها ، وطلب داود من أحيرام أن يسعفه ، لا بالمواد وحدها ، بل بالبنائين والفنانين . ولم يكد سليمان يعتلى عرش أبيه ، حتى عاود الكرة لدى أحيرام ملك صور ، وشدد عليه الطلب . فلباه ، واحتل الفينيقيون مركزاً هاماً فى أعمال سليمان البنائية والعمرانية . وما عتم سليمان أن طلب من الفينيقيين أن يمرنوا أهل بلاده على أمور الملاحة ، وأن يساعدوه على إعادة الخطوط البحرية بين خليج العقبة وبلاد أوفير ، أى الحبشة . فكيف والحالة هذه لا تتأثر الدولة العبرية الفتية بالثقافة الفينيقية ؟ شعب مغلوب أرقى حضارة من الشعب العبرى المكتسح ، بلاد تخضع للقوة ، ولكنها تقوى على الغالب بثقافتها ، وتلمذته لها ، فيرغم الملك سليمان ، وهو ابن الملك التقى ، يرغم سليمان الذى يبنى معبداً لإله إسرائيل ، يرغم على إقامة معبد كنعانى يزدان بالأنصاب تقرباً من الكنعانيين ومن مبادئهم .

بعد موت سليمان ، انشقت الدولة العبرية إلى مملكتين : مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل . واتخذت مملكة إسرائيل عاصمة لها فى جهات نابلس الحالية . فاتصلت المملكة الجديدة اتصالا وثيقا بالفينيقيين ، وسعى ملوكها للتحالف مع ملوك صور ولمصاهرتهم ، ودخلت يزابيل ، ابنة ملك صور إيتوبعل فى الحرم الملكى ، فاستعاد الكنعانيون نشاطهم ، وقد اصطدموا بالأمناء للأفكار العبرية ، وعلى رأسهم إلياس النبى .

واكتسحت الأفكار الكنعانية الفينيقية ، حتى يروشليم عاصمة يهوذا ، عندما أصبحت عتليا بنة يزابيل ، ملكة لها بعد مقتل بعلها ملك يهوذا .

وفى القرن التاسع اشتدت قوة مملكة إسرائيل ، فاتصلت بمملكة دمشق ، ويملكها الآرامى خزائيل ، وأصبح هذا الملك يجارى ملك إسرائيل فى حقل الحضارة ، ويسعى سعيه لاستقائها من الفينيقيين . وحذا خزائيل حذو بلاطى يهوذا وإسرائيل ، وطلب من الفينيقيين أن يصنعوا له تختاً من العاج . وقد وجد هذا التخت وعليه كتابة بالأبجدية الفينيقية .

وانتقلت أيضاً هذه الكتابة إلى بلاد موآب حيث وجدت على نصب مشى . وما انتهى القرن إلا ورأيناها منتشرة عند الآراميين على آثار نيراب قرب حلب .

وبعد الاحتلال الآشورى بالرغم مما رافق هذا الاحتلال من العسف ، كنا نرى الفينيقيين أداة الوصل بين مصر والآشوريين ينقلون إلى بلاد آرام وبلاد آشور الطرق الفنية المصرية من زهيرات اللوتس ومظاهر بعض الآلهة .

وفى القرن السابع يستعين الملك الآشورى سنحاريب بالمراكب الفينيقية للملاحة على الفرات ، وقمع ثورة مردوخ فى بلاد الكلدان .

وفى العهد الفارسى نرى فينيقيا تلعب دوراً هاما فى تجارة الشرق ، فيصف النبى حزقيال ثورة صور وأعمالها قائلا :

« آرام تاجرتك بكثرة صنائعك ، تاجروا فى أسواقك بالبهرمان والأرجوان والمطرز والبوص والمرجان والياقوت . يهوذا وأرض إسرائيل هم تجارتك ، تاجروا فى سوقك بحنطة منيت وحلاوى وعسل وزيت وبلسان . دمشق تاجرتك بكثرة صنائعك ، وكثرة كل غنى بخمر حلبون والصوف الأبيض . ددان وياوان قدموا غزلا فى أسواقك . حديد مشغول وسليخة وقصب الذريرة كانت فى سوقك . ددان تاجرتك بطنافس للركوب . العرب وكل رؤساء قيدار هم تجار يدك بالخرفان والكباش والأعتدة . فى هذه كانوا تجارك . تجار شبا ورعمة هم تجارك ، بأفخر كل أنواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب

أقاموا أسواقك . حران وكنة وعدن ، تجار شبا وأشور وكلمد تجارك . هؤلاء تجارك بنفائس بأردية أسمانجونية ومطرزة ، وأصونة مبرم معكومة بالحبال مصنوعة من الأرزيين بضائعك » .

وفى القرن الرابع يقبل الفينيقيون على الحضارة اليونانية ويفاخرون بها . وبعد أن دوخ الإسكندر الشرق ودمر صور ، اقتبست البلاد الشرقية وفى طليعتها فينيقيا حضارة الغالب ، ولكنها لونتها بالألوان الشرقية ، فنشأت عن هذا التخضرم تلك الحضارة المعروفة بالهيلينية التى كانت من أجمل عهود الفكر والفن اليونانى ، وأثرت حتى فى تطور بلاد اليونان .

وبكلمة موجزة إن البلاد الفينيقية لعبت دوراً هاما فى البلاد الشرقية قد يكون أقل أهمية من الدور الذى لعبته فى البحر المتوسط . ولكنها كانت دائماً أداة الوصل بين الحضارات الكبرى ، تقارب بينها ، وتشد من أواصرها وعلاقاتها . وعندما تنفرد البلاد الفينيقية ، وتتملص من سيادة الدول الكبرى ، كانت ترفع مشعل الحضارات الشرقية الهاوى ، وتنير به سبل الرقى أمام الشعوب الناشئة .

القوانين الأثرية فى بلاد الشرق العربى

للأستاذ عبد الهادى حماده

سادتى وإخوانى :

ما كان لمتحدث أن يبدأ القول ، قبل أن يذكر ما تختلج به أفئدتنا جميعاً ، من آيات الثناء والشكر لحضرة صاحب الجلالة فاروق الأول ملك مصر والسودان ، ولحضرات إخوانه أصحاب الجلالة والفخامة ملوك ورؤساء الدول الشرقية الشقيقة ، الذين كان لهم الفضل الأول فى توجيه حكوماتهم الرشيدة ، إلى العمل على تحقيق أمنية طالما جاشت بصدور المفكرين من رجال الشرق العربى ، وهى توثيق الصلات بين الأمم الشرقية ، ووصل ما انقطع منها ، وبث روح التعاون والاتحاد فيما بينها ، بعد أن شتت شملها الظلم والطغيان زمناً مديداً ، وفرق كلمتها أيدى سبا . والاتحاد كما تعلمون ، أيها السادة ، قوة لا تقف فى سبيلها الصعاب الجسام ، ولا تصمد أمامها حادثات الزمن .

وهكذا أتيح للعاملين من رجال تلك الأقطار الاجتماع فى مؤتمرات عامة ، يتدارسون فيها نواحى النهضة الحديثة فى السياسة والعلوم والفنون والآداب . فعلى بركة الله نجتمع فى مؤتمر للآثار ، وكلنا آمال فى أن نكون أعضاء نافعين فى تلك الكتلة العربية الضخمة ، التى أخذت تتحرك لرفع شأن الشرق العربى ، وإعلاء كلمته واسترجاع مجده الغابر .

حقا إنه لتوفيق من الله عظيم ، أن نرى أبناء النيل وأبناء الفرات ، وإخوانهم السوريين وأبناء لبنان ، وقد اجتمعوا مع رجال الجزيرة واليمن وفلسطين حول مائدة

واحدة ، يعملون يداً واحدة وعين الله ترعاهم ، على توحيد كلمة تلك الأمم الشقيقة ، ويحققون أملا طالما داعب خيال المفكرين من رجال الشرق العربى ، كى يروا أبناء تلك البلاد ، وقد وقفوا جنباً إلى جنب كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً ، متضافرين متساندين ، لا متخاذلين ولا متنابذين ، كما هى حال الدول الأخرى الآن . فان هم تنافسوا ، فانما يتنافسون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، ويتسابقون إلى العلم والمعرفة بمحبة وإخلاص ، فى ظل راية للسلام موطدة الأركان ، خفاقة فى ربوع الشرق .

والدول الممثلة ها هنا هى صفوة أمم الشرق العربى ، مهد الحضارة القديمة ، حيث انبعث أول قبس من نور الحياة البشرية ، ودوى صوتها ينبىء التاريخ برفع الستار عن أول دور من قصة الإنسانية ، فيسجل التاريخ فاتحة ذلك السفر الجليل للحضارة الأولى على أديم هذا الشرق . ومن تلك الحضارة نهلت أمم الغرب ، وعنها نقلت معظم ما عرفته من الفنون والصناعات والأديان .

وقد خلفت تلك الحضارة للعرب تراثا خليقاً بأن يفاخروا به ، وأن يحرصوا عليه ، وهم أجدر الناس باحياء تاريخهم القديم على أسس من العلم الصحيح . والأمم ، كما تعرفون ، لا تستطيع أن تنهض نهضة حقة ، إلا إذا فهمت ماضيها أحسن الفهم ، واتخذت منه فى حاضرها قنطرة إلى المستقبل .

قد يكون حقا أن الغربيين حازوا قصب السبق فى الاهتمام بتاريخ الشرق العربى القديم وآثاره . وقد ننسب إلى بعثاتهم الفضل فيما تكشف من آثار تلك الحضارة المندثرة ، ولكننا سنظل نذكر استئثارهم بالكثير لأنفسهم ، فما كانوا بالمعلمين الأمناء ، وزادوا على ذلك قولهم : إن الشرق جاهل مستضعف ، يقصر بنوه عن المجاراة فى هذا المضمار ، وهو بحاجة إلى من يتولى العمل عنه ، وقد ابتغوا من وراء هذا القول السيطرة والفخر ، وأن يمدوا فى الوقت نفسه بلادهم بما تصل إليه أيديهم من تراث تلك البلاد . إذن لقد حق علينا أن ننهض للذود عن سمعتنا وعن آثارنا . وتوثيق الصلات بين دول الشرق العربى هو خير ما يعين أبناءها على صيانة آثارهم وعلى فهم تاريخهم ، فهو يؤهل

كل قطر منها أن يكون فكرة صحيحة عن حضارة ما يجاوره من الأقطار ، ولاسيما أن معظم حضارات تلك الأمم ، إنما يكمل بعضها بعضاً ، فهى وثيقة الارتباط منذ أقدم العصور .

فلما أذن الله أن يلتئم شمل الأقطار العربية تحت راية جامعة الأمم العربية ، أخذت الجهود تتوالى فى سبيل زيادة التعارف ، وتنمية العلاقات بينها فى شتى النواحى السياسية والاجتماعية والثقافية ، وفى تقريب وجهات النظر وإزالة كل عنصر للخلاف . ومن هنا بدأت آراء العاملين من رجال تلك الأمم تتجه إلى العمل على توحيد القوانين بالأقطار الشقيقة . وقوانين الآثار فى مقدمة القوانين التى يحتاج الأمر لبحثها والعمل على توحيدها أو التقريب بينها .

وسواء أكانت تلك الآثار راجعة إلى عصور سحيقة قبل المسيح ، أم كانت راجعة إلى العصرين المسيحى والإسلامى . فان الغرض الذى تتوخاه من توحيد التشريعات الخاصة بها ، هو بذل الجهود الموحدة للمحافظة عليها وصيانتها من جميع الوجوه ، وذلك بالتآزر بين الدول الشرقية ، للضرب على أيدى العابثين بها ، ولتنظيم أعمال الحفر والتنقيب ، ووضع القيود لمنع تسرب آثار الشرق إلى خارج بلادها بطرق غير مشروعة ، وكف مطامع الأجانب فيها ، ووضع قواعد لتداول الآثار الموجودة فى الأسواق ولدى الهواة . وتضييق الخناق على التجار المتلاعبين ، والأخذ بناصية الخارجين على القانون منهم ، وعلى العموم تنبيه دول الشرق كافة إلى ما لآثارهم من قيمة عظيمة .

نحن لا ندعى أن الشرقيين كانوا حريصين منذ زمن بعيد على آثار بلادهم . فانه فضلا عما أصاب الآثار القديمة فى الشرق العربى من التشويه والتدمير ، بداعى التعصب الدينى فى الأزمان الغابرة ، كانت الثقافة الأثرية فى بلاد الشرق العربى ضئيلة محدودة حتى أواخر القرن الماضى ، وكان الجهل فاشياً بين الطبقات الدنيا ، نتيجة تلك السياسة التى رسمها المسيطرون على تلك البلاد . فلا غرابة أن كان الفلاحون فى مصر مثلا ، لا يتورعون عن تشويه أثر جميل كى يبيعوه بدراهم معدودة ، ولا سيما أنه كان من ورائهم محرضون أثمة من تجار الآثار وأذناب الهواة من الأوربيين ،

أضف إلى ذلك أن السياح الأجانب كانوا يفدون إلى البلاد العربية بكثرة ، ومعظمهم مشغوف بالحصول على بعض الآثار ، وكانوا يلجأون فى ذلك لكل الطرق ، مما زاد فى طمع التجار والوسطاء وشجع الأهالى الجهلاء على أن يعملوا فؤوسهم فى التلال الأثرية والأبنية القديمة ، فلما بلغ السيل الزبى وأضحت الآثار نهباً للجميع ، وانكشف سوء الأمر لأهل البلاد ، وتنبهوا إلى مقدار ما أصاب بلادهم من الخسارة العظيمة بضياع آثارها وتدميرها ، لم يكن هناك بد من وضع قوانين للآثار فى بعض بلاد الشرق العربى ، ولكن جاء معظمها ناقصاً مبتوراً حيث روح التشريع تساير هوى ذوى الأغراض ، وتنأى عما فيه صالح البلاد .

فمن مساوئ بعض تلك القوانين أنها أحلت الاتجار بالآثار ، تراث الشرق العربى الخالد ، على نطاق واسع ، فجعلت منها سلعة رخيصة بالأسواق . وكان من أثر ذلك استمرار اللصوص فى الحفر خلسة ، ونهب الآثار كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، ليقدموها لقمة سائغة للتجار الجشعين . وبلغ الأمر بهؤلاء المجرمين إن هم وجدوا تمثالا وخشوا المفاجأة وتعسر عليهم نقله ، أن يكتفوا بالرأس فيطيحوا به ، وزاد الطين بلة أنه إذا تعذر على التجار العثور على آثار حقيقية ، زيفوا آثاراً وتفننوا فى إتقانها إتقاناً عظيما ، حتى سقطت قيمة التحف الفنية ، واختلط الغث بالثمين ، وأصبحت الآثار مبعث الاعتزاز والفخر موضعاً للشك والريبة .

وأجازت بعض تلك القوانين للبعثات الأجنبية الحفر فى بلاد الشرق العربى للبحث عن الآثار بشروط اسمية لم تنفذ ، وترك الأمر والنهى لتلك البعثات ، فلا رقابة عليها ولا إشراف على أعمالها ، وقد فرضت فى أعضاء تلك البعثات ومساعديهم وتابعيهم الأمانة المطلقة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . ولا داعى لأن نذهب بعيداً بحثاً عن صحة ذلك ، ويكفى أن نضرب مثلا برأس نفرتيتى ، وكيف نقل إلى برلين ، ففى ذلك عبرة لمن يعتبر . وكان من جراء ترك الحبل على الغارب لتلك البعثات أيضاً ، أن قام بعضها بحفائره بطرق لا تمت بصلة إلى الأساليب العلمية الصحيحة للحفر ، فتركوا

المناطق الأثرية فى حالة يرثى لها ، ذلك لأنهم رغبوا فى الوصول إلى مايبتغونه من الآثار أو مواد الدراسة والنشر من أقرب السبل .

نحن لا نغمط حق الكثير من البعثات العلمية فيما قامت به من الأعمال الجليلة فى سبيل الكشف عن الآثار وتقدم البحوث التاريخية . ولا تنكر على بعض أعضائها ما تحلوا به من الأمانة والإخلاص فى العمل ، ولا ما عرف عنهم من الكفاية والخبرة . ولكننا لن نترك أمر آثارنا للظروف والمقادير ، ما دامت الأقلية منهم قد ضربت لنا شر الأمثال . والآثار تراث عظيم وعهدة فى أعناقنا للأجيال المقبلة ، فهى ميراث الحفداء عن الأبناء ، ما كان لنا أن نفرط أو نتهاون فى شىء منها ، وهى السجل الخالد لحضارة أمم الشرق العربى .

لن نؤخذ بعد الآن بأساليب الغرب ، ولن نخدع بما يقولون ، كقولهم إن آثار الشرق الأدنى ، هى كتب الحضارات الأولى للانسانية جميعا ، ومرجع لدراسة تقدم التفكير البشرى ، فهى إذن ليست ملكا خالصاً لدولة بذاتها ، بل هى مشاع للعالم أجمع يحق لجميع الدول أن تتدخل فى أمرها ، وتشترك فى صيانتها ، وجعلوا من ذلك مبرراً للتدخل فى شئون هذا الشرق . أما أنها سجل للحضارة العالمية ، فلا مراء فى ذلك وهذا ما نعتز به ونفخر . أما أن يكون لدولة أجنبية الحق فى أن تدس أنفها فى شئوننا ، فهذا ما لا نقبله ولا نرضاه . ومن أساليب أقوالهم أيضاً أن عرض آثار الشرق بمتاحف العالم ، إنما هو دعاية طيبة لعظمة الشرق الأدنى وحضارته العريقة . وما كان ذلك القول ليغرينا على التفريط فى آثارنا . وهل تسلم فرنسا مثلا بنقل أحد لوحاتها التاريخية من اللوفر ، لكى يعرض بمتحف القاهرة أو بمتحف بغداد ، مع مافى ذلك من الدعاية الواسعة لفرنسا وفنها العريق ؟ لاريب أنها لن تفعل . ومع ذلك فلا ضير على دول الشرق العربى مساهمة منها فى نشر الثقافة الأثرية ، أن تمد المتاحف الأجنبية ببعض آثارها ، ولن تضن متاحف الشرق العربى عليها بآثار قد تستغنى عنها أو يكون لديها منها أمثلة كثيرة . أما الآثار النادرة وذات القيمة التاريخية ، فاننا نعض عليها بالنواجذ ، فمتاحف الشرق أحق بها وأولى .

وقد شاء الله القدير أن يبرز الآن فى الشرق العربى رجال ضربوا بسهم وافر فى الثقافة ، وتعمقوا فى دراسة التاريخ والآثار بفروعها ، ومارس بعضهم الحفر سنوات كثيرة ، وقد نصبوا أنفسهم لخدمة بلادهم وبلاد الشرق العربى كافة . ولكنهم برغم مابذلوا من جهود فى سبيل الذود عن آثارهم ، أخفقوا فيما يبتغون من إصلاح ، بسبب تلك التشريعات البالية التى وقفت حجر عثرة فى سبيلهم . فقوانين بعض البلاد العربية ، لا تزال توسع صدرها ، وتساهم فى شحن آثار البلاد عبر البحار ، وتحرم منها متاحف البلاد ، كى تضفى رونقا على المتاحف الأجنبية .

والآن وقد تبين لنا أن معظم قوانين الآثار فى البلاد العربية الشقيقة ، أضحت فى حاجة إلى التعديل ، كى تساير أحوالها الحاضرة بعد أن استيقظ الوعى القومى ، وتفتحت عيون أبناء الشرق العربى ، وبعد أن تحطمت القيود ، وانحسر كابوس السيطرة والاستعباد ، فقد أصبح لزاما على دول الشرق العربى ، سواء ما كان منها ذا قانون أو كان لم يقنن بعد ، أن تتعاون على وضع أسس ثابتة للأغراض التى ذكرنا فى قانون موحد أو قوانين متقاربة ، تهدف إلى غرض واحد ، هو صيانة آثارها ، مبعث فخارها وسجل تاريخها ، والصلة بين ماضيها المجيد ومستقبلها المنشود .

وقد شعرت مصر فى الآونة الأخيرة أن قوانين الآثار بها ، سواء ما كان خاصا بالآثار القديمة أوما كان موضوعا للآثار الاسلامية ، قد أصبحت لا تلائم الزمن الحاضر ، فصح عزم ذوى الرأى فيها على أن يضعوا تشريعاً جديداً وافياً بالغرض . ولسورية ولبنان الشقيقتين قانون صادر عام ١٩٣٥ فى أحوال مختلفة كل الاختلاف عن أحوالهما الحاضرة ، وهو لا يفضل قوانين مصر . أما قانون العراق ، فقد وضعه رجالها الأفذاذ عام ١٩٣٦ ، وهو أفضل القوانين الشرقية ، غير أنه أيضا بحاجة إلى التمحيص والمراجعة ، كى يساير فكرة التوحيد التى نعمل على تحقيقها .

وقد يتردد الباحث متسائلا : هل يقتضى الأمر أن يكون هناك قانون واحد لجميع البلاد الشرقية الشقيقة ، أو يكون لكل دولة منها تشريعها الخاص ، على أن تكون هناك

أسس مشتركة يحتم أن يتضمنها تشريع كل دولة . ولما كانت الأقطار العربية متفاوتة من حيث الثروة التى تساعد على الاهتمام بالآثار اهتماما مثمراً ، ومن حيث درجة الثقافة الأثرية ، وفى بعضها لا تزال المناطق الأثرية بكراً تبشر بوجود آثار كثيرة وتحتاج لجهود هائلة ، وهى كذلك مختلفة من حيث طبيعة تلك المناطق ، ووسائل حراستها وصيانتها ، وأنواع الآثار بكل قطر منها ؛ فقد يكون من المتعذر أن ينطبق قانون واحد على جميع تلك الحالات المتباينة . ويحسن فى هذه الحالة أن يكون لكل دولة قانونها ، الذى يشمل المواد المشتركة ، مع ترك الأمر لها فى اتخاذ أساليبها الخاصة ، فى معالجة الأمور التفصيلية والإجراءات الإدارية والمالية ، حسبما يلائم أحوالها . والأمر فى ذلك مفوض لهيئة لجنة القوانين الموقرة .

وأول تلك المواد المشتركة ، هو المحافظة على الآثار من العبث والهدم والتشويه والسرقة والتهريب ، ومنع الاعتداء على المناطق الأثرية والحفر بها خلسة ، ووضع العقوبات الرادعة لمن يقترف شيئاً من ذلك ، ومن أهم مايجب بحثه فى هذه المادة موضوع ملكية الآثار العقارية ، وهل يظل للفرد حق تملكها ، ويكفى لصيانتها نظام التسجيل الذى أخذت به قوانين الآثار فى عدة دول شرقية ، أو يحتم أن تنزع الدول ملكية كل الآثار العقارية ، وتضيفها لجانب الحكومة ضمانا لحفظها من الاعتداء والتلف ، إن هى تركت فى حوزة الأفراد ، كما دلت التجارب وحدث فعلا برغم العقوبات المقررة لذلك . وباب هذا الموضوع مفتوح للبحث فى لجانكم الفنية . فان لم يؤخذ بالشطر الثانى لأسباب هامة ، قد تجعل تنفيذه متعذراً ، فلا أقل من أن نحيط ذلك فى القوانين بسياج من الحذر والحيطة لصيانة الآثار ، وأن نقرر عقوبات صارمة للأفراد الذين يتهاونون أو يعتدون على الآثار التى فى حوزتهم .

ويحسن أن يستتبع هذه المادة من القانون أيضاً النص على حق كل دولة من دول الجامعة ، فى استرداد أى أثر يكون قد تسرب منها بطريق غير مشروع إلى دولة أخرى من دول الجامعة . ولما كان القانون العام لا يشمل هذا الحق ، فلذلك يتعين إثباته فى القانون المشترك .

والمادة الثانية تعنى بشئون البحث عن الآثار ، والقواعد اللازمة لأعمال الحفر ، ومنع الحفر خلسة . ويتضمن ألا يجوز عمل مجسات أو حفائر أو كسح أتربة من المناطق الأثرية للبحث عن آثار ، ولو كانت الأرض ملكا للفاعل، ما لم يكن بيده رخصة صادرة من السلطات المختصة . ولا يجوز إعطاء هذه الرخصة إلا للعلماء المكلفين من الدولة بهذا العمل ، أو للبعثات والهيئات التى توصى بها الجامعات والمتاحف العالمية ، على أن تكون محدودة الزمان والمكان ، وبشروط منها الكفاية والقدرة على التنقيب من الوجهتين العلمية والمالية ، وأن يتعهد المرخص له بابقاء الآثار العقارية وبقاياها وكذلك الآثار المنقولة الضخمة فى أماكنها الأصلية ، أو بردها إليها إذا نقلها أثناء الحفر وأن تكون الآثار الناتجة من أعمال التنقيب كلها ملكا للدولة ، مع جواز النزول عن جزء منها مكافأة للجامعة أو المتحف الذى تقوم البعثة بالعمل لحسابه . ولكن يشترط أن تكون الآثار التى ينزل عنها من المكررات ، وألا تكون من الآثار النادرة ، أو التى تدخل ضمن المستندات التاريخية لحضارة الدولة أو الدول الشرقية أو تكون لازمة لإحدى دول الجامعة لتكملة مجموعاتها . وينبغى أن توضع الاحتياطات اللازمة لضمان تنفيذ شروط الرخص .

ونود أن نذكر هنا أن بعض الحريصين على آثار بلادهم من رجال الشرق العربى يرون منع البعثات الأجنبية بتاتاً من مباشرة الحفر فى بلادهم ، كما هى الحال فى بعض الممالك ، غير أن معظم المعتدلين من المعنيين بشئون الآثار ، يحبذون السماح للهيئات الأجنبية بالحفر والتنقيب، ويرون فى ذلك فوائد جمة تعود على البلاد ، منها المعاونة فى الكشف عن الآثار الكثيرة التى لا يخلو منها بلد من بلدان الشرق العربى والتى تعجز ميزانية تلك البلاد عن تحمل أعباء استخراجها ، ومنها المساهمة فى دراسة تاريخ حضارة بلاد الشرق العربى دراسة وافية والنشر عنها نشراً علمياً فذاً ، بوساطة علماء خصصوا أنفسهم لذلك ، وقضوا سنوات كثيرة يمارسونه بمهارة وخبرة ، ولا سيما أن بعض بلاد الشرق لما تبلغ بعد الدرجة المطلوبة فى الثقافة الأثرية التى تستطيع معها مباشرة هذا العمل بنفسها على الوجه الأكمل . والبت فى ترجيح أحد الرأيين متروك للجان المؤتمر ، على أننا لو أخذنا بالثانى

من الرأيين لحتم علينا أن نضع لتلك الرخص الشروط اللازمة لضمان سلامة الآثار وحفظ المناطق الأثرية ، ولا يكون ذلك إلا بتعيين موظفين فنيين من الوطنيين ، لملازمة البعثات القائمة بالحفر ، وقانون العراق أوفى القوانين فى هذه الناحية .

ولقد لوحظ أن حراسة المناطق الأثرية فى وقت العمل ، والمحافظة على الآثار التى يكشف عنها ، من الصعوبة بمكان على رجال البعثات الأجنبية لعدة أسباب . ويحدث من جراء ذلك أن تتسرب الآثار ، وتظهر فى الأسواق ، ويتبع ذلك إشاعة وضجة ، تسىء سمعة البعثات نفسها . وقد حاولت بعض الحكومات الاكتفاء بالتفتيش الدورى على أعمال البعثات ، تنفيذاً لما نص عليه فى قوانينها . ثم أهمل هذا أيضا شيئاً فشيئاً ، لما ظهر فيه من الغضاضة فى نظر رجال البعثات . وهكذا أصبح لا ضمان لتنفيذ الشروط الواردة فى رخص الحفر ، سوى الثقة المطلقة بالبعثة القائمة به .

والثالث يتعلق بتجارة الآثار . والحقيقة أنه نجم عن السماح بتجارة الآثار وتداولها بيعاً وشراء ، ضرر عظيم حاق بالبلاد . فتجارها يثرون أكثر من تجار المخدرات ، إذ أنها ذات قيمة عظمى ، وهواتها ثراة يدفعون فيها أثمانا خيالية . مما كان سبباً فى تهافت الكثيرين على مزاولة تلك التجارة محاولين الحصول على الآثار بالطرق المشروعة وغير المشروعة ، محرضين الأهالى على أن يعملوا معاولهم فى المناطق الأثرية فى غفلة من الحكومات ، وأن يهشموا نقوش المعابد والمقابر ، كى يقدموها لقمة سائغة لهم .

كذلك الحال فى حيازة الأفراد للآثار تحت ستار «الهواية» ، فهى أشد ضرراً بصالح البلاد . ومعظم هؤلاء الذين نعتتهم القوانين بالهواة إنما يتخذون من تلك الصفة ستاراً للاتجار ، والهواة الحقيقيون منهم يعملون ما يعمله زملاؤهم التجار من التحريض على سرقة الآثار والحفر خلسة لاستخراجها إشباعا لهوايتهم .

على أن حيازة هؤلاء للآثار هى نوع من أنواع الاحتكار ، لا يقره الصالح العام ، إذ أن هذه الآثار تصبح محبوسة لمتعتهم الخاصة ، فلا هى معروضة للجمهور للتمتع برؤيتها كما يتمتع برؤية الآثار الأخرى المعروضة بالمتاحف ، ولا هى فى نطاق البحث العلمى العام .

بسبب ذلك كله اتجهت الأفكار الآن إلى وقف تجارة الآثار ، والحد من حيازتها للهواية ، ووضع القيود على تداولها كسلع ، ثم تنظيم أمر الآثار الموجودة فى الأسواق أو لدى الهواة ، تنظيما يكفل الانتفاع بها بطرق مشروعة ، ولذلك سبيلان : أولها تسجيل الأثر تسجيلا يلازمه فى انتقاله من يد إلى أخرى . وهذا ما أخذ به قانون العراق الشقيق ، بالرغم من أنه لا يخلو من صعوبة قد تتجسم فى مصر ، لكثرة الآثار المتداولة فى الأسواق أو لدى الهواة ، مع قلة أهمية معظمها ، ولا سيما أن هناك آلافاً منها صغيرة متشابهة بعضها مزيف وبعضها مشكوك فيه . والسبيل الثانى أن يقوم كل من لديه آثار بتقديم بيان مفصل بها ، مع وصفها وصفاً ينفى كل التباس بينها ، إلى مصلحة الآثار المختصة التى تقر هذه البيانات وتصدق عليها ، على أن تخطر المصلحة بكل مايستجد لدى التاجر أو بما يتصرف فيه من بضاعته .

وقبل أن أنهى كلمتى ، أود أن أوجه النظر إلى خطر تزييف الآثار ، فقد بلغ من الكثرة إلى درجة تهدد الآثار الحقيقية ، وما يرادفها ، واستمرار تزييف الآثار هكذا يتعارض مع الرغبة فى الحد من تجارتها . إذ يتعذر الأخذ بناصية التاجر المتلاعب ، إن هو خلط بين الآثار الحقيقية والمزيفة ، ويتخلص من العقاب بهذه الوسيلة . إن بعض قوانين البلاد الشرقية قد منعت تزييف الآثار ، أما تقليدها لأغراض علمية أو فنية فممكن السماح به ، وهذا ما يجب أن تشمله القوانين جميعاً .

وإنى على استعداد لتقديم جميع ما يلزم من البيانات والتوضيحات فى هذا الموضوع إلى اللجنة المختصة ، راجياً أن يوفق حضرات أعضاء المؤتمر كل التوفيق فى هذا الموضوع لصالح جميع دول الجامعة . والسلام عليكم ورحمة الله .

علاقة مصر بشعوب الشرق القديم
فى عصور فجر التاريخ

للدكتور عبد المنعم يوسف أبو بكر

لقد برهن العلم الحديث أن الإنسان كان يعيش على وجه الأرض فى عصور تسبق بآلاف السنين تلك التى استطاع علم الآثار أن يحدد فيها بعض الحقائق عن حياة الإنسان الأول بواسطة المخلفات البشرية .

ويقسم العلماء تاريخ الأرض إلى خمسة عصور ، ظهر الإنسان فى آخرها ، وهو العصر المعروف بعصر البليستوسين (Pleistocene) ويمتاز هذا العصر بوجود أحوال مناخية تختلف عما يسود العالم الآن . فالجليد كان يكسو أوربة ، على حين كانت أقاليم البحر الأبيض المتوسط الجنوبية تتمتع بما يشبه جوّ أوربة الحالى ، فنعمت من جراء ذلك بثروة نباتية هيأت بيئة تصلح لحياة قطعان من الحيوان ، كالوعل والنعام والأغنام والأبقار الوحشية .

وكانت حياة إنسان ذلك العصر تتركز فى محاولة قنص الحيوان والتقاط الثمار ، وهى حياة لاتدفع إلى الاستقرار ، فلجأ إلى الكهوف يعيش فيها بعض وقته ، ودفعته الحاجة إلى استعمال ما تحت يده من الظران والحجارة فحولها إلى أدوات بدائية تفى بالغرض الذى يسعى إلى تحقيقه من الدفاع عن نفسه ضد الضوارى ومحاولة صيدها . ويسمى هذا العصر بالعصر الحجرى القديم ، وهو عصر لم يعرف الإنسان فيه الاستقرار ، كما قدمنا ، ومن ثَمَّ لم يحترف الزراعة .

وتشابهت حضارة الإنسان الأول الذى عاش فى ذلك العصر فى جميع المناطق التى عثر فيها على مخلفاته ، فالآلات المتخذة من الظران التى استعملها الإنسان فى مصر هى بعينها الآلات التى استعملها إنسان سورية وبلاد ما بين النهرين .

وبانقضاء عصر البليستوسين المعروف أيضاً بالعصر المطير ، انقضى الدور الأول من حضارة الإنسان ، وحل عصر الجفاف الذى دفع بالإنسان إلى السهول والوديان حيث تتوافر المياه . ولا غرابة فى ذلك ، إذ أن الأماكن التى كان يسكنها بدأت تجف وتتحول إلى صحارى ، وهجرها الحيوان . وأخذ الانسان يحاول الاستفادة من البيئة الجديدة التى حولته إلى ناحية الزراعة ، ومن ثمة إلى الاستقرار ، وبدأ الناس يتجمعون فى أوطان صغيرة ، فحلت الوحدة الإقليمية الثابتة محل الوحدة القبلية المتنقلة ، وتألفت جماعات من الناس ارتبطت حياتهم بالأرض ارتباطاً وثيقاً يدافعون عنها ويحاولون توسيع رقعتها باغتصاب ما يجاورها . وهذا هو ما نسميه بالعصر الحجرى الحديث الذى يمتاز أكثر ما يمتاز بالاستقرار ، وبأن كل شعب أخذ يتأثر بالبيئة المحيطة به ، ومن ثم بدأت تظهر فروق واضحة المعالم بين الحضارات المختلفة فى شعوب الشرق القديم، فطبعت كل بيئة حضارة شعبها بطابع خاص يتفق مع مقتضيات الحياة فيها .

وقد اعتمدت مصر — وهى الواحة الممتدة فى شريط ضيق لا يزيد أعرض أجزائه عن أربعة عشر ميلا من الشرق إلى الغرب — اعتمدت الاعتماد كله على نيلها الذى هو نعمة يهب الحياة والنماء لأهلها وزرعها ، ونقمة إذا ما فاضت أمواهه أهلكت الحرث والنسل. فكان النيل لذلك من أهم الأسباب التى دفعت المصريين إلى الاتحاد ، إذ اضطروا منذ فجر التاريخ إلى العمل متحدين على تنظيم شئون الرى ومتعاونين على حماية قراهم من خطر الفيضان . ولذلك كانت مصر هى الأمة الأولى بين أمم الشرق القديم التى نعمت منذ أول تاريخها باتحاد كامل تحت حكم ملك واحد .

أما سورية وبلاد ما بين النهرين فقد امتدت السهول فيها امتداداً واسعاً ، فظهرت فيها دويلات المدن (City States) التى هى عبارة عن مدن كبيرة يتوسط كلا منها معبد الإله ولكل منها حكومة مستقلة على رأسها أمير ، هدفه الذى يسعى إليه هو أن يزيد مساحة الأراضى المزروعة المحيطة بمدينته حتى تزداد ثروته ومن ثم قوته . ولقد كان يحدث أحياناً أن يتغلب أحد هؤلاء الأمراء على أمير مدينة مجاورة فيضمها إليه، كما وقع ذلك بالفعل

بالنسبة إلى الملك (Eanatum) ملك « لجش » الذى هزم كلا من أميرى أود وأروك وكذلك الملك (Lugal-Zaggisi) الذى يغلب على الظن أنه تمكن من تشييد مملكة مترامية الأطراف حوالى عام ٢٨٠٠ ق . م[١] . ولكن هذه الانتصارات كانت مؤقتة عاشت مع أصحابها ودفنت معهم . ومن الثابت أن بلاد ما بين النهرين لم تعرف الملكية الموحدة إلا فى عصر متأخر .

ويجد المؤرخ نفسه أمام عقبات كثيرة ليس من السهل التغلب عليها إن هو حاول أن يحدد عصور فجر التاريخ فى مصر وأمم الشرق القديم بالنسبة لبعضها البعض ، فانه لا يملك نقوشاً مكتوبة تعاونه على هذا التحديد ، بل كل ما لديه مخلفات بشرية من مثل الأوانى الفخارية والآلات الظرانية وأدوات الزينة . وهذه ليست كافية لتحديد هذه العصور ، وهى إن دلت على شىء فانما تدل على تشابه حضارة إنسان ما يعيش فى منطقة معينة ، وحضارة إنسان آخر يعيش فى منطقة أخرى ، كما أنها تدل أيضاً على تتبع انتقال هذا الإنسان ومعه حضارته من منطقة إلى أخرى . وتبعاً لذلك فانه من العسير أن نجزم برأى قاطع : أى شعوب الشرق القديم أقدم ؟

ولقد استمر هذا السؤال موضع جدل بين علماء الآثار ، ولم يخرجوا من هذا الجدل برأى قاطع ، بل ذهبت كل فئة منهم تعنى بدراسة شعب معين إلى أن شعبها المختار هو أقدم الشعوب حضارة . على أننى أميل إلى الاعتقاد بأن الشعب الذى سكن منطقة بلاد ما بين النهرين الجنوبية هو الشعب الوحيد الذى يمكن أن نرجع بتاريخه إلى عصر يعادل عصر فجر التاريخ فى مصر ، وهو شعب « شومير » الذى عاش فى الدلتا التى تكونت شمالى خليج فارس ، والتى ساعد على تكوينها انحسار مياه البحر عنها بتراكم الغرين الذى أرسبته مياه دجلة والفرات . ولقد اتخذ إنسان شومير فى أول أمره لسكناه أكواخا عالية من الغاب أقامها على قواعد من القصب ، كى يتقى المستنقعات التى كانت تزخر بها هذه المنطقة . ولقد كانت وسيلة انتقاله بين هذه الأكواخ قوارب صغيرة صنعها من القصب كذلك .

---

(١) Junker-Delaporte : Völker des Antiken Orients (1933) Page 207.

ولكن إذا كانت هذه المنطقة بصورتها التى نعرفها لم تكن صالحة للحياة قبل تكوين الدلتا المذكورة ، فمن أين أتى شعب الشومير ، وإلى أى جنس ينتمى ؟ لقد ظن أولا أنهم ساميون ، ولكن عدل عن هذه النظرية عند ما تبينت الفروق الواضحة بين جماجمهم وجماجم الساميين ، والنظرية التى استقر عليها رأى العلماء أخيراً [١] هى أنهم ينسبون إلى شعوب كانت تسكن أفغانستان ومنطقة نهر السند ، وساعد على قيام هذه النظرية ما عثر عليه (Sir John Marshall) فى المنطقة الشمالية الغربية من الهند فى هارابا (Harappa) وموهندجو دارو (Mohendscho Daro) — وكلتاهما من المحلات التى كانت مأهولة بالسكان فى عصور فجر التاريخ — من آثار تشبه إلى حد كبير ما وجد فى سوسه . كما أن العالم (De Sarzec) عثر فى لجش على آثار شبيهة بتلك التى عثر عليها مارشال فى هارابا وموهندجو دارو .

ولقد عثر فى منطقة سوسه على نوعين من الفخار ، يعرف الأول باسم (سوسه ١) وهو عبارة عن أوان كبيرة يميل لون سطحها الخارجى الى الصفرة وتزينه رسوم سوداء اللون ، والنوع الثانى ويطلق عليه (سوسه ٢) يمتاز بأن رسومه ذات لون أحمر ، ويشبه النوع الأول ما عثر عليه فى المناطق الشمالية الشرقية ، مثل هضبة إيران حتى بلوخستان ، ولذا سميت هـذه الحضارة بالحضارة الجبلية ، على حين أن النوع الثانى يشبه ماعثر عليه فى المناطق الشمالية الغربية حتى جبال طوروس. وقد انتشر بنوع خاص فى حوضى الدجلة والفرات ، ولذا سميت هذه الحضارة بحضارة السهول . ولنا أن نقول إن الحضارة الجبلية هى حضارة شعب شمالى هو شعب الآريين القدماء ، وإن حضارة السهول هى حضارة شعب شومير . ولنا أن نضيف إلى ذلك حقيقة أخرى هى أن الحضارة الأولى دخيلة وأن الحضارة الثانية أصيلة .

ولكن هل كانت هناك علاقة بين مصر والشومير فى تلك العصور ؟ من المسلم به أن شومير ومصر كانتا على اتصال فى أواخر العصر الحجرى الحديث وأوائل العصر التاريخى المصرى ، بل إن هناك من الباحثين من يقرر أن مصر كانت متأثرة إلى درجة ما

(١) Junker-Delaporte : Völker des Antiken Orients (1933) p. 181.

بعناصر من الفن الشومیری ، إذ عثر على مظاهر كثيرة لا يمكن أن تكون المصادفة البحتة مبعثها الوحيد ، كما يتجلى ذلك فى الأمثلة الآتية :

١ — حضارة نقادة الثانية — وهى إحدى حضارات العصر الحجرى الحديث فى مصر — بها أوان فخارية زينت سطوحها الخارجية برسوم مختلفة من بينها المثلث المتكرر الممتد حول رقابها ، والخطوط المتموجة والطيور المائية ذات السيقان الطويلة (شكل رقم ١) فى وحدات متكررة . هذه العناصر الزخرفية بعينها نراها ممثلة على الأوانى التى عثر عليها فى سوسه وترجع الى العصر نفسه (شكل رقم ٢) .

٢ — استعمل المصريون فى أواخر العصر الحجرى الحديث وفى أوائل العصر التاريخى سدادات من الغرين مخروطية الشكل لتغطية الأوانى الضخمة التى اعتادوا أن يخزنوا فيها الحبوب والزيوت ، وكان من عاداتهم أن يطبعوا فوق هذه السدادات صوراً وكتابات بواسطة خاتم أسطوانى الشكل ، حفرت عليه هذه الرسوم والكتابات . هذه الأختام الأسطوانية عرفها الشوميريون قبل المصريين ، كما أنها استعملت بوجه خاص فى المناطق التى عرفت الخط المسمارى وزاولته (شكل رقم ٣) .

٣ — هناك سكين من حجر الظران عثر عليه بمصر بجبل العرق ، وسمى من أجل ذلك باسم سكين جبل العرق (محفوظ الآن بمتحف اللوفر) له مقبض من العاج حفرت على وجهيه رسوم تستلفت النظر . نشاهد على أحد الوجهين صورة معركة بين المصريين وشعب أجنبى . أما الوجه الآخر فعليه صورة رجل واقف بين أسدين واقفين على قدميهما الخلفيتين ، وقد استند كل واحد منهما باحدى قدميه الأماميتين على الرجل الذى أمسك بكل من الأسدين باحدى يديه . . . ويلاحظ أن سحنة الرجل غير مصرية وأن لحيته ولباسه الطويل يدلان على أنه شومیری الأصل[1] (شكل رقم ٤) .

٤ — ولقد عثر فى مصر على تمثال من الجرانيت الأسود لأسد قابع ، وفاغر فاه (صورة رقم ٥) (كان فى متحف برلين إلى ماقبل الحرب الأخيرة) وصناعة هذا الأسد

---

(١) H. Frankfort : Mesopotamia, Syria and Egypt, and their earliest Interrelations I p. 122.

غير مصرية ومتأثرة إلى حد كبير بالفن الشومیری ، فكل تماثيل وصور الأسود لدى الشوميريين فاغرة فاها ، مما يقطع بأن صانع هذا التمثال إما شوميري الأصل ، أومصرى متأثر إلى حد كبير بالفن الشومیری ، ولاسيما إذا لوحظ أن تماثيل الأسود لدى المصريين القدماء كانت منذ عصر فجر التاريخ مطبقة الفم (شكل رقم ٦) .

٥ — وأخيراً نستطيع أن نشير إلى ألواح الكحل المتخذة من حجر الأردواز والتى ظهرت فى مصر فى أواخر العصر الحجرى الحديث ، فان الكثير منها يتضمن مناظر تمثل حيوانات طويلة العنق (شكل رقم ٧ و٨) هذه الظاهرة الفنية قد توارت تماماً من الفن المصرى القديم منذ عهد الأسرات ، ولكنها ظهرت فى الفن الشومیری [1] وأصبحت من أخص مميزات الفن البابلى فيما بعد .

هذه المظاهر كلها تقطع بوجود لون من ألوان العلاقات ، نشأ بين شومير ومصر فى تلك العصور السحيقة ، وليس من الممكن أن تكون المصادفة وحدها هى التى أملت هذه الألوان من المشابهة . ولعل هذا ما حدا ببعض العلماء إلى أن يفترضوا قيام الاتصال بين البلدين من طريق بلاد العرب أو من طريق موانى البحر الأبيض المتوسط ، وحجتهم فى ذلك هى أن البلاد الواقعة فى أواسط آسية الصغرى ، وكذا فى سورية و بلاد ما بين النهرين تمتعت فى عصور فجر التاريخ بحضارات متشابهة ربما جاء تشابهها عن الفتح السياسى أو العلاقات التجارية أو تشابه البيئة ، مما جعل كل حضارة منها تتقدم فى الاتجاه نفسه بشكل مُشابه . ويغلب على الظن أن هذه العلاقات نشأت كأثر مباشر للتبادل التجارى ، فان شومير كانت بمثابة محط تتلاقى فيه القوافل التى تسير بين بلاد شواطىء البحر الأبيض المتوسط والبلاد الواقعة شرقى شومير . ومما يقوى هذه النظرية حقيقة أخرى هى أن شومير ليس بها معدن النحاس ، ولكنه عثر فيها على الرغم من ذلك على قطع كثيرة منه تدل على تفوق فى صناعته ، وهى جميعها تشبه فى طريقة صنعها وشكلها الخارجى الآلات التى عثر عليها بمصر وسورية من العصر نفسه ، ويفسر ذلك بوجود مناجم للنحاس

---

(١) Frankfort, i bid Plate XI Figure 3.

فى غرب آسية الصغرى ، وبانتقال طريقة الصناعة إلى سورية ومصر وشومير بعد تطورها هناك .

هذا فيما يتعلق بعلاقة مصر وبلاد شومير فى عصر فجر التاريخ . أما علاقتها ببلاد فينيقيا إبان تلك العصور فلا شك فيها .

لقد حدثت فى القرن الثلاثين قبل الميلاد هجرات واسعة من الساميين الذين تركوا أوطانهم واتجهوا شمالا واستوطنوا جزءاً من سورية ، ثم تقدم فريق منهم حتى بلاد بين النهرين ، وتمكن فريق ثالث من الوصول إلى شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، واتجه شمالا حتى ذلك الجزء الذى عرف فى التاريخ بأن الفينيقيين سكنوه . ويظهر أن سكان هذه المنطقة الأصليين اضطروا تحت ضغط هذا السيل المستمر من الأغراب أن يهجروا بلادهم . والدليل على ذلك أن جميع الأسماء الجغرافية من أمكنة وأنهار هى أسماء سامية بحتة ، ولقد سكن هؤلاء الأقوام الأصليون بلاد فينيقيا فى عصور غابرة ، وكانوا على حضارة بدائية وخلت مخلفاتهم من كل معنى من معانى الفن . وتمكن الأستاذ (Pater Zumhoffen) أحد أساتذة جامعة بيروت من العثور على بعض آثارهم ، وهى ترجع إلى النوع الكالوسى (Chalossien) وهى حضارة نادرة لم يعثر على شبيه لها إلا فى منطقة (Departement) فى فرنسا ومنطقة العباسية بالقرب من القاهرة .

إذن فالفينيقيون ساميون كنعانيون استوطنوا منطقتهم هذه فى عصر سابق على سنة ٣٠٠٠ ق.م ، ثم اختلطوا بعد ذلك بأجناس مختلفة كالمصريين الذين كانوا يترددون على بلادهم لإحضار الخشب ، والحيثيين الذين أخذوا يمدون نفوذهم فى الجزء الشمالى من بلادهم ، والعموريين الذين استوطنوا المنطقة الواقعة بين أعالى الفرات وبلاد الحثيين وهم أيضاً من جنس سامى ، وأخيراً سكان جزائر بحر الأرخبيل الذين كانوا يترددون على هذه المنطقة ، فأثروا فى حضارة أهلها ، حتى إن كلمة فينيقيا عينها يرجعها بعض العلماء إلى كلمة (Φοινος) ومعناها (أحمر) وذلك نسبة إلى نوع من الحيوانات المائية الحمراء اللون التى كان الفينيقيون يستعملونها بكثرة فى الصباغة .

وكان المصريون على علاقة وثيقة بالفينيقيين منذ عصر فجر التاريخ ، والدليل على ذلك قصة أزوريس وست ، وهى من القصص الدينى المصرى الذى يمكن إرجاعه الى عصر فجر التاريخ ، فأزوريس كان فى هذا العصر ملكا على مصر ثم قتله أخوه ست حسداً منه ورغبة فى الاستئثار بالملك دونه ، وألقى بجثته فى اليم بعد أن وضعها داخل صندوق فحملها التيار إلى مدينة جبيل بفينيقيا ، وهى أقدم مدنها ، وكانت على صلات مستمرة بالمصريين .

وقام المسيو مونتيه (Montet) ومن بعده المسيو دونان (Dunand) بحفائر واسعة فى منطقة جبيل ، أمكن من ورائها معرفة مدى علاقة هذه المدينة بمصر منذ أول عصور التاريخ ثم أثبت الأستاذ زيته (Sethe) أن كلمة (Kbn.t) كبنت التى اعتدنا ترجمتها بكلمة سفينة أو أسطول ليست فى الواقع إلا صفة اشتقت من كلمة (Kbn) التى تعنى فى اللغة المصرية القديمة جبلا أو جبيل ، فيكون على هذا الأساس معنى كلمة (Kbn.t) سفينة فينيقية أو سفينة من صنع جبيل .

ولقد ظهر أثر الفن المصرى القديم واضحاً فيما عثر عليه فى مقابر أهل جبيل من أدوات جنائزية .

كما أنه من الثابت تاريخياً أن الملك خع — سخموى أحد ملوك الأسرة الثانية المصرية كان على علاقة مع أهل جبيل ، إذ وجد اسمه منقوشاً على قطعة من آنية عثر عليها هناك ، كما أن الملك سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة أرسل أربعين سفينة إلى جبيل لإحضار خشب الأرز الثمين .

وعلاقة مصر ببلاد سورية كانت قائمة أيضاً منذ عصور فجر التاريخ ، وإذا تحدثت عن سورية فأقصد بذلك سورية الحالية وفلسطين وشبه جزيرة سينا ، وكانت سورية فى تلك العصور القديمة تنقسم إلى قسمين : سورية الشمالية ، وسورية الجنوبية .

إن من أقدم الأدلة التى تثبت وجود علاقات بين مصر وسورية الجنوبية ، هى تلك الأوانى الذى ظهرت فى حضارة نقادة الثانية فى مصر والمعروفة باسم الأوانى ذات

المقابض المموجة[١] . إن الغرين الذى صنعت منه هذه الأوانى ليختلف كل الاختلاف عن الطمى الذى صنعت منه جميع أنواع الفخار المصرى الأخرى . على حين عثر فى سورية الجنوبية على أنواع مماثلة ترجع إلى عصور فجر التاريخ[٢] . إذن فهذه الأوانى استوردت من فلسطين وكانت مستعملة لنقل بعض الزيوت الثمينة إلى مصر . ونحدد مبدأ ظهورها بالدرجة ٤٠ من التاريخ المتتابع ، ثم توارت حوالى الدرجة ٦٣ ، أى ظهرت فى عصر حضارة نقادة الثانية وتوارت قبل عصر الأسرات الأولى بقليل . ومنذ ذلك الوقت دخلت سورية الجنوبية فى نطاق النفوذ المصرى ، وبقيت هكذا حتى أواخر الدولة الحديثة .

وابتداء من عصر الأسرة الأولى لدينا ما يثبت وجود علاقات بين مصر وسورية الشمالية ، إذ عثر الأستاذ بترى على أوان فخارية كبيرة ذات عنق دقيق وفوهة مسطحة ولكل منها مقبض يمتد من الفوهة إلى أسفل العنق . لقد رأى بترى أن هذه الأوانى غير مصرية ، ونسبها إلى شعوب جزر الأرخبيل[٣] وظهر فيما بعد أنه مخطئ وأنها أوان من صناعة سورية الشمالية ، إذ وردت مصورة بين الأشياء التى أحضرت إلى مصر فى عهد الملك سحورع كجزية قدمتها سورية الشمالية إلى مصر[٤] .

ولقد كانت سورية الشمالية واقعة تحت التأثير الشومرى ، ثم البابلى ، وكانت الحضارتان الشومرية والمصرية تتلاقيان وتختلطان فيها .

وهكذا ترون ، أيها السادة ، أن أمم الشرق القديم كانت على علاقات وثيقة فيما بينها منذ أقدم العصور .

---

(١) Fl. Petrie : Naqnada & Ballas, pp 11, 38.

(٢) Macalister : Excavation at Gezer II page 143 sq

(٣) Fl. Petrie : Royal Tombs II page 46

(٤) Borchardt : Das Grabdenkmal des Königs Sahure I Abb 12

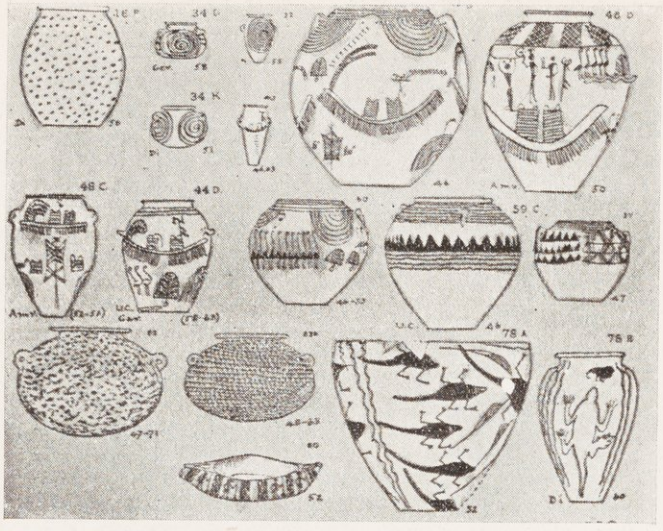

(شكل رقم ١)

(شكل رقم ٢)

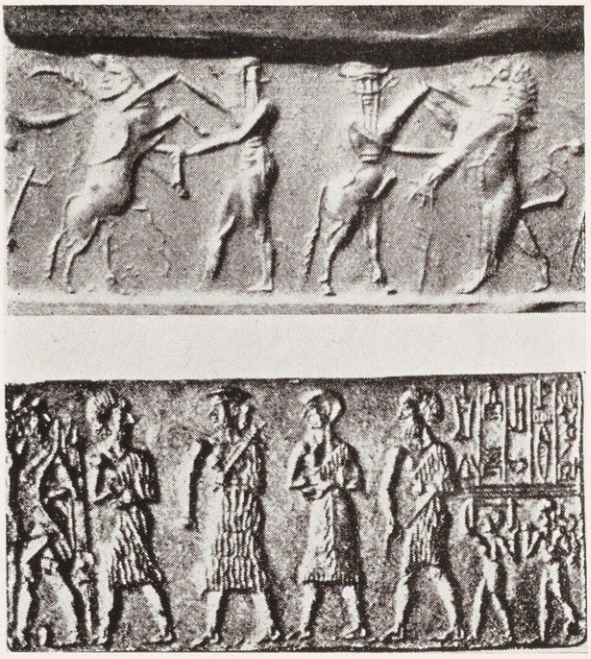

(شكل رقم ٣)

(شكل رقم ٤)

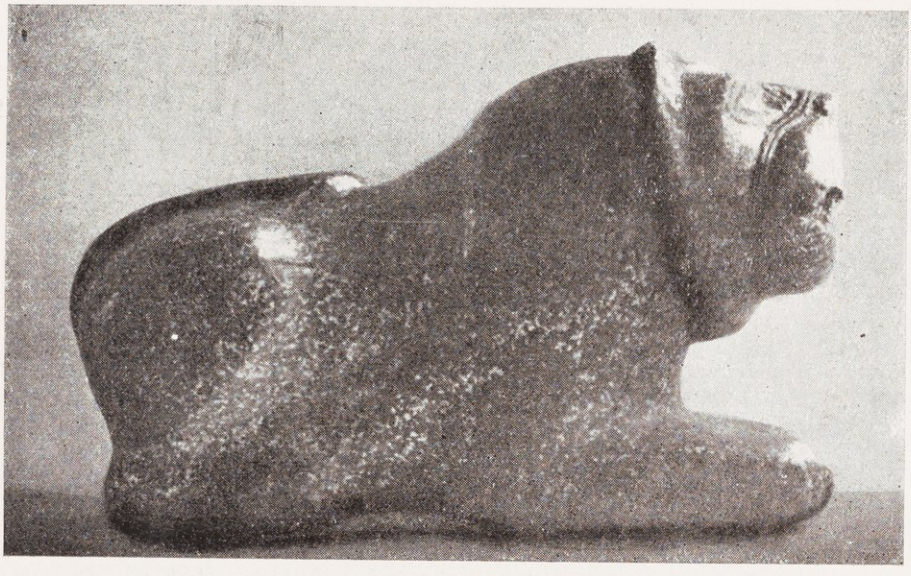

(شكل رقم ٥)

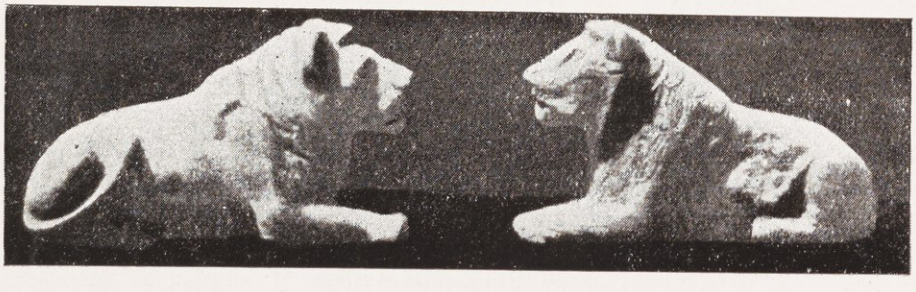

(شكل رقم ٦)

(شكل رقم ٧)

(شكل رقم ٨)

STANFORD LIBRARIES

شرف الأبوانى

صانع الفخار المطلى فى القرن الثامن الهجرى

للدكتور محمد مصطفى

أثناء اشتغالى فى السنوات الأخيرة بدراسة الأساليب الفنية التى كانت تستعمل فى زخرفة الفخار المطلى فى عصر المماليك ، وجدت توقيع « شرف الأبوانى » على الكثير من القطع الهامة . وقد تبين لى ما تمتاز به هذه القطع من طابع فنى خاص ، فرأيت أن أجعل منها موضوع كتاب ، سوف أنشره عند الانتهاء من إعداده . ولست أبالغ إذا قلت إن شرف الأبوانى هو الواضع لأسلوب خاص فى فن زخرفة الفخار المطلى بالمينا المتعددة الألوان ، وإن من جاء بعده من الفخاريين فى القرن الثامن الهجرى قد نسجوا على منواله .

ولم أجد فى مراجع الفن الإسلامى ما يستحق الذكر عن شرف الأبوانى ، فلم يكتب أحد أى شىء عن مميزات أسلوبه الفنى ، أو عن العناصر الزخرفية التى كان يستعملها وطريقة تنفيذها ، بل لم يذكر أحد شيئا عن شخصية هذا الفنان ، سوى الأستاذ الفرنسى (Abel) فى كتابه الذى وضعه عن الخزاف المصرى «غيبى» . فكتب فى صفحة ١٦ ثلاثة أسطر ، اكتفى بأن يقول فيها إنه يوجد من الأسباب الجدية ما يدل على أن شرف الأبوانى كان مسيحيا . وقد بحثت عن كل ما يمكن أن يستند إليه (Abel) كدليل يثبت كلامه هذا ، فوجدت جزءاً من جدار إناء من الفخار المطلى بالمينا ، على أحد وجهيه (الشكل رقم ١) [1] سطر كتابة باسم شرف الأبوانى فى عبارة تقليدية اعتاد هذا الفنان

---

(١) الصور المعروضة هنا من عمل الأستاذ على القاضى مصور دار الآثار العربية .

أن يوقع بها على ما يصنعه من التحف . وعلى الوجه الآخر الداخلى (الشكل رقم ٢) رنك الصليب يتخلل سطر كتابة دعائية تدل على أن هذه الآنية صنعت لصاحب هذا الرنك .

ورنك الصليب — كغيره من الرنوك الأخرى — هو شارة تدل على وظيفة صاحبها فى بلاط المماليك ، وشارة الصليب كانت لمستوفى الديوان من المسيحيين .

والراجح أن كلمة « شرف » اختصار لشرف الدين . وشرف الدين يعقبه اسم محمد أو أحمد أو غيره من الأسماء الإسلامية . ولم أجد فى كتب التراجم العربية اسما مسيحيا يعقب شرف الدين .

ومهما يكن من أمر فانى لا يعنينى أن يكون شرف الأبوانى مسلماً أو مسيحياً ، وإنما الذى يعنينى أن أؤرخ لفنان مصرى ، بين أيدينا نتاج عمله الفنى ، نستطيع أن نعجب به ، وأن نميزه عن غيره من نتاج الصناع الآخرين .

وكان شرف الأبوانى يوقع فى التحف التى يصنعها بعبارات خاصة به . ويمكننا أن نميز بكل وضوح بين عصرين مختلفين ، تختلف فيهما عبارة التوقيع ، كما يختلف الأسلوب الفنى ونوع العناصر الزخرفية .

فكان يوقع فى العصر الأول بعبارة : « عمل شرف بأبوان » مكتوبة بخط بسيط ، ومحفورة فى طبقة الطلاء على جدار الإناء من الداخل (الشكل رقم ٣) .

وكان يوقع فى العصر الثانى بعبارته التقليدية : « مما عمل العبد الفقير المسكين شرف الأبوانى غلام الناس كلهم العز والإقبال وبلوغ الآمال لصاحبه دام » يكتبها فى سطر أعلى جدار الإناء من الخارج غالبا ، وذلك بخط نسخى مملوكى بارز بالمينا ، ومحدد بخطوط دقيقة من لون يختلف عن لون الكتابة .

وعلى بعض التحف الهامة التى ترجع إلى هذا العصر الثانى ، نجد التوقيع فى ثلاث كلمات : « عمل — شرف — البركة » تكتب كل منها منفردة على جدار الإناء من الداخل أسفل سطر كتابة باسم الشخص الذى صنع من أجله ، وهذا النوع من التحف مصنوع بعناية فائقة (الشكل رقم ٤) .

(شكل رقم ١)

دار الآثار العربية رقم ٣/٥١٤٤

(شكل رقم ٢)

دار الآثار العربية رقم ٣/٥١٤٤

(شكل رقم ٣)

دار الآثار العربية رقم ٥٤٠٢/١٢

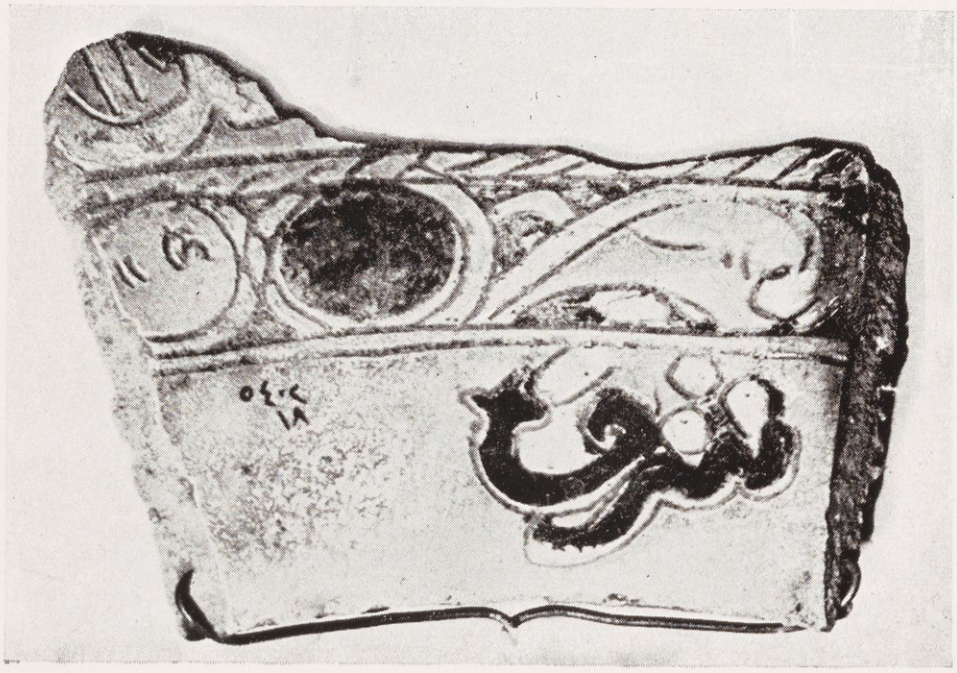

(شكل رقم ٤)

دار الآثار العربية رقم ٥٤٠٢/١٨

(شكل رقم ٥)

دار الآثار العربية رقم ١/٥١٦٤

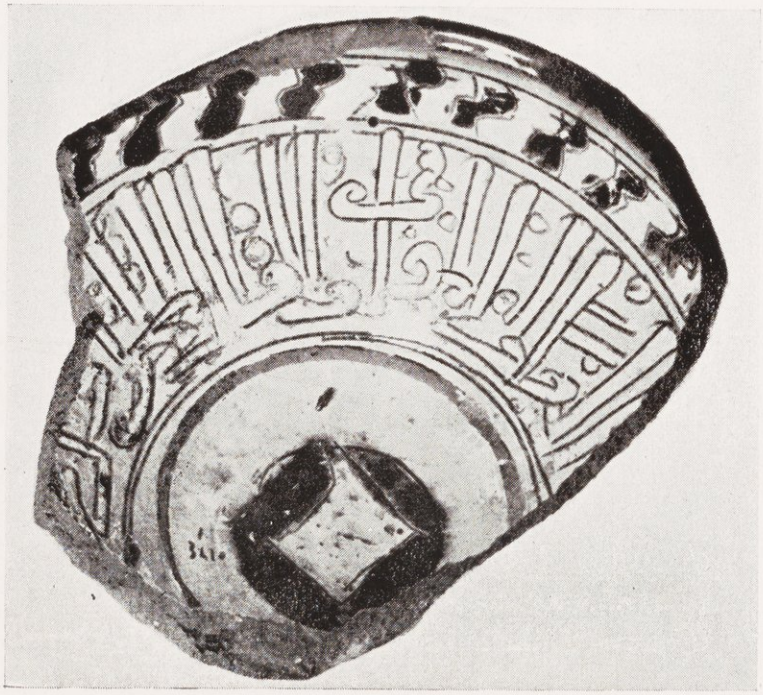

(شكل رقم ٦)

دار الآثار العربية رقم ١/٥١٦٤

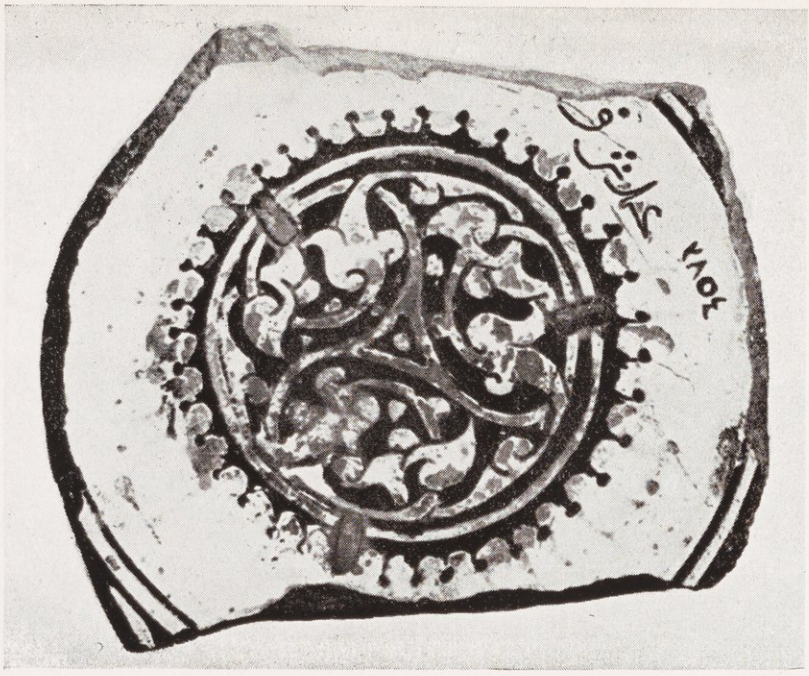

(شكل رقم ٧)

دار الآثار العربية رقم ٣٨٥٤

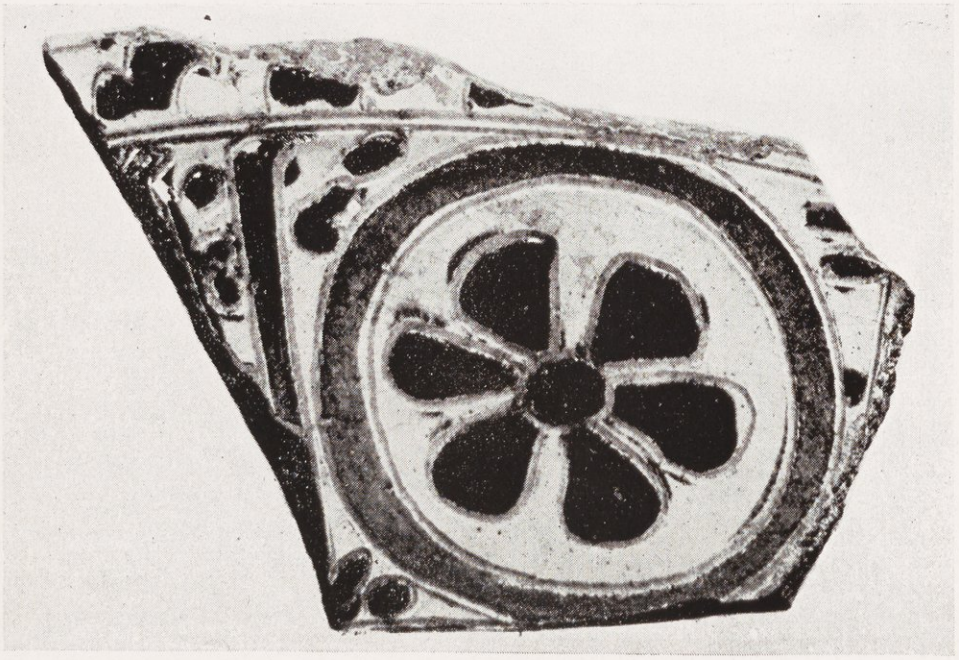

(شكل رقم ٨)

مجموعة سعادة كامل عثمان غالب باشا رقم ٢١٨

(شكل رقم ٩)

دار الآثار العربية رقم ٥٤٠٢/١٤

(شكل رقم ١٠)

دار الآثار العربية رقم ٦٥٢٦/١

(شكل رقم ١١)

دار الآثار العربية رقم ٦٥٢٦/١

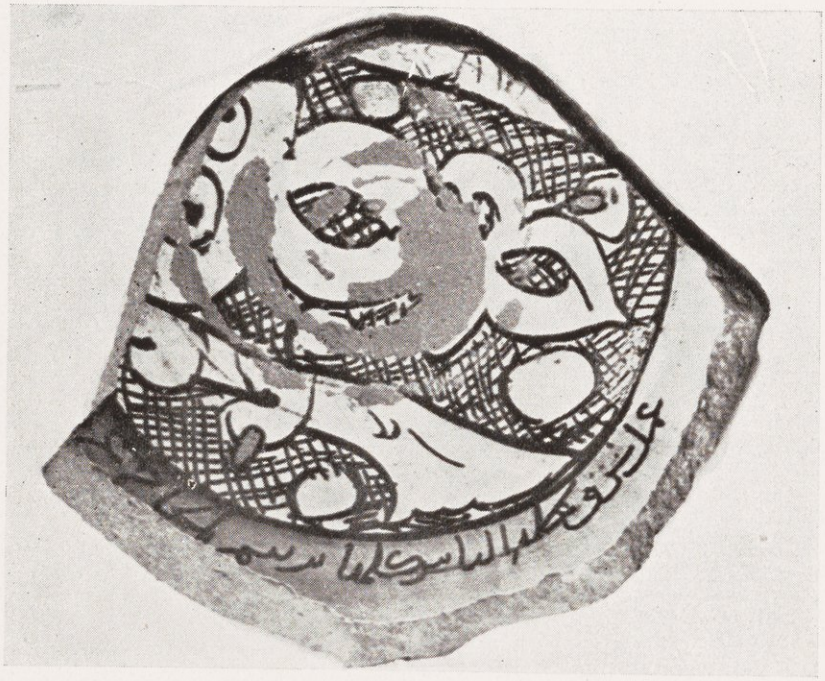

(شكل رقم ١٢)

دار الآثار العربية رقم ٥٤٠٢/١١

(شكل رقم ١٣)

مجموعة سعادة كامل عثمان غالب باشا رقم ١١

(شكل رقم ١٤)

مجموعة سعادة كامل عثمان غالب باشا رقم ١١

(شكل رقم ١٥)

مجموعة سعادة كامل عثمان غالب باشا رقم ٣٤٣

(شكل رقم ١٦)

دار الآثار العربية رقم ٥٤٠٢/١٥

(شكل رقم ١٧)

مجموعة سعادة كامل عثمان غالب باشا رقم ٢٤٤

(شكل رقم ١٨)

مجموعة سعادة كامل عثمان غالب باشا رقم ٣١

والأبوانى نسبة إلى بلدة أبوان بناحية البهنسا فى صعيد مصر . وتدل هذه النسبة على أن شرف وقت اشتغاله بصناعة الفخار المطلى كان يعيش فى بلد غير بلدته التى ينتسب إليها ، كتوقيع « التبريزى » مثلا على الخزف العثمانى المصنوع فى مدينة أسنك باسيا الصغرى ، مما يدل على أنه لخزاف أصله من تبريز ، وكان يقيم فى أسنك وقت صناعته لهذا الخزف .

وإننا قد نفهم من توقيعه الأول : عمل شرف بأبوان ، أنه أقام فى هذه البلدة أولا ، ثم انتقل بعد اشتهاره إلى مدينة الفسطاط ، ليكون قريباً من عملائه ، فصار يوقع هنا بنسبته : الأبوانى . وقد تثبت الحفائر التى سأقوم بها فى الموسم القادم ببلدة أبوان صحة هذا ، فنستطيع أن نسجل كشفاً جديداً فى صناعة الفخار المطلى بمصر ، بالرغم من بعد المسافة بين أبوان والقاهرة ، وبالرغم مما لمدينة الفسطاط من شهرة وتقاليد قديمة فى صناعة الفخار المطلى والخزف .

ولا يدل عدم العثور على قطع تالفة فى الفرن بتوقيع هذا الفنان ، على أن مصنع شرف الأبوانى لم يكن بمدينة الفسطاط ، إذ أن قطع الفخار المطلى التالفة فى الفرن التى عثرنا عليها من العصور المختلفة قليلة جداً ، ويرجع هذا الى سرعة تشقق الطلاء الزجاجى وسقوطه عن جدار الفخار ، ولا سيما فى قطع تالفة ألقيت من المصنع حيثما اتفق .

ولكننى بالرغم من ذلك أعتقد أننى عثرت على قطعة على وجهها الخارجى (الشكل رقم ٥) توقيع شرف الأبوانى ، وجدت بالفسطاط ، وأستطيع أن أعتبرها من القطع التالفة فى الفرن التى تدل على وجود مصنع شرف بالفسطاط . وهذه القطعة من قاع إناء ، التصق به آخر أثناء الحريق فى الفرن ، فترك عليه من الداخل دائرة كبيرة بدون طلاء زجاجى (الشكل رقم ٦) ، مما يشوه من شكل الإناء ، ويجعله غير صالح للاستعمال ، لأن مسام الفخار تمتص من السوائل التى توضع فى الإناء فيتشرب بها جداره ويسقط عنه الطلاء الزجاجى ، وكل هذا لا يرغب فى شراء مثل هذا الإناء .

ويتبين من مقارنة العناصر الزخرفية التى كان يستعملها شرف الأبوانى بمثيلاتها على بعض الآثار المؤرخة ، كما تدل طريقة تنفيذ هذه العناصر الزخرفية ، على أنه اشتغل بصناعة

الفخار المطلى فيما بين سنتى ٦٩٠ و ٧٦٠ هجرية . ويظهر أن تلاميذه استمروا فى العمل بهذا المصنع على نسق أستاذهم بعد وفاته .

وقد قلنا فيما تقدم إنه يمكننا أن نميز فى تحف شرف الأبوانى بين عصرين متتاليين ، تختلف فيهما عبارة التوقيع ، كما يختلف الأسلوب الفنى ونوع العناصر الزخرفية وطريقة تنفيذها . فنجد أن شرف ينفذ زخارفه فى العصر الأول بطريقة الحفر فى طبقة الطلاء التى تغطى الفخار ، فيظهر العنصر الزخرفى بارزاً ، ثم يكسو الآنية بالدهان الزجاجى فتظهر المناطق المحفورة دكناء اللون لعمقها وتجمع الدهان الزجاجى فيها (الشكل رقم ٧).

وطريقة الحفر فى الطلاء كانت شائعة فى إيران حتى القرن السابع الهجرى ، نراها فى تحف بلاد جبرى وزنجان وآمول . واستمر استعمال هذه الطريقة فى مصر حتى أوائل القرن الثامن الهجرى ، ولا نراها هنا بعد هذا التاريخ .

وينفذ شرف الأبوانى عناصره الزخرفية فى العصر الثانى بطريقة التمويه بالمينا البارزة عن سطح الطلاء ، كما يظهر فى هذه القطعة التى نرى عليها رنك الزهرة يتخلل سطر كتابة (الشكل رقم ٨) .

ولم تستعمل طريقة التمويه بالمينا فى مصر قبل أواخر القرن السابع الهجرى . ولا شك أن هذه الطريقة فى زخرفة الفخار بعناصر زخرفية بارزة بالمينا المتعددة الألوان ، قد تأثرت كثيراً بصناعة تكفيت النحاس بالذهب والفضة والمعادن الأخرى ، التى نشأت بالموصل فى القرن السابع الهجرى ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى الشام ومصر واليمن . وكذلك صناعة الزجاج المموه بالمينا التى انتشرت فى الشام ومصر منذ أواخر القرن السابع الهجرى .

والواقع أن الفنانين المصريين فى هذه الفترة من تاريخ الفن قد تأثروا كثيراً بالأساليب الفنية وطرز الصناعات التى جلبها معهم الصناع والفنانون الهاربون من بلادهم أمام فتوحات المغول .

وكان شرف الأبوانى فى العصر الأول يزخرف أوانيه فى بداية أمره على نسق الأوانى الإيرانية المزخرفة بطريقة الحفر ، أى أنه كان يزخرف الإناء من الداخل فقط

ويترك سطحه الخارجي خلواً من الزخارف ، مع التوقيع فى الإناء من الداخل بكلمات « عمل شرف بأبوان » (الشكل رقم ٩) .

ويظهر أن شرف انتقل بعد ذلك إلى الفسطاط فجعل يوقع هنا بكلمتى « عمل شرف » فقط دون ذكر كلمة « بأبوان » (الشكل رقم ١٠) ، وكان هنا أيضا مازال يزخرف أوانيه بطريقة إبراز الرسم بحفر ما يحيط به من طبقة الطلاء أو برسم دوائر صغيرة محفورة فى الأرضية المحيطة بالزخارف ، غير أن عناصره الزخرفية تطورت وصارت كثيرة التعقيد . كما أنه بدأ يزخرف الأوانى من الداخل والخارج ، كما يظهر هذا على الوجه الآخر الخارجى من القطعة السابقة (الشكل رقم ١١) .

وقد نال شرف هنا في الفسطاط من الشهرة ما جعل الناس على اختلاف طبقاتهم يقبلون على شراء أوانيه ، فأضاف إلى كلمتى « عمل شرف » كلمات « غلام الناس كلها » ليثبت للناس تواضعه وتفانيه فى خدمتهم . ونراه هنا (الشكل رقم ١٢) يتبع عبارته هذه بكلمات « برسم الحاج عمر » مما يدل على أنها آنية صنعت لأحد أفراد الشعب .

وقد تطورت عبارة التوقيع هذه فى العصر الثانى ، بعد أن زادت شهرته واشتد تواضعه ، إلى عبارته التقليدية الطويلة « مما عمل العبد الفقير المسكين شرف الأبوانى غلام الناس كلهم إلخ » وكان يكتبها بخط نسخى جميل بالمينا البارزة فى شريط على أعلى جدار الإناء من الخارج .

وكان يزخرف الأوانى فى هذا العصر الثانى من الداخل والخارج بأشرطة جميلة جمعت فى أول الأمر بين الزخارف البارزة بحفر ما يحيط بها من طبقة الطلاء ، والزخارف البارزة بالمينا ، ثم اقتصرت فى أواخر عصره على الزخارف البارزة بالمينا فقط .

وفى (الشكل رقم ١٣) نرى توقيع شرف الأبوانى بارزاً بالمينا ، وعلى أسفل الجدار شريط من كلمة « البركة » متكررة فى مناطق متجاورة وبارزة بطريقة الحفر .

ومن بين الزخارف الشائعة أشرطة الكتابة الدعائية باسم صاحب الإناء ، أى الذى صنع من أجله ، وتتخلل هذه الأشرطة الرنوك الخاصة به . وليس من شك فى أن الرنوك

المرسومة على تحف شرف الأبوانى أهمية علمية خاصة ، لأنها ترجع كلها إلى عصر محدود ومعروف ، وتبين التطورات التى دخلت على رسم الرنك وتقسيمه فى خلال هذا العصر .

وفى (الشكل رقم ١٤) نرى رنك النسر ، وإلى يمينه سيف ، يتخلل سطر كتابة نسخية بارزة بالمينا ويعلوه شريط زخرفى من فرع نباتى متعرج بارز بطريقة الحفر .

وفى (الشكل رقم ١٥) قطعة أخرى من هذا النوع عليها رنك فريد فى نوعه على شكل حدوة ، نرى فيها ثلاث نقط تمثل أماكن المسامير التى تثبتها فى حافر الجواد ، وهذا الرنك يتخلل سطر كتابة نسخية بارزة بالمينا ، ويعلوه شريط من شبه كتابة زخرفية بارزة بطريقة الحفر .

وفى مجموعة الرنوك التى يقتنيها حضرة صاحب السعادة كامل عثمان غالب باشا بالقاهرة نخبة جميلة من حوالى ٣٥ قطعة عليها اسم شرف الأبوانى ، هذا عدا الكثير من القطع الأخرى التى يدل أسلوبها الفنى على أنها من صنع هذا الفنان . ويوجد أيضاً بدار الآثار العربية بالقاهرة عدد كبير من التحف التى عليها رنوك من صنع شرف الأبوانى .

كما أننا نستطيع أن نتابع دراسة الأساليب المختلفة للكتابة العربية على تحف شرف الأبوانى : من شبه كتابة لا تقرأ ترسم فى أشرطة زخرفية (الشكل رقم ١٥ و ١٦) ، وكتابة كوفية مثل كلمة « البركة » متكررة على شريط فى مناطق متجاورة (الشكل رقم ١٣) ، والخط النسخى الذى تزينه وحدات من زخارف نباتية تظهر كأنها تتفرع من أطراف حروفه (الشكل رقم ١٧) ، ثم الكتابة النسخية التى تزينها زخارف بسيطة ونقط وعلامات ضبط (الشكل رقم ١٨) .

وقد تفنن شرف الأبوانى فى رسم أنواع الزخارف الأخرى : مثل الجديلة المركبة من ثلاثة فروع (الشكل رقم ١١) والفرع النباتى المتعرج (الشكل رقم ١٤) ، وغير ذلك من رسوم هندسية ونباتية ، لا يتسع المجال هنا للتحدث عنها .

والحق يقال إن هذه الفترة من تاريخ مصر التى اشتغل فيها شرف الأبوانى بصناعة الفخار المطلى كانت فترة رخاء وترف ، مما جعله يتفنن فى زخرفة أوانيه ، كما تفنن أيضاً فى ابتكار أشكال جديدة لهذه الأوانى .

طراز الإسكندرية

للأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

كلمة الطراز — على حد قول الجواليقى[1] — فارسية الأصل ، استعملها العرب فى عصورهم الأولى ، فقال شاعرهم حسان بن ثابت :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول

وهى تعنى فى اللغة الزى والهيئة ، أو النسق والنمط ، أو شريطاً من الكتابة المنقوشة على الحجر أو المصنوعة بالفسيفساء أو المحفورة على الخشب[2] أو الكتابة الرسمية التى كانت تتوج أوراق البردى ، أو المصنع الذى كانت تصنع فيه تلك الأوراق وتبصم هذه الكتابة[3] .

كما أنها تعنى أيضا المدبج (البرودرى) أوالزخرفة التى تزين ثوبا ، ولاسيما إذا كانت هذه الزخرفة شريطاً من الكتابة منسوجا فى لحمة الثوب وسداه أو مطرزة عليه أو مثبتة فوقه ، وكان الثوب خاصا بحاكم أو شخص ذى حيثية .

وتعنى كذلك المصنع الحكومى الذى تنسج فيه الثياب التى تزدان بالطراز[4] وحول هذا المعنى الأخير فقط يدور هذا البحث الذى نقدمه الآن .

---

(١) الجواليقى (أبو منصور) المعرب من الكلام الأعجمى على حرف المعجم (نشر أحمد محمد شاكر ، طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٦١ هجرية ص ٢٢٣) .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٧٩ و٢١٢ و٤٠٧ (طبعة بولاق) .

(٣) البيهقى : المحاسن والمساوى ج ٢ ص ١٢٧

(٤) Grohmann : "Tiraz", Encyclopedia of Islam.

ولقد عرف العرب الطراز بهذا المعنى على عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب إذ يخبرنا الثعالبى فى كتابه « لطائف المعارف » نقلا عن الجاحظ أن خراج مصر على عهد عمر بن الخطاب كان يتضمن فيما يتضمن « دق الطرز » أى الأقمشة الرقيقة المتخذة من الكتان التى كانت تنسج فى الطراز [١] .

ولقد اشتهرت الإسكندرية قبل الإسلام بصناعة المنسوجات ، وردد هذه الشهرة طائفة من قدماء الكتاب من اليونان والرومان [٢] ، واحتفظت تحت ظل العرب بتلك المكانة التى أحرزتها من قبل فى هذه الناحية : ذلك لأن العرب قد رأوا بثاقب نظرهم وحسن تقديرهم للأمور أن يتفادوا من التغيير ما أمكن ذلك ، وأدركوا أنه أجدى عليهم أن يثبتوا أركان النظم القائمة التى كانت سائدة فى جميع نواحى الحياة وقت الفتح ما دامت لا تتعارض مع عقائدهم من أن يكدوا أذهانهم فى سبيل استنباط نظام جديد . ولم يكن ما أحدثوه من التغيير إلا وليد الظروف الجديدة التى أحاطت بهم ، وقد اتسم هذا التغيير بسمة التدرج طبقا لما اقتضته طبيعة الأشياء ، ولهذا فالفتح العربى للاسكندرية لم يقطع — فى الواقع — سلسلة التقدم فى حياتها الصناعية ، بل لقد حرص العرب منذ أن استقر بهم المقام على أن يستفيدوا من مهارة السكان فى هذه الناحية .

ولقد كان فى تقاليدهم وأمالهم — مثل كسوة الكعبة ومنح الخلع [٣] وميلهم

---

(١) Serjeant (R. B.): Material for a History of Islamic Textiles up to the Mongol Conquest (Ars Islamica, Vol. IX, p. 65), he quotes Al Tha'alibi (Lataif Al Ma'arif) Lyden, 1867, p. 176.

(٢) Lumbroso : Recherches sur L'Economie Politique de l'Egypte sous les Lagides, p. III ; Reil : Beiträge zur Kenntnis des Gewerbes in hellenistichen Agypten, pp. 116-122.

(٣) يظهر أن الدكتور كونل فى كتابه Islamische Stoffa aus Aegyptischen Graben, p. 14 قد تابع المقريزى (الخطط ج ٢ ص ٩٩) فى اعتبار هارون الرشيد أول من أوجد تقليد منح الخلع ، ولكن الواقع أن النبى صلى الله عليه وسلم كان أول من أحيا هذه العادة فى الاسلام عندما خلع بردته على كعب بن زهير (ابن الأثير : تاريخ الكامل ج ٢ ص ١٣٣ و ١٣٤) .

الطبيعى إلى التكثير من الثياب [١] واستحسانهم لها عند الإهداء [٢] والتصدق بها على الفقراء فى المواسم والأعياد [٣] — كان فى هذه التقاليد والميول ما عاون على استمرار التقدم فى هذه الصناعة على أيديهم ، ومهد سبيل الوصول بها إلى درجة من الكمال والجمال قلما نجدها ممثلة فى ناحية أخرى من نواحى النشاط الفنى عند العرب .

ويكفى دليلا على ازدهار هذه الصناعة بالإسكندرية فى عهد العرب أن نشير إلى ما قاله ابن تغرى بردى من أن عدد الأنوال فى هذه المدينة كان فى القرن الثامن الهجرى (٧٩٠ هـ) أربعة عشر ألف نول ونيفا [٤] وأن عدد النساج فيها كان فى القرن الحادى عشر الهجرى أكثر من عشرة آلاف شخص ، كما ذكر ذلك أحد الذين زاروا الإسكندرية فى هذا الوقت [٥] . بل إن كتب التاريخ لتزخر بذكر أنواع المنسوجات المختلفة التى كانت تخرجها أنوال الإسكندرية فى العصور الوسطى ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر القماش السكندرى والإسكندرانى المطرز [٦] والشقق الإسكندرانية [٧] وفوط الإسكندرية [٨] والقوارات الإسكندرانية [٩] والوشى [١٠] والشرب [١١] والسكلاتون [١٢]

---

(١) تفصح تركات الخلفاء والوزراء بأجلى بيان عن هذا الميل ، راجع مثلا تركة هشام بن عبد الملك فى (الأبشيهى ، المستطرف ج ٢ ص ٤٧) وتركة الأمين فى (الغزولى ، مطالع البدور ج ١ ص ٦١) وتركة الوزير بيرجوان فى المقريزى (الخطط ج ٢ ص ٤) .

(٢) راجع هدية المقوقس الى النبى (المقريزى ، الخطط ج ٢ ص ٢٩ و ٣٠ وهدية خمارويه الى الخليفة العاضد (الطبرى ج ٣ ص ٢١٣٣) وانظر أيضاً الترجمة الانكليزية لكتاب : Mez : The Renaissance of Islam, p. 104 والمراجع التى يشير اليها الأستاذ فييت فى بحثه فى مجلة (Syria) : Wiet : Tissus et Tapisseries du Mueé Arabe, 1935.

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٦ (طبعة دار الكتب المصرية) ؛ ابن اياس . بدائع الزهور : ج ١ ص ٣١ و ٣٨ ؛ المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٥٥

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ص ٦ (القسم الثانى) ص ٧١٤ (طبعة كاليفورنيا) .

(٥) Biblittica Bis Bibliografica Della Terra Santa, Golubovich, Tomo II, p. 48, ch. 64.

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٦٨ (طبعة دار الكتب المصرية) .

(٧) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٧٢ (طبعة بولاق) .

(٨) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤١٣ (طبعة بولاق) .

(٩) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٧٢ (طبعة بولاق) .

(١٠) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٣ (طبعة المطبعة البهية ١٣٤٦ هـ) .

(١١) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور : ج ١ ص ٣١

(١٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٠٠ (طبعة بولاق) .

والمنمر [١] والطرد وحش . وإذا رجعنا إلى كتب اللغة نسألها معانى هذه الالفاظ التى أطلقت على تلك الأنواع المختلفة من المنسوجات تحصنت بالصمت ، وإذا أجابت لم يكن جوابها جامعا مانعاً على حد قول رجال المنطق . ولذلك كان تمييز هذه الأنواع عن غيرها من بين الأقمشة التى كشفت عنها الأبحاث الأثرية من الصعوبة بمكان . على أننا نستطيع أن نتعرف مع شىء قليل من الشك ذلك النوع الأخير المعروف باسم الطرد وحش وذلك بفضل الوصف الذى تركه لنا القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى إذ يقول : « أقبية من طرد وحش من عمل الإسكندرية ومصر والشام مجوخ : جاخات (أى أشرطة) مكتوبة بألقاب السلطان ، وجاخات صور وحوش أو طيور صغار ، وجاخات ملونة مموجة بقصب مذهب [٢] » وفى كل من دار الآثار العربية بالقاهرة ومتحف فيكتوريا وألبرت بلندن قطعة ينطبق عليها الوصف سالف الذكر .

ويصف القلقشندى منسوجات الإسكندرية بصفة عامة فيقول : « وفيها ينسج القماش الفائق الذى ليس له نظير فى الدنيا ، وإليها تهوى ركايب التجار فى البر والبحر وتمير من قماشها جميع أقطار الأرض [٣] » .

ولقد حملت شهرة الإسكندرية فى صناعة الأقمشة النساج على تقليد أقمشتها مما دفع بابن الحاج فى كتابه « المدخل » إلى تحذير الناس « مما يفعله التجار الذين يتجرون فى الإسكندرانى . . . وهو أنهم يشترون القماش الخام الأبيض من بلاد مختلفة مما يشبه قماش الإسكندرية ، ثم يقصرونه بالإسكندرية ويبيعونه على أنه إسكندرانى ، وهذا غش أيضاً لأن المشترى لو علم أنه من غير الإسكندرية لم يرض به ولم يعط فيه من الثمن إلا دون ما أعطاه أولا [٤] » .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٧ (طبعة بولاق) وراجع كذلك بحث الأستاذ Mayer : Some Remarks on the Dress of the Abbasid Caliphs in Egypt, p. 38 (Islamic Culture, 1943).

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٣ (طبعة دار الكتب المصرية) .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٨ (طبعة دار الكتب المصرية) .

(٤) ابن الحاج : المدخل ج ٣ ص ١١٥ (طبعة الاسكندرية) .

ولقد كان للحكومة مصنع نسيج بالإسكندرية ، أو بعبارة أخرى كان لها طراز تنسج فيه الأقمشة التى هى فى حاجة إليها . ترى ما أصل هذا الطراز؟ ومتى ظهر فى تلك المدينة ؟ ومتى انتهى فيها ؟

ينفرد ابن خلدون بين الكتاب والمؤرخين بالإجابة عن الشطر الأول من هذا السؤال ، إذ ينسب أصل الطراز إلى إيران قبل الإسلام [١] . ولكن هذه النسبة لم تؤيدها حتى اليوم الأبحاث الأثرية ، على أن ذلك لا يمنع من أن تكون صحيحة على الأقل فيما يختص بدور الطراز التى ظهرت فى العراق وإيران فى العصر الإسلامى . أما طراز الإسكندرية نفسه حيث تشير التقاليد القديمة فى تلك المدينة إلى وجود ما يشبه الطراز منذ عصر البطالمة حتى الفتح العربى ، فيصعب علينا أن نفترض أنه استمد وجوده من المصدر عينه الذى ذهب إليه ابن خلدون ، ولعله من الحق أن نتساءل : لماذا نحاول أن نبحث عن أصل طراز الإسكندرية خارج الإسكندرية نفسها ؟ إن التاريخ يحدثنا عن وجود مصنع ملكى للنسيج فى الإسكندرية فى عصر البطالمة عهدت الملكة كيلوباترا بادارته إلى أحد أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى ، وعندما فتح أكتافيوس مدينة الإسكندرية سنة إحدى وثلاثين قبل الميلاد قتل هذا الرومانى ، لأنه اعتبر أن قبوله لمثل ذلك المنصب عار وحطة تلحق بالرومان جميعاً ممثلين فى شخصه [٢] .

ولقد كان فى المدينة على عهد الرومان مصنع إمبراطورى للنسيج (Gynaceum) يمد الإمبراطور بما يحتاج إليه هو ورجال بلاطه من الأقمشة الحريرية [٣] وقد ظل هذا المصنع قائماً حتى الفتح العربى [٤] . وليس ببعيد أن العرب خلعوا على هذا المصنع الرومانى اسم «الطراز» .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣٢

(٢) Orosius : Hist. Advo. pag , VI, 19 and 20.

وانظر أيضاً الدكتور ابرهيم نصحى : تاريخ مصر فى عهد البطالمة (مكتبة النهضة بالقاهرة سنة ١٩٤٦) ص ٥٤٩ ج ٢

(٣) Von Falke : Kunstgeschichte der Seidenweberei, Berlin, 1913, I, p. 48 ; he refers to Theodosian Code of the year 438 A. D. ; Jean Ebersolt : Les Arts somptuares de Byzance, p. 12, Paris, 1923.

(٤) Kuhnel : La tradition Copte dans les Tissus Musulman, Bul. Soc. d'Arch. Copte, T IV, p. 81.

أما متى ظهر طراز الإسكندرية ومتى انتهى فنحن نرجح أن ظهوره كان بعد الفتح العربى بقليل ، وأنه استمر قائماً فى تلك المدينة حتى نهاية عصر المماليك البحرية على الأقل . وهذا الترجيح يستمد قوته من علمى التاريخ والآثار ، فلقد رأينا أن منتجات الطراز كانت، كما يقول الجاحظ [١] ، ضمن خراج مصر على عهد عمر بن الخطاب ، وأشار القلقشندى إلى وجود الطراز بالإسكندرية على عهد الدولة الأموية والدولة العباسية [٢] ، وأمدتنا الحفائر الأثرية بقطعة من الكتابة مطرز عليها بحرير أحمر سطر من الكتابة الكوفية تقرأ فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، بركة من الله وسعادة لعبد الله الإمام المعتمد على الله أمير المؤمنين أعزه الله ، مما عمل بطراز الإسكندرية سنة ثلث ومائتين [٣] » . ولعل فى هذه الوثيقة الأثرية خير ما يؤيد أقوال القلقشندى . وأشار المقريزى فى خططه إلى وجود طراز الإسكندرية على عهد الفاطميين [٤] . وإذا كانت الأدلة التاريخية أو الوثائق الأثرية تعوزنا لإثبات وجوده فى العصر الأيوبى فان وجود الطراز فى الإسكندرية إبان عصر المماليك — كما سنثبته بعد قليل — قد يشفع لنا فى الاعتقاد بوجوده فى عصر الدولة الأيوبية ، وهو العصر السابق مباشرة لعصر المماليك ، ولا سيما إذا تذكرنا أن مركزين من أهم مراكز صناعة النسيج فى مصر هما دمياط وتنيس قد منيا بخسائر فادحة بسبب الحروب الصليبية ، مما جعل الفرصة سانحة لازدهار صناعة النسيج فى مراكز أخرى ؛ ولم يعدُ الأستاذ جاستون فييت جانب الحق عندما قال إن الإسكندرية ودمنهور ورثتا عظمة تنيس ودمياط فى ذلك العصر [٥] .

---

(١) الثعالبى : لطائف المعارف ص ١٧٦ (طبعة ليدن) .

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ (طبعة دار الكتب المصرية) .

(٣) سجل الكتابات العربية ج ٢ ص ١٨٧ ، ويلاحظ أن هناك ثمانى قطع أخرى من الكتان فى دار الآثار العربية بالقاهرة لا تتضمن الكتابة المنسوجة فيها كلمة « طراز » وانما تشير فقط الى أنها نسجت بالاسكندرية .

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤١٣ (طبعة بولاق) .

(٥) Hautecoeur et Wiet: Les Mosquées du Caire, p. 96.

أما فى عصر المماليك فقد أمدنا النويرى فى مخطوطه : «الإعلام بالإلمام ، فيما جرت به الأحكام ، والأمور المقضية ، فى واقعة الإسكندرية[١] » أمدنا بوصف لطراز الإسكندرية بمناسبة زيارة السلطان الأشرف شعبان أحد سلاطين المماليك له ، وهو فى الحق وصف شائق فريد فى نوعه يستحق منا أن نقف عنده قليلا . قال النويرى : « وسار به وزيره .. إلى أن أتى دار الطراز فترجل ودخلها صاعداً سلمها إلى أن أتى مواضع أنوالها واستعمالاتها ، فرأى كل صانع ينسج على منواله من أصناف الأقمشة المنمقة والبدلات المطبقة المتخذة لحريم السلطان المختلفة الألوان[٢] » وفى موضع آخر يقول : « وجعل يطوف على الأنوال ويبصرها ويدخل رأسه تحتها لينظر أسفلها ويتفرج على الصناع كيف ينسجون وإلى مكاكهم كيف يرمونها ولها يرجعون ، ويرفع رأسه ليشاهد فى أعلى الأنوال الشيالين من الصبيان كيف يشيلون خيطان المسادى ولها يحطون ، وكيف تصنع الطيور المنسوجة والشادروانات وغيرها بتلك الخيطان الطالعة والهابطة إلى أن يكمل كل طاير وغيره » وفى موضع ثالث يقول : « ولم يزل طايفاً يتفرج على كل نوع حتى اجتاز بشيخ كبير السن ينسج بمنواله يموج تارة عن يمينه وتارة عن شماله برميه لمكوكه فى باطن مسديته فيظهر بذلك نسيج بديع كزهر الربيع[٣] » وفى موضع رابع يقول : « ثم إن السلطان المذكور شاهد ما فى دار الطراز بالإسكندرية من عمل زراكش ورقم وثياب حرير مذهبة مفروغ منها ، فاختار منها ثيابا يستصحبها معه ، وترك الباقى إلى حين تكملة نسجه[٤] » .

وإذا كان النويرى قد وصف لنا العمل فى داخل طراز الإسكندرية فان القلقشندى قد أمدنا بوثيقة تعيين ناظر لذلك الطراز ترجع إلى القرن الثامن بعد الهجرة (٧٤١ هـ) ،

---

(١) الجزء الثانى من هذا المخطوط مقيد بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩٤٢ تاريخ ، وقد كان المسيو كومب (Combe) مدير المكتبة العامة بجامعة فاروق الأول هو أول من وجه النظر الى هذا المخطوط القيم .

(٢) ورقة رقم ١٤٢ من المخطوط .

(٣) ورقة رقم ١٤٢ و١٤٣ من المخطوط .

(٤) مخطوط النويرى ورقة رقم ١٤٤

وهى تلقى ضوءاً باهراً على هذه المؤسسة الحكومية ، وتجمل لنا تاريخ هذه الوظيفة ، وتكشف عما كان يؤديه ناظر الطراز أو صاحب الطراز كما يسميه ابن خلدون [١] من أعمال ، وقد جاء فيها بعد الديباجة : « فليباشر هذه الوظيفة التى كانت فى سالف الزمان إلى الحكام تضاف ، وللعلماء الأعلام عليها نظر وإشراف ، ومنها يسبل على أوليائنا لباس الإنعام ، وترسل أجناس الإتحاف ، وتسربل الكعبة البيت الحرام فى كل عام ، بجلبابها المحكم النسج المعلم الأطراف ، وليصن ذهبها عند صرفه وقبضه ، وليزن خزها بتقريب مشوبه وتحرير محضه ، وليبن عن حسن التدبير فى إبرام حريرها ونقضه ، وليستجلب رجالها وصناعها ، وليجنب أحوالها ضياعها ، وليستجد أصنافها وأنواعها ، وليتفقد أكنافها وبقاعها ، حتى يظهر فى أعمالها آثار الصلاح ، وتشكر مباشرته التى هى محمودة الانتهاء مسعودة الافتتاح . والله يقرن رجاءه بالارباح ، ويؤذن له حيث سلك باصابة الصواب والصلاح ، بمنه وكرمه [٢] » .

ويحدد لنا القلقشندى أيضاً ما يصنعه الطراز بالإسكندرية قائلا : « ودار الطراز هذه هى التى تعمل فيها المستعملات السلطانية مما يحمل إلى خزانة الخاص الشريف من الأقمشة المختلفة الصفات من الحرير والمقترح المخوص بالذهب والتفاصيل المنقوشة بضروب النقوش المختلفة ، وغير ذلك من رقيق الكتان وغيره مما لا يوجد مثله فى قطر من أقطار الأرض ، ومنه تتخذ الأقمشة التى يلبسها السلطان وأهل دوره ، وتعمل الخلع والتشاريف التى يلبسها أكابر الأمراء والأعيان وسائر أهل المملكة ، ومنه تبعث الهدايا والتحف إلى ملوك الأقطار [٣] » .

وإلى هذه النصوص التى قدمناها توجد نصوص أخرى لم تشر إلى طراز الإسكندرية عينه ولكنها تكلمت عن الطراز بصفة عامة ، نصوص ذكرها الصابى فى رسائله وابن مماتى فى كتابه قوانين الدواوين والقلقشندى فى صبح الأعشى والمقريزى فى خططه

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣٢

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٤٢٥ (طبعة دار الكتب المصرية) .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٤٢٧ (طبعة دار الكتب المصرية) .

وجميع هذه النصوص مجتمعة تعطينا فكرة تكاد تكون واضحة عن نظام الطراز باعتباره مصنعاً حكوميا للنسيج . ونستطيع أن نلخص هذا النظام فيما يلى :

(أولا) الطراز باعتباره مصنعاً للنسيج كان مؤسسة حكومية ينسج فيها ما تحتاج إليه الحكومة من أقمشة مختلفة لكسوة الكعبة وعمل الأعلام والخيام والخلع والهدايا التى تحمل إلى الملوك ، وما يحتاج إليه الوالى أو الخليفة أو السلطان من ملابس له ولأفراد أسرته ولمن يلوذون به من موظفين .

(ثانياً) كانت وظيفة ناظر الطراز أو صاحب الطراز من الوظائف الهامة التى ينتخب لها أعيان الدولة وذوو المكانة فيها ، كما كان الحال قبل الإسلام ، مما يشعر بمدى العناية بهذه المؤسسة والاهتمام بأمرها وقد حددت وثيقة التعيين التى احتفظ لنا بها القلقشندى وأشرنا إليها من قبل ، واجبات هذا الموظف على الوجه الأكمل ، وذكر لنا المقريزى فى خططه ما كان له من حقوق فى عصر الدولة الفاطمية [١] .

(ثالثاً) كان من واجبات ناظر الطراز مراعاة أن يكون النسيج جيداً صحيحاً متيناً ، وأن ينقش اسم الخليفة على ما يعمل من الثياب والفرش والأعلام ونحوها [٢] .

(رابعاً) كان يشرف على سير العمل فى الطراز مع الناظر موظفون آخرون هم المشارف الذى يعاون الناظر فى عمله ، ويحفظ لديه ما تم نسجه من الأقمشة ، والعامل الذى يضبط حساب العمل والعمال ، والشاهد الذى يقوم بالإدارة المالية للمؤسسة [٣] .

(خامساً) النول الذى كان يستعمل فى طراز الإسكندرية كان من النوع الذى يعرف فى الإنكليزية باسم (Draw loom) ولعلنا نهتدى إلى الاصطلاح العربى فى القريب

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٦١/٤٧٠ (طبعة بولاق) . الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١١٢/١١٤

(٢) متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، الترجمة الانكليزية ص ٤١٦ حيث يشير الى رسائل الصابى ص ١١٣ (طبعة باعيدا) .

(٣) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ص ٢٩٨ و٣٠٢ و٣٠٤ و٣٣٠ و٣٣١ (نشر الدكتور عزيز سوريال عطية) .

وهو نوع معقد نوعا ما به عدة درقات (Heddles) ويجلس فى أعلاه صبي يرفع هذه الدرقات أو يخفضها كلما رغب النساج ذلك . ومخطوط النويرى سالف الذكر هو المرجع الوحيد — على قدر ما وصل إليه علمى — الذى وصف لنا نوع النول الذى كان يستعمل فى الطراز ، وطبيعى أنه كانت هناك أنوال بسيطة إلى جوار هذا النول المعقد التركيب، والذى استلفت بتعقيده نظر السلطان شعبان عند زيارته لطراز الإسكندرية .

بقى لدينا سؤال واحد نحاول الآن أن نجيب عنه : من أى نوع كان طرز الإسكندرية ؟ أكان طراز الخاصة أم طراز العامة ؟

وفى الواقع نحن لم نعرف هذين النوعين من الطراز إلا من طريق الكتابات التى وجدناها منسوجة أو مطرزة أو مطبوعة على قطع المنسوجات التى كشف عنها البحث الأثرى ، ولم يصل إلينا من الإسكندرية إلا تلك القطعة التى سبقت الإشارة إليها منذ قليل، والكتابة التى عليها ذكرت الطراز ولم تحدد نوعه . أما المراجع المطبوعة أو المخطوطة التى أتيح لى الاطلاع عليها فلم تشر إلى هذين النوعين ولم تذكر لنا قط «طراز الخاصة» أو «طراز العامة» وإنما ذكرت «الطراز» أو «دار الطراز» فحسب .

ونحن لا نعلم فى الحقيقة مدى الفرق بينهما ، ولكن إذا أخذنا بمدلول اللفظ جاز لنا أن نعتبر طراز الخاصة مصنع النسيج الحكومى الذى يمد الخاصة بما هى فى حاجة إليه ، على حين أن طراز العامة يمثل المصانع الأهلية للنسيج التى تمد الشعب بما يحتاج إليه من أقمشة ، وهذا فى الواقع افتراض لم يؤيده دليل مادى أو نص تاريخى . ولقد ذكر المرحوم على بك بهجت المدير السابق لدار الآثار العربية بالقاهرة [١] أن طراز الخاصة لم ينشأ إلا فى عهد الدولة الفاطمية ، ولكن الحفائر الأثرية التى قامت بها دار الآثار العربية بالقاهرة فى منطقة الفسطاط بعد وفاته قد أمدتنا بقطع من المنسوجات عليها نصوص تثبت وجود طراز الخاصة قبل عهد الفاطميين [٢] . وفى ظننا أن هذا النوع من الطراز

---

(١) Aly Bey Bahgat : Les manufactures d'Etoffe en Egypte, (M.I.E. 1903)

(٢) محمد عبد العزيز مرزوق ، الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية ص ٢٥ و٢٦ (مطبوعات دار الآثار العربية) .

قد وجد فى مصر منذ الفتح العربى ، وأن طراز الإسكندرية — على أساس ما لدينا من مراجع تاريخية — كان من هذا النوع .

ولعل خير ما نختم به هذا البحث هو أن نشير إلى أنه إذا كان نظام الطراز قد انتهى فى الإسكندرية بانتهاء عصر المماليك البحرية على الأقل ، فانه لا يزال حياً حتى اليوم فى القاهرة يعيش فيها باسم دار الكسوة ، وهذه الدار تشبه الطراز فى كل شىء ، ولا تختلف عنه إلا فى انكماش أعمالها واقتصارها على إعداد كسوة الكعبة التى ترسلها مصر كل عام إلى مكة المكرمة [١] .

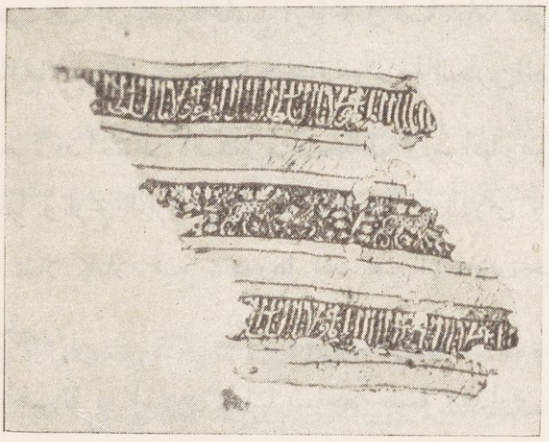

يقرأ فيها :

" عز لمولانا السلطان الملك الناصر " ، وجامات بها صور نمور تقتنص غزلانا ، وجامات باهتة اللون ويغلب على الظن أنها من النوع المعروف باسم " طرد وحش " .

[القرن الثامن الهجرى (١٤ م) — بدار الآثار العربية]

---

(١) ابراهيم رفعت باشا ، مرآة الحرمين ج ١ ص ٢٨١/٢٩٢ ، ج ٢ ص ٣٢٩ وانظر ايضا :

Combe (E): Le Dar Al Tiraz, Revue de Conférences Françaises, p. 92 (No. 2, Février, 1947).

مميزات العمارة الإســـلامية
فى القـاهرة

للأستاذ حسن عبد الوهاب
مفتش الآثار العربية ومندوب جامعة الدول العربية

إن امتياز مصر بما حوته من مجاميع أثرية جعل لها مقاماً ممتازاً بين بلاد العالم . فقد تمثلت فى تلك المجاميع مختلف الحضارات المتعاقبة وخاصة العصرين المصرى والإسلامى .

ومدينة القاهرة قد احتفظت بالكثير من أخطاطها وأسواقها وفنونها وآثارها. فيجد الباحث فى تاريخها وتاريخ العمارة الإسلامية مادة غزيرة للدرس . حيث يجد العمارة والصناعات ممثلة تمثيلا كاملا لجميع عصورها منذ الفتح الإسلامى حتى وفاة المغفور له محمد على باشا الكبير .

وقد حوت خمسمائة أثر إسلامى ، فيها مساجد جامعة ومدارس وحصون وأسوار وقلاع وقناطر مياه ومقياس للنيل ومشاهد وقباب وخوانق وربط وأسبلة وكتاتيب وأحواض لشرب الدواب وبيمارستانات ووكالات وفنادق وقصور ومنازل وحمامات .

فمن الآثار التى ترجع إلى عصر الخلفاء الراشدين جامع عمرو بن العاص المنشأ بالفسطاط سنة ٢١ هـ ٦٤١ م وهذا المسجد وإن كان تجدد على مر العصور فانه احتفظ بتفاصيل معمارية ترجع إلى مختلف العصور من عباسى وفاطمى ومملوكى وعثمانى .

ومن الآثار التى ترجع إلى العصر العباسى ، مقياس النيل . وقد أمر بانشائه الخليفة العباسى المتوكل على الله سنة ٢٤٧ هـ ٨٦١ م بجزيرة الروضة لضبط ارتفاع مياه النيل ، وهو الوحيد من نوعه .

ومن الآثار الطولونية قناطر المياه التى أنشأها بالقرافة الكبرى أحمد بن طولون سنة ٢٦٣ هـ ٨٧٦ م وقد تجلت دقة البناء بالطوب فى عقودها وطاقاتها وقناطرها ، ودار اكتشفتها دار الآثار العربية فى مدينة العسكر ، وقد حوت من الزخارف الجصية ما يتفق مع زخارف الجامع الطولونى .

وأهم ما تخلف من منشآت هذه الدولة الجامع الكبير الذى أنشأه أحمد بن طولون بمدينة القطائع سنة ٢٦٥ هـ ٨٧٨ م وهو أقدم أثر فى مصر احتفظ بتفاصيله المعمارية . وفيه تجلت صناعة الجص لأنه حوى أكبر مجموعة من الزخارف والشبابيك الجصية تنوعت أشكالها ، وامتاز بطرز منارته ذات السلم الخارجى ، وهى الوحيدة فى مصر .

ومن الآثار الإخشيدية بقايا مشهد آل طباطبا بالقرافة الصغرى المنشأ حوالى سنة ٣٥٤ هـ ٩٥٦ م ، وكان لهذا المشهد تخطيط غريب،فقد تأثر بالجامع الطولونى فاقتبس دعائمه ذات العمد الأربعة لحمل قبابه . ويعتبر باكورة للمشاهد ذات القباب المحمولة على عقود مفتوحة ، والتى نسج على نهجها الفاطميون فى كثير من مشاهدهم .

الدولة الفاطمية :

أما الدولة الفاطمية فقدخلفت بالقاهرة ثروة عمارية كبيرة ، وفيها تألق الفن الإسلامى فى جميع نواحيه . وهذه الدولة وإن كان الزمن قد اعتدى على أكثر منشآتها العمارية ، كما أباد التعنت الدينى والسياسى منشآتها المدنية التى أهمها القصران والمناظر ، فانهما أبقيا على بعض منشآتها الحربية والدينية ، وتتمثل فى أسوار القاهرة وأبوابها الباقية ، وهى بابا النصر والفتوح سنة ٤٨٠ هـ ١٠٨٧ م وباب زويلة سنة ٤٨٤ هـ ١٠٩١ م . وامتازت هذه الأبواب بدقة البناء وضخامته وإحكام العقود ورقى الزخارف الحجرية .

ولم تكن هذه المميزات مقصورة على هذه الاستحكامات ، فقد سبقتها القصور الفاطمية التى بنيت وجهاتها بالحجر ونقشت بمختلف النقوش ، وكذلك جامع الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٠/٤٠٣ هـ ٩٩٠/١٠١٢ م ففيه تجلت دقة الزخارف الحجرية فى مدخله الغربى وفى منارتيه المعتبرتين من أقدم منارات القاهرة ، فقد بنيتا بالحجر وزخرفتا بالنقوش

والكتابات ، أما قمتها الحالية فقد بناها بالطوب بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٣ هـ ١٣٠٣ م بعد زلزال سنة ٧٠٢ هـ وأخذ البناء بالحجر يتدرج فى هذه الدولة حتى ارتقى جداً فى وجهة الجامع الأقمر سنة ٥١٩ هـ ١١٢٥ م تلك الوجهة الفريدة فى تصميمها وزخارفها .

وبقى من آثار هذه الدولة أقدم منارة كاملة بالقاهرة ، هى منارة مسجد الجيوشى بسفح المقطم ، وامتازت تلك المنارة بظهور أول مقرنص تعددت حطاته فى نهاية قاعدتها المربعة .

وفى ظل هذه الدولة ارتقت الزخارف والكتابات الكوفية ، وانتشرت الزخارف الجصية فى المحاريب وحول العقود وخواصرها ، ويتجلى هذا فى عقود الحجاز بالجامع الأزهر سنة ٣٦١ هـ ٩٧١ م وفى محرابه القديم . وكان لى حظ اكتشافه سنة ١٩٣٣ بعد أن ظل محتجباً سبعة قرون تحت كسوة خشبية عملها الظاهر بيبرس البندقدارى ، وظلت محاريب هذه الدولة تتخذ من الجص وتنوعت أشكالها . ووجدت منها نماذج بلغت منتهى الرقى مثل المحراب المستنصرى سنة ٤٨٧ هـ ١٠٩٤ م بالجامع الطولونى . ومحراب مشهد إخوة يوسف (القرن الخامس الهجرى) الحادى عشر الميلادى ، ومحراب مشهد الجيوشى سنة ٤٧٨ هـ . وقد انفرد هذا المشهد بتخطيطه وبدقة وتنوع زخارفه وكتاباته ، كما امتاز بوجود دعائم فى جانبيه انتهت قمتها بقبة مصغرة لقبته الكبيرة فوق المحراب .

ومع أن القبة الفاطمية ، وهى أساس تطور القبة فى القاهرة ، ظلت على بساطتها إلى نهاية القرن الخامس الهجرى مثل قبة إخوة يوسف ، فقد بدأت فى التطور من انتقال مقرنصها من حطة واحدة إلى حطتين ، وإلى تضليعها من الداخل والخارج فى مبدإ القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى ، كما يبدو فى قبتى الجعفرى وعاتكة سنة ٥١٤ / ٥١٩ هـ ١١٢٠ / ١١٢٥ م وقبة السيدة رقية سنة ٥٢٧ هـ ١١٣٢ م .

وصناعة النجارة تدرجت فى الرقى حتى بلغت الذروة ، وهذا تراه ملموساً فى محراب السيدة رقية المودع بدار الآثار العربية وفى تابوتها وفى مصاريع أبواب مسجد الظافر بنصر الله (الفاكهانى) سنة ٥٤٣ هـ ١١٤٨ م . وفى منبر الصالح طلائع بقوص

سنة ٥٥٠هـ ١١٥٥م . وفى كثير من الطرف الخشبية بدار الآثار العربية . وامتازت الأخشاب الباقية من قصورهم باشتمالها على صور لآدميين وحيوانات .

ومن بين آثار هذه الدولة قاعة عرفت بقاعة الدردير كانت إلى سنة ١٩٤١ معتبرة من آثار العصر المملوكى ، إلى أن حققتُها وأثبتّ أنها قاعة فاطمية ، اعتبرها جناب الأستاذ الدكتور كريسويل أساساً لاقتباس تخطيط المدرسة التى ظهرت فى نهاية الدولة الفاطمية .

الدولة الأيوبية :

حكمت هذه الدولة مصر زهاء ثمانين عاما وأنشأت الكثير من المدارس والمساجد والقصور . إلا أنه مع الأسف لم يبق من آثارها إلا بقايا قليلة ، ولكن تفاصيل تلك البقايا دلت على أهميتها وعلى أنها أرقى من معاصرتها فى سورية . وأهم ماتبقى منها قلعة الجبل التى أنشأها السلطان صلاح الدين سنة ٥٧٩ هـ ١١٨٣ م . وتعاقب على تكملتها والزيادة فيها أفراد البيت الأيوبى ومماليكهم . وكل هذه التطورات تتمثل فى أبوابها وأسوارها وأبراجها .

ومنها تابوتا الإمام الشافعى والمشهد الحسينى . أما الأول فقد أمر بعمله صلاح الدين سنة ٥٧٤ هـ ١١٧٨م وعليه اسم صانعه « عبيد بن معالى » . ولعله من أسرة ابن معالى التى اشتركت فى صناعة منبر نور الدين الشهيد بالمسجد الأقصى . واسمه عليه بما نصه : « عمل سلمان بن معالى » . وهذا التابوت من روائع صناعة النجارة ، وله غطاء هرمى حافل بالنقوش والكتابات الكوفية والنسخية ، وجميع جوانب هذا التابوت مكونة من أطباق عربية منقوشة بزخارف نباتية دقيقة .

أما تابوت المشهد الحسينى فهو طرفة جديدة على جمهرة الأثريين ، ظل محتجباً تحت الأرض أسفل المقصورة نحو ثمانية قرون لم تكتحل به عين أحد من الأثريين . وقد انتهزت فرصة تغيير الأرضية أسفل المقصورة سنة ١٩٣٩ وهبطت إلى الحجرة أسفلها فى صحبة صديقى السيد محمد عرفه وكيل المسجد . فبهرتنى صناعة التابوت كما أحزنتنى الحالة التى وجدته عليها ، فقد دب التلف إلى أجزائه ، فأخرجته من مكمنه وقامت باصلاحه إدارة حفظ الآثار

العربية . ثم أودعته دار الآثار العربية سنة ١٩٤٥ . وهو مصنوع من خشب ساج هندى ومكون من جنب ورأسين منذ إنشائه ، ومكتوب عليه آيات من القرآن بالخطين الكوفى المزهر والبسيط والنسخ الأيوبى ، وبه حشوات نجمية ومسدسة محفور بها زخارف نباتية مورقة تنوعت أشكالها فى جميع أجزاء التابوت .

وقد روعى فى اختيار الآيات القرآنية ما يناسب تابوت جثمان طاهر من فرع الدوحة المحمدية ، يقرأ منها قوله تعالى : « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد — إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

ومن وصف ابن جبير الرحالة للمشهد نفهم أن هذا التابوت كان تحت الأرض منذ إنشاء المشهد ، إذ يقول :

« فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذى بمدينة القاهرة حيث رأس الحسين بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهما ، وهو فى تابوت فضة مدفون تحت الأرض . . . » .

ومن فحص الزخارف وقاعدة كتابة الخطين الكوفى والنسخى واجتماع أحدهما بالآخر نضعه ضمن مصنوعات الدولة الأيوبية . وكذلك مقارنته بشبيهه تابوت الإمام الشافعى تدل على أنه معاصر له ، بل تجعلنى أرجح أنهما صنعا فى عصر واحد وبيد صانع واحد .

وبما أنه ثبت أن لصلاح الدين علاقة بالمشهد الحسينى ، وأنه أنشأ مدرسة بجواره ، فانى أرجح أنه هو الآمر بصنعه ، كما يحتمل أيضاً أن يكون صانعه عبيد النجار المعروف بابن معالى .

ومن التوابيت القيمة أيضاً تابوت خشبى فى قبة الإمام الشافعى صنع سنة ٦٠٨هـ ١٢١١م فوق قبر أم الملك الكامل ، لا يقل أهمية عن تابوت الشافعى ، حليت جوانبه الأربعة بحشوات دقت بالأويمة ذات الفروع النباتية تتوسطها حشوات نجمية اثنتا عشرية بداخلها أخرى مسدسة ملئت بفروع زخرفية آية فى الدقة والجمال .

وفى هذا العصر اطرد التقدم فى الصناعات . فنرى الزخارف الحجرية تابعت تقدمها فى باب تربة إسماعيل بن ثعلب سنة ٦١٣ هـ ١٢١٦ م وفى باب وأعتاب شبابيك المدرسة الصالحية سنة ٦٤١ هـ ١٢٤٣ م .

وقباب هذه الدولة وإن ساد خارجها البساطة فان قواعدها حليت بزخارف جصية ، وحفل داخلها بشتى أنواع الزخرف مثل قبة الإمام الشافعى سنة ٦٠٨ هـ ، وامتازت محاريب تلك القباب وحجور شبابيكها بدقة فائقة فى صناعة الجص ، كما نشاهده فى قبة الخلفاء العباسيين سنة ٦٤١ هـ ١٢٤٣ م وفى قبة شجر الدر سنة ٦٤٨ هـ ١٢٥٠ م . وثمة ميزة أخرى ، كسوة رؤوس محرابى قبتى شجر الدر والصالح نجم الدين بالفسيفساء المذهبة المطعمة بالصدف . ولم تكن فسيفساء محراب قبة الصالح نجم الدين معروفة إلى أن اكتشفتها سنة ١٩٣٦ . وفى هذا المحراب وجدت أقدم كسوة رخامية .

ووقعت على الزخارف الجصية تأثيرات أندلسية فى نهاية هذه الدولة ، وبقيت حتى نهاية القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر الميلادى . وهذا التأثير نراه ملموساً فى زخارف المدرسة الكاملية سنة ٦٢٢ هـ ١٢٢٥ م وفى منارة المشهد الحسينى سنة ٦٣٤ هـ ١٢٣٧ م وفى (رباط أزدمر الصالحى) قبل سنة ٦٧٢ هـ ١٢٧٣ م وفى منشآت أوائل القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى .

وانفرد كثير من قبابها بطراز اقتصر ظهوره على هذه الدولة مثل قبة أبو الغضنفر وشجر الدر والخلفاء العباسيين . كما ظهر تنوع جديد فى المآذن تمثل فى منارتى أبو الغضنفر والصالح نجم الدين نعتبره باكورة لتطورها .

دولة المماليك البحرية :

هذه الدولة تركت وراءها ثروة معمارية كبيرة لمختلف الأسر التى حكمتها ، بقى منها حتى الآن مائة أثر . وللمنصور قلاون وأولاده وحفدته ومماليكهم مجموعة كبيرة من الآثار فى أنحاء القاهرة تطاول السماء بمناراتها وقبابها ، وعلى رأسها منشآت المنصور قلاون وابنه الناصر محمد وأولاده وأمرائه .

وفى مبدإ حكم هذه الدولة ، أى فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى ، وجدت آثار اشتملت على تفاصيل ميزت مصر على سائر الأقطار ، وانفردت بها عن بقية عصورها .

أولها قبة المنوفى :

هذه القبة فى القرافة الصغرى وهى قبة كبيرة تعلوها قبة صغيرة متصلة بايوان كبير كان يتصل به من طرفه الآخر قبة صغيرة هدمت . ولا شك أن تلك البقايا مخلفة من خانقاه أو مدرسة قديمة . ويقرر بريس دفين أن العرب أول من اخترع هذا النوع من القباب وأن مهندسها سبق عصر برونيلسكى سنة ١٤٢٠ الذى ينسب إليه فى وقت ما اختراع هذا النوع من القباب بمدينة البندقية .

ونظراً لأن هذه القبة خالية النصوص ومجهولة المنشىء ، ولم يتناول آثار هذه المنطقة مؤلفو الخطط ، فانى أتناولها بالوصف ، ثم أحدد تاريخ إنشائها بطريقة المقارنات المعمارية .

حقيقة أن هذه القبة فريدة فى طرزها ، وهى مكونة من قاعدة مبنية بالحجر الضخم ، وفتح بجوانبها القبلية والغربية عقود حجرية ، كما أقيم عقد آخر فى وجه العقد البحرى لحمل رجل عقد الإيوان .

ويعلو القاعدة مربع آخر به أربعة شبابيك يعلوه مثمن ثم رقبة القبة وبها ١٦ شباكا اثنان مفتوحان واثنان مضاهيان ، وهكذا بالتناوب ، ثم إفريز تعلوه القبة التى تنتهى قمتها بمنور فوق رقبة مثمنة تحمل قبة صغيرة مضلعة ، والجميع مبنى بالطوب . وبجدار القبة الشرقى محراب بسيط به من أسفل كسوة رخامية .

والإيوان الكبير بنى أسفله بالحجر وأعلاه بالطوب ، وبه محراب مثلث يعلوه شباك فندلية به بقايا زخارف جصية بها توريق مشرشر .

وبناء قاعدة القبة بالحجر الكبير والثلاثات والقبة فوقها بالطوب شاع فى قباب آخر القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى . إذ نراه فى قبة لاجين المنصورى بالجامع الطولونى سنة ٦٩٦ هـ ١٢٩٦ م وفى قبة علاء الدين ايدكين البندقدارى سنة ٦٨٣ هـ ١٢٨٤ م . وفى قبة زين الدين يوسف سنة ٦٩٧ هـ ١٢٩٧ م .

وعقد المحراب المنكسر أو المثلث نراه شاع فى محاريب قبة علاء الدين ايدكين البندقدارى وإيوان زين الدين يوسف السابق ذكرهما ، وفى قبة حسام الدين طورنطاى سنة ٦٨٩ هـ ١٢٩٠م ، ومقرنص القبة وجدناه أول مرة فى قبة أم الصالح مع تنوع بسيط سنة ٦٨٢ هـ ١٢٨٢م ، ثم وجدناه مطابقاً له فى باب خانقاه بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٦/٧٠٩ هـ ١٣٠٦/١٣٠٩م .

والقبة الصغيرة أعلى القبة مقتبسة من قمة منارة الجامع الطولونى عمل لاجين سنة ٦٩٦ هـ ١٢٩٦م والمدرسة الجاولية سنة ٧٠٣ هـ ١٣٠٣ م وغيرهما من قباب ومنارات النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى .

ومن هذه المقارنات يتبين أن تفاصيل الإيوان والقبة اتفقت مع منشآت نهاية القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى .

وإلى الآن لم أر ما يطابق هذه القبة . إلا ما رأيت فى خان أسعد باشا العظم بدمشق سنة ١١٦٦ هـ ١٧٥٢م فان فيه قباباً ذات منور خشبى ، كما وجدت فى مصر قبابا ذات مناور مفتوحة فى دار الضرب التى أنشأها المغفور له محمد على باشا بالقلعة سنة ١٢٤٣ هـ ١٨٢٧م كانت مغطاة بمناور خشبية .

وثانيها قبة رباط أحمد بن سليمان الرفاعى .

هذا الرباط بحارة حلوات قسم الخليفة ، أنشىء سنة ٦٩٠ هـ ١٢٩١ م وقبته تسودها البساطة إلى حد أن الرائى لها من الخارج لا يكترث لشكلها ، ولا تبدو عليها أية أهمية ، فاذا ما دخلها أخذه العجب وبهرته زخارفها وألوانها ونوادر الصناعة فيها . فهى صغيرة الحجم مربعة القاعدة ترتكز من الجانبين الغربى والقبلى على عقدين ، ومقرنصها يتكون من ثلاث حطات ، حفلت بالزخارف طاقاته وخواصره وتواشيحه وحوافيه وداخله ، واشتمل على كتابات بالخطين الكوفى والنسخى .

وبصدر القبة المحراب ، وهو من الطرف النادرة ، فعقده منكسر حليت طاقيته وتواشيحه وجوانبه بزخارف جصية هندسية ومورقة . وقد انفردت تلك الزخارف بميزة لا نظير لها

فى العمارة الإسلامية على ما أرجح . فقد غطيت الكتابة بالسطر أعلاه بزجاج رقيق ملون بلون أرجوانى ، وتخللت تلك الكتابة زخارف مورقة غطيت بزجاج ملون باللونين الفيروزى والأرجوانى . ومثلها الفروع المورقة من زخارف عقد المحراب وباطنه وتواشيحه ، وأحيط المحراب بافريز به حشوات مستديرة ومسدسة لصق عليها الزجاج المنقوش بالألوان المذكورة .

واستهل القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى ، بحكم الناصر محمد بن قلاون ، ومدة حكمه لمصر أطول مدة قضاها ملك بعد حكم المستنصر بالله الفاطمى ، وكان مغرماً بالعمارة فأنشأ وعمر الكثير من الآثار .

ولما كان الناس على دين ملوكهم فقد تبارى أمراؤه فى إنشاء المدارس والمساجد والخوانق ، وشاركهم نساؤهم فى إنشاء المساجد حتى إن حدق القهرمانة مربية الناصر محمد بن قلاون أنشأت مسجداً باقياً حتى الآن ، وكلها منشآت عنى بتشييدها وزخرفتها . وكان للتنافس أثر كبير فى حصولنا على ثروة فنية عظيمة فى مختلف فنون العمارة .

ودرة منشآت هذه الدولة مدرسة السلطان حسن سنة ٧٦٤هـ ١٣٦٤ م فهى غنية بفنونها وعمارتها ، ولا شك فى أنها من مفاخر العمارة الإسلامية ، وقد وفقت إلى العثور على اسم مهندسها منقوشاً على طراز جصى بالمدرسة الحنفية بما نصه : « وشاد عمارته محمد بن بيليك المحسنى » .

وبرغم أن سورية وفلسطين ومصر فى أكثر عصورها الإسلامية كانت خاضعة لحكم واحد ، وكان الأمراء يتنقلون بين مصر والشام ، وأنشأوا آثاراً لهم بمصر والشام ، فانها اختلفت بعضها عن بعض وخاصة فى التفاصيل المعمارية . فهى وإن اتفقت أحيانا فى التصميم من حيث المساقط الأفقية والمداخل الرئيسية ، فانها اختلفت فى التفاصيل المعمارية ، وخاصة فى القبة والمنارة وصناعة الجص . ولم يكن هذا التغيير مقصوراً على الشام ، بل شمل العراق وبلاد المغرب والأندلس وفارس ، مما جعل للكثير من تفاصيل العمارة الإسلامية فى مصر طابعا خاصا بها ميزها على بقية الطرز الأخرى .

وامتازت العمارة فى دولة المماليك بأنها تمصرت وتركزت قواعدها . فظهر تحسين كبير فى تصميم وجهات المساجد والمدارس ، وارتقت القبة والمنارة وتنوعت أشكالها . وازدهرت صناعة الرخام فى المحاريب والوزرات والأرضيات ، كما ازدهرت صناعة الجص فى الزخارف والشبابيك . وانتشرت الأبواب المغشاة بالنحاس مع تنوع أشكالها وزخارفها وتكفيتها بالذهب والفضة .

وارتقت المنارة وضخمت وصارت تبنى قاعدتها بالحجر وعلوها بالطوب ، واتخذت لها خودة مضلعة ، ثم تطورت فبنيت جميعها بالحجر ، وتعددت دوراتها ، وأبدلت الخودة المضلعة بخودة مستديرة ذات هلال ومحمولة على أكتاف رشيقة أقرب إلى العمد ، ثم أبدلت بها عمد رخامية . وكل هذا التطور نراه فى منارة المنصور قلاون سنة ٧٠٣ هـ ١٣٠٣ م وفى منارة المدرسة الجاولية سنة ٧٠٣ هـ ١٣٠٣ م وفى منارتى مسجد الناصر محمد بن قلاون بالقلعة سنة ٧٣٥ هـ ١٣٣٥ م وقد وقعت عليهما تأثيرات فارسية وخاصة فى قمتيهما المكسوتين بالقاشانى . وفى منارة خانقاه قوصون سنة ٧٣٦ هـ ١٣٣٦ م ثم فى منارتى صرغتمش سنة ٧٥٧ هـ ١٣٥٧ م وآستبغا سنة ٧٧٣ هـ ١٣٧١ م والجاى اليوسفى سنة ٧٧٤ هـ ١٣٧٣ م .

وقد مرت القبة بهذه الخطوات من حيث بناؤها بالطوب ثم بالحجر والطوب ثم بناؤها بالحجر مع تنوع أشكالها ، ونرى هذه التطورات ممثلة فى قبة زين الدين يوسف سنة ٦٩٧ هـ ١٢٩٧ م وفى قبتى الجاولى سنة ٧٠٣ هـ ١٣٠٣ م وفى قبة سنجر المظفر سنة ٧٢٢ هـ ١٣٢٢ م وهى أول قبة بنيت بالحجر وفى قبة تنكزبغا سنة ٧٦٤ هـ ١٣٦٤ م وهى ثالث قبة حجرية ، وفى قبة الجاى اليوسفى سنة ٧٧٤ هـ ١٣٧٢ م ، وتنوع زخرف رقابها من إفريز جصي مزخرف إلى قاشانى ملون فمكتوب ومزخرف .

وتدرجت المحاريب من الجص إلى الرخام الذى بلغ الذروة فى هذه الدولة ، وطعم بالصدف ، وتعدى المحاريب إلى الوزرات والأرضيات . وتراه ممثلا فى محراب [1]

(١) نختار هذه النماذج من هذه التفاصيل وغيرها من فترات متفاوتة للتعريف برقى النوع فى الحقبات المتعاقبة . وهى على سبيل المثال لا على سبيل الحصر . وفى معرض الصور الذى أقته بقصر العظم بدمشق مقر اجتماع مؤتمر الآثار عرضت مميزات العمارة الاسلامية بالقاهرة وتطورها فى مختلف تفاصيلها . وقد حوى أربعمائة صورة .

ووزرة قبة المنصور قلاون سنة ٦٨٤ هـ ١٣٨٤ م . وفى محراب المدرسة الطيبرسية بالأزهر سنة ٧٠٩ هـ ١٣٠٩ م وفى محرابى المدرسة الإقبغاوية ومسجد المارداني سنة ٧٤٠ هـ ١٣٤٠ م.

وعادت الفسيفساء المذهبة إلى الظهور فى محاريب مدرسة المنصور قلاون سنة ٦٨٤ هـ ١٣٨٥ م والجامع الطولونى سنة ٦٩٦ وفى المدرسة الطيبرسية ٧٠٩ هـ ١٣٠٩ م وفى المدرسة الإقبغاوية سنة ٧٤٠ هـ ١٣٤٠ م وفى مسجد حدق سنة ٧٤٠ هـ ١٣٤٠ م ، ولم تكن معروفة إلى أن اكتشفتها سنة ١٩٣٧

وكذلك ظهرت محاريب جصية دقيقة فى خانقاه أم أبوك حوالى ٧٤٢ هـ ١٣٤٢ م وفى قبة أصلم السلحدار سنة ٧٤٦ هـ ١٣٤٥ م .

وقد سارت الزخارف الجصية فى تقدمها ، وتتمثل دقتها فى مسجد الظاهر بيبرس البندقدارى سنة ٦٦٥ هـ ١٢٦٦ م وفى رباط أزدمر الصالحى ، وفى زاوية زين الدين يوسف ، ورباط ابن سليمان ، والخانقاه البندقدارية ومدرسة الناصر محمد بن قلاون سنة ٧٠٥ هـ ١٣٠٥ م ومسجد أمير حسين سنة ٧١٩ هـ ١٣١٩ م ، ومدرسة السلطان حسن ٧٦٤ هـ ١٣٦٤ م .

ومثلها النجارة ، فقد تابعت تقدمها فى شتى تفاصيلها ، سواء أكانت فى التوابيت أم الأبواب والمنابر ، وطعمت بالسن والآبنوس . ومنها نماذج قيمة جداً فى تابوت رباط أحمد بن سليمان . وفى منبر المنصور لاجين بالجامع الطولونى سنة ٦٩٦ هـ ١٢٩٦ م ، وفى منبر بكتمر الجوكندار فى جامع طلائع بن رزيك سنة ٦٩٩ هـ ١٢٩٩ وفى منبرى أرغون شاه الإسماعيلى سنة ٧٤٨ هـ ١٣٤٨ م والطنبغا المارداني سنة ٧٤٠ هـ ١٣٤٠ م وفى أبواب مسجد أم السلطان شعبان ٧٧٠ هـ ١٣٦٨ م .

المماليك الجراكسة :

أما دولة المماليك الجراكسة فثروتها لا تقل أهمية وعدداً عما تركه المماليك البحرية . فقد بقى لها بالقاهرة مائة وثلاثون أثراً على رأسها مدرسة الظاهر برقوق سنة ٧٨٨ هـ ١٣٨٦ م . وخانقاه ابنه الناصر فرج بالصحراء سنة ٨١٣ هـ ١٤١٠ م ثم منشآت الأشرف

برسباى من مساجد ومدارس وخوانق ٨٢٩—٨٤١ هـ ١٤٢٥—١٤٣٧ م ، ثم منشآت القاضى يحيى زين الدين من مساجد ومدارس سنة ٨٥٠ — ٨٥٦ هـ ١٤٤٦—١٤٥٢ م . ومنشآت الأشرف قايتباى ٨٧٣ — ٩٠٠ هـ ١٤٦٨ — ١٤٩٤ م وهى وحدها ثروة فنية كبيرة . فقد ترك اسمه مسطوراً على مايزيد عن ٧٠ أثراً بقى منها بالقاهرة ٣٥ ما بين مساجد ومدارس وقلاع ، وفخرها مدرسته وتربته بالصحراء . وتبعه أمراؤه فى إنشاء المساجد ، ومن خيرتها مسجد أقجماس الإسحاقى وأبى بكر مزهر .

ويليه فى العناية بالعمارة السلطان الغورى . فقد كان مغرماً بها ، وليس أدل على غرامه بالعمارة من إنشائه فى منطقة واحدة مجموعة مكونة من وكالة وحمام ومنزل ومقعد وسبيل وكتاب ومدرسة وقبة . ودرتها مسجده بالغورية سنة ٩١٠ هـ ١٥٠٤ م .

فى هذه الدولة سارت التفاصيل المعمارية على اختلاف أنواعها فى تقدمها واطراد تحسنها . فاستقرت المنارة على طراز واحد مع تنوع بسيط . وكان هذا التنوع يتفاوت بين البساطة وكثرة الزخرف والاعتدال فيه . وفيها ظهر نوع جديد فى زخرفها ، وهو تلبيس بدن دورتها الأولى بالرخام ، مثل منارتى برقوق بالنحاسين والقاضى يحيى بالأزهر ، ثم حلى بدن دورتها الأولى بزخارف هندسية ونباتية ، مثل مسجد برقوق بالصحراء سنة ٨١١ هـ ومنارة مسجد تمراز الأحمدى ٨٧٦ هـ ١٤٧١ م ومنارات قايتباى بالأزهر وبمسجديه بالصحراء وقلعة الكبش ومنارتى جانم البهلوان ٨٨٣ هـ ١٤٧٨ م وأبى بكر مزهر ٨٨٤ هـ ١٤٧٩ م .

وفى نهاية هذه الدولة ظهر نوع من المنارات مزدوج الرأس ، منها منارة مدرسة قانى باى الرماح سنة ٩٠٩ هـ ١٥٠٣ م ومنارة الغورى بالأزهر سنة ٩١٥ هـ ١٥٠٩ م وامتازت بتلبيس بدن دورتها الأولى بقاشانى أزرق ، وأن السلم الموصل بين الدورتين الأولى والثانية مزدوج لايرى الصاعد فيه النازل ، وهو ثالث أنموذج فى منارات مصر ، إذ الأول فى منارة قوصون والثانى فى منارة أزبك اليوسفى .

وسار الرخام فى تقدمه سواء أكان فى المحاريب أم الوزرات والأرضيات . ومنه نماذج راقية جداً فى منشآت الأشرف برسباى والأشرف قايتباى وقانصوه الغورى وأمرائهم .

وصناعة الجص وإن كانت تأخرت فقد عوضت بتقدم بالغ فى صناعة الشبابيك الجصية والتوفيق فى اختيار ألوانها .

واستمرت القبة سائرة فى التحسن إلى أن بلغت الذروة فى هذه الدولة ، وحلى سطحها الخارجى بنقوش هندسية وأخرى مورقة ، حتى انفردت بجمالها على سائر قباب العمارة الإسلامية ، وهذا ما نلمسه فى قبة جانى بك الأشرفى بالصحراء سنة ٨٣١ هـ ١٤٢٧ م وفى قبة المدرسة الجوهرية بالأزهر سنة ٨٤٤ هـ ١٤٤٠ م وقبة الأشرف برسباى بالصحراء سنة ٨٣٥ هـ ١٤٣١ م وفى قبة الأشرف قايتباى بالصحراء سنة ٨٧٩ هـ ١٤٧٤ م وهى منتهى ما وصل إليه رقى القباب .

وإلى نهاية هذه الدولة كانت أعمال النجارة متقدمة فى شتى أنواعها ، سواء أكانت فى المنابر أم الأبواب ، وتتجلى دقتها فى أبواب ومنبر جامع المؤيد شيخ سنة ٨٢٣هـ ١٤٢٠م وفى منابر الأشرف برسباى بالأشرفية ، وقايتباى بالصحراء ، وقجماس الإسحاقى . وقانصوه الغورى .

ويحق لنا القول بأن العمارة الإسلامية فى هذه الدولة أخذت زخرفها وازينت وبلغت أقصى مراتب الكمال .

العصر العثماني :

كان لسقوط دولة المماليك الجراكسة ودخول مصر فى حوزة الدولة العثمانية أثر كبير فى تأخر الفنون والعمارة الإسلامية . فما إن تم للسلطان سليم الاستيلاء على مصر سنة ٩٢٣ هـ ١٥١٧ م حتى جمع مهندسيها وفنانيها وخيرة صناعها من بنائين ونجارين ومرخمين وأرسلهم إلى استامبول . وبذلك قضى على النشاط الفنى والصناعى إلى حد كبير . والدولة العثمانية وإن تأخرت العمارة فيها فانها خلفت ثروة معمارية كبيرة بقى منها ١٩٠ أثراً ما بين مساجد وأسبلة ووكالات ودور .

وفى عصر هذه الدولة أدخلت إلى مصر أساليب معمارية تركية جديدة لم تكن مألوفة بمصر من حيث التصميم والزخرف . فقد أنشأ سليمان باشا مسجده بالقلعة سنة ٩٣٥هـ ١٥٢٨م

على طراز مساجد الآستانة . فهذا المسجد مكون من قبة كبيرة مكسوّة بالقاشانى يحيط بها أنصاف قباب . وأمامها صحن مكشوف تحيط به أروقة ذات قباب صغيرة كسيت بالقاشانى أيضاً .

وبرغم أن تصميمه عثمانى بحت ، فان منارته تأثرت بالمنارة المصرية عدا خوذتها التى أبدلت بهامسلة كسيت بالقاشانى . وأيضاً فان وزرته الرخامية وإفريزها المكتوب بالخط الكوفى تأثرت بالوزرات المملوكية ، ومثلها الأرضيات الرخامية . على أن أهم مايسترعى النظر فيه مجموعة النقوش الملونة والمذهبة بالقبة الكبيرة وأنصاف القباب حولها .

وحذا حذوه فى التصميم مع اختلاف فى التفاصيل مهندس مسجد الملكة صفية سنة ١٠١٩ هـ ١٦١٠ م . وكان الحال كذلك فى مسجد سنان باشا ببولاق ٩٧٩هـ١٥٧١م إلا أنه استعيض عن الحوش المكشوف بأروقة معقودة حول وجهاته الثلاث . وفى هذين المسجدين تظهر المنارة التركية التى شاعت فى القاهرة بعد ذلك .

وبرغم التأخير الذى أصاب القبة والمنارة وصناعة الجص والنجارة وكثيراً من الصناعات فقد استمرت صناعة الرخام على تقدمها ، وكذلك صناعة النحاس فقدازدهرت ، وخاصة النماذج المصبوبة للشبابيك بالأسبلة . ووجدت عناصر جديدة للزخرف هى كسوة الجدران والقباب والمحاريب بالقاشانى . ومنه نماذج قيمة فى مسجد آق سنقر من عمل إبرهيم أغا سنة ١٠٦٢ هـ ١٦٥٢م وفى سبيل عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٥٧ هـ ١٧٤٤ م وسبيل رقية دودو سنة ١١٧٤هـ ١٧٦٠م .

وانتشرت صناعة الخشب الخرط ، وافتن صانعها فى إيجاد رسوم وكتابات بها ، وشاعت المشربيات فى الدور ، وهى التى طبعت الدور فى أحياء القاهرة بطابع خاص اقتصر عليها ، مثل منازل الكريدلية سنة ١٠٤١ هـ ١٦٣١م وجمال الدين الذهبى سنة ١٠٤٧هـ ١٦٣٧م ومنزل السحيمى سنة ١٠٥٨هـ ١٦٤٨م . وقد اشتملت هذه الدور وغيرها على مقاعد وقاعات حوت سقوفا دقيقة لا تقل عن سقوف دولة المماليك . كما حوت وزرات وأرضيات دقيقة ، وامتازت بوجود فسقيات رخامية توسطها نافورات رخامية مفرغة بأشكال زخرفية .

وبجانب التأثيرات التركية التى وقعت على العمارة فى القاهرة والتأخير الذى أصابها وجدت مساجد ظلت متأثرة بالطرز المملوكية ، وأهمها مسجد البرديني المنشأ سنة ١٠٢٥ — ١٠٣٨ هـ ١٦١٦ — ١٦٢٨ م وهو صغير الحجم عبارة عن قاعة صغيرة أحيطت بوزرة رخامية رقيقة جدا . وله محراب رخامى دقيق ومنبر صغير مطعم بالصدف . وتمتاز منارته بأنها مملوكية الطراز ، مما جعل هذا المسجد درة المساجد المنشأة فى العصر العثمانى .

وفى هذا العصر كثر إنشاء السبيل منفردا يعلوه كُتّاب . وأجمل هذه الأسبلة سبيل خسرو باشا سنة ٩٤٢هـ ١٥٣٥ م وسبيل وكتاب عبد الرحمن كتخدا بشارع بين القصرين . ولم تقتصر أهمية هذا السبيل على تفاصيل وجهاته الفنية بالنقش فى الحجر وتطعيم الرخام ، بل تعدته إلى داخله المكسو بالقاشانى المرسوم فيه صورة الكعبة الشريفة .

عصر المغفور له محمد على باشا :

إن أكثر الآثار الباقية من هذا العصر ترجع إلى هذا العاهل الذى أنشأ المساجد والقصور والمصانع والحصون والقناطر ودار المحفوظات ودار الضرب ، وباق منها عشرون أثراً ، أهمها القناطر الخيرية ، ثم مسجده العظيم .

وكان لاستعانته بمهندسين وصناع أجانب وأتراك أثر فى إيجاد عناصر جديدة فى العمارة والزخرفة لم تكن موجودة من قبل . فالزخارف تمثل زهوراً وعناقيد عنب وستائر ومناظر طبيعية . وهذا النوع من الزخرف شاع فى تركيا فى القرن الثامن عشر الميلادى ، ويعرف باسم (روكوكو) وقد دخل إليها بعد انتشاره فى أورية على أيدى فنانين من جنوبى إيطاليا وصقلية .

وقد شاع هذا الفن فى زخارف قصوره وقصور أولاده ، وأخص بالذكر منها قصر شبرا الذى أنشأه سنة ١٢٢٣ هـ ١٨٠٨ م وقصر الجوهرة بالقلعة سنة ١٢٢٩ هـ ١٨١٣ م ثم قصر الحرم بداخل القلعة سنة ١٢٤٣ هـ ١٨٢٧ م . وفى هذه القصور نرى لوناً جديداً فى تصميم القصور ومواد بنائها ، وغالبها من الخشب .

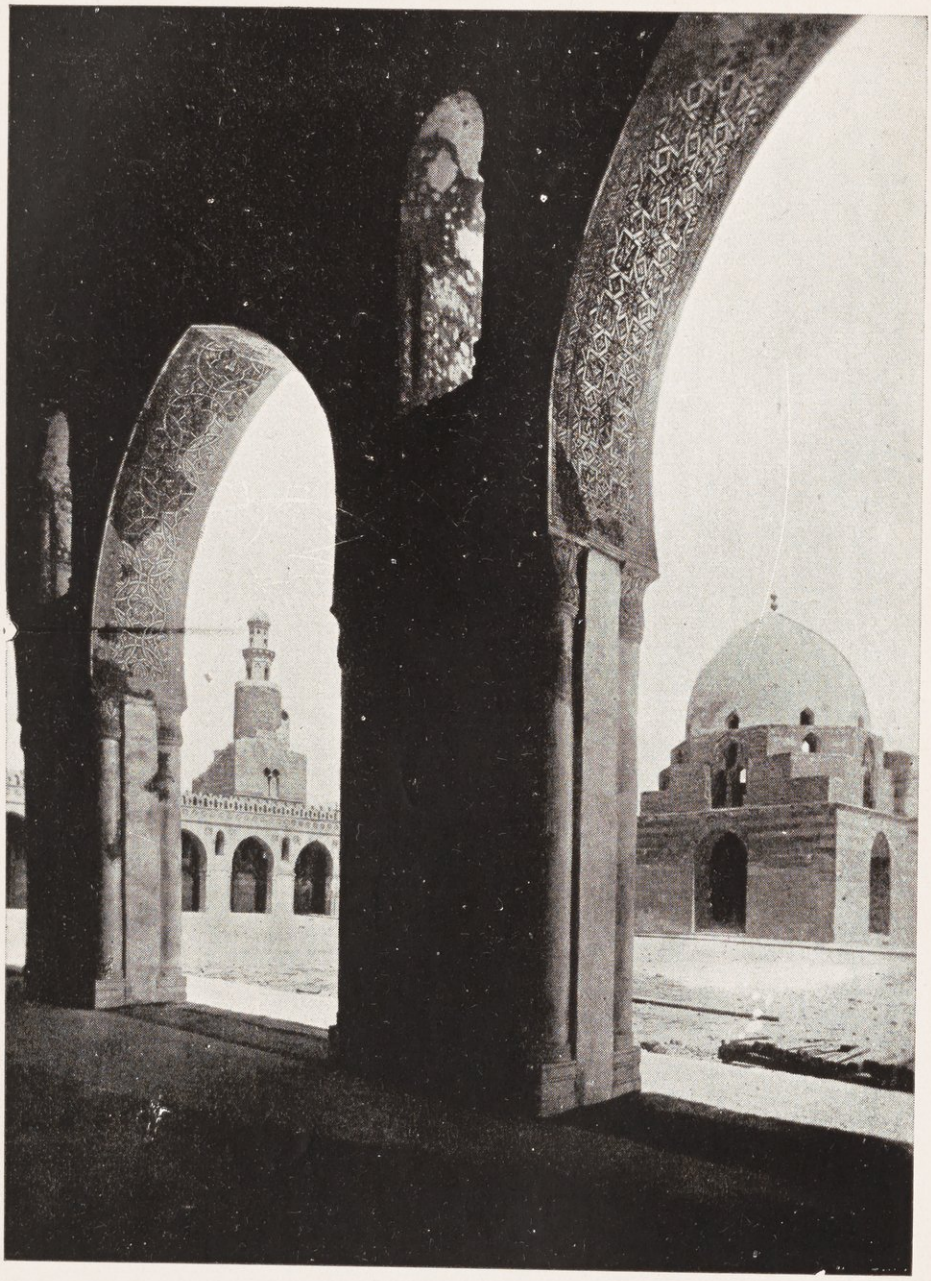

(شكل رقم ١)

الجامع الطولونى

(شكل رقم ٢)

زخارف مدخل جامع الحاكم بأمر الله

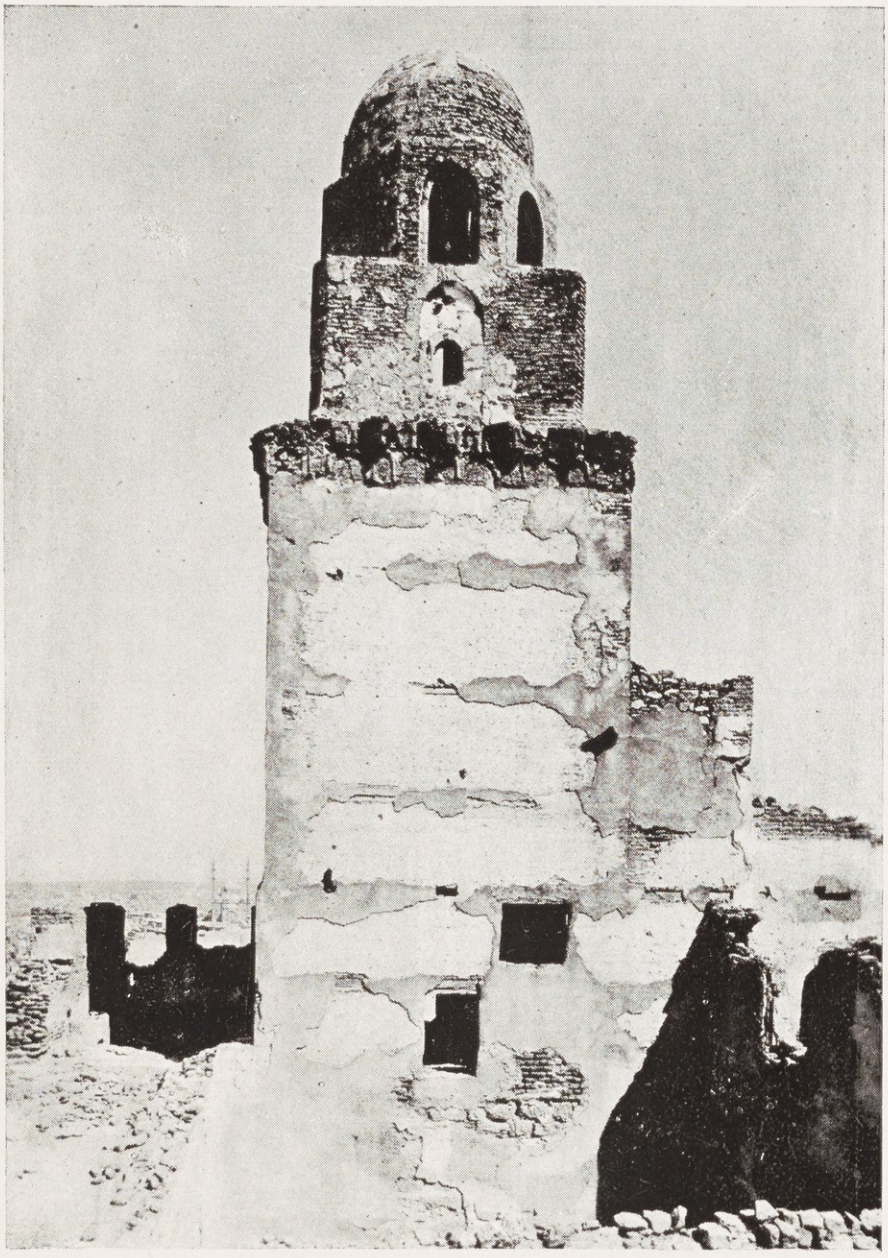

(شكل رقم ٣)

منـــارة الجيوشى

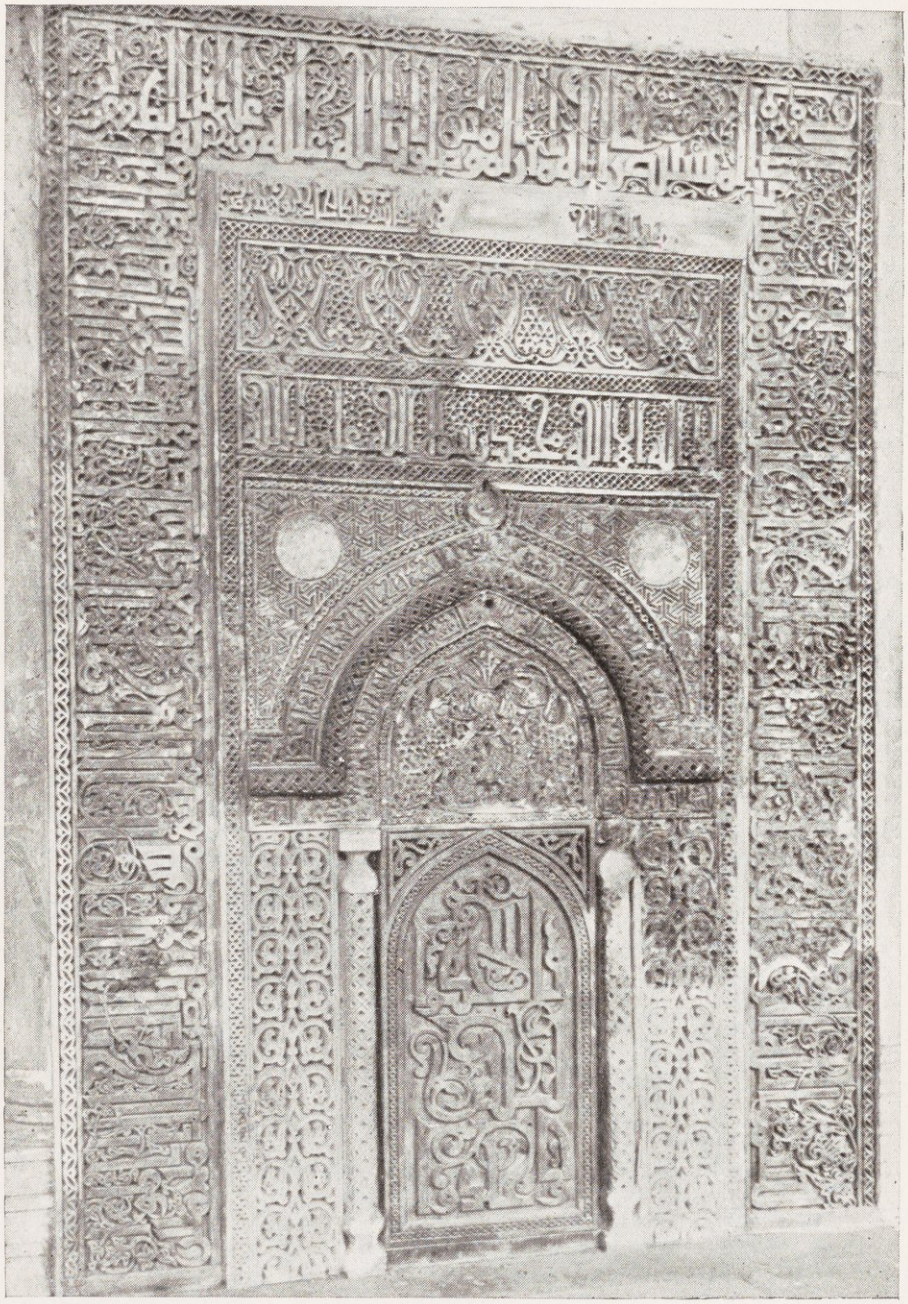

(شكل رقم ٤)

المحراب المستنصرى

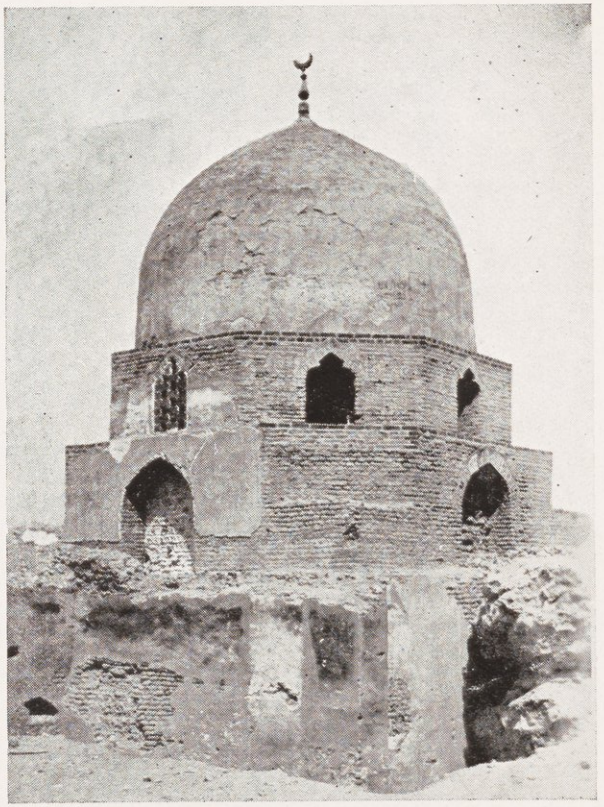

(شكل رقم ٥)
قبر أختى يوسف

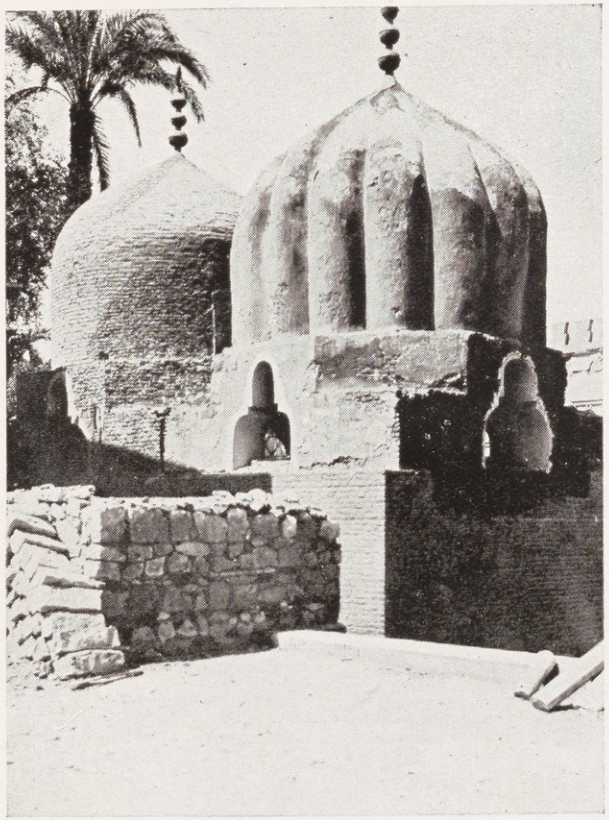

(شكل رقم ٦)
قبتا عاتكة والجعفرى

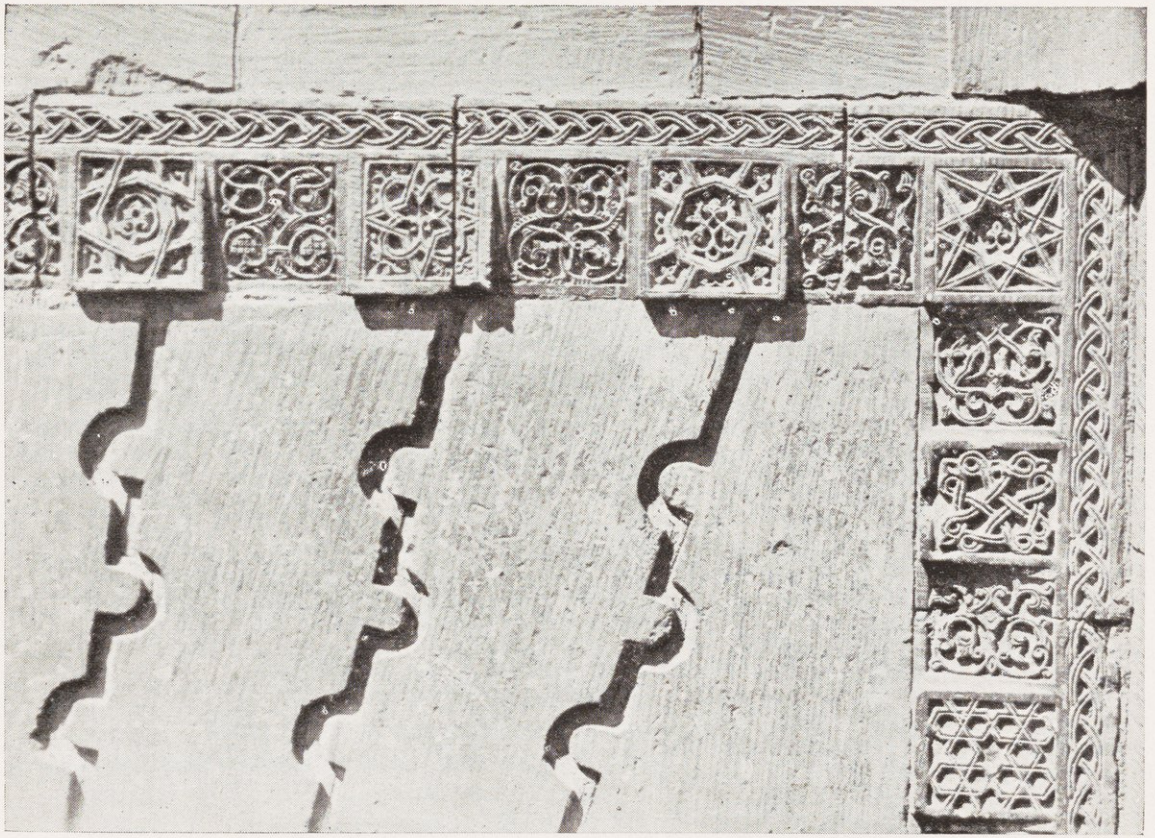

(شكل رقم ٧)

باب تربة اسماعيل بن ثعلب

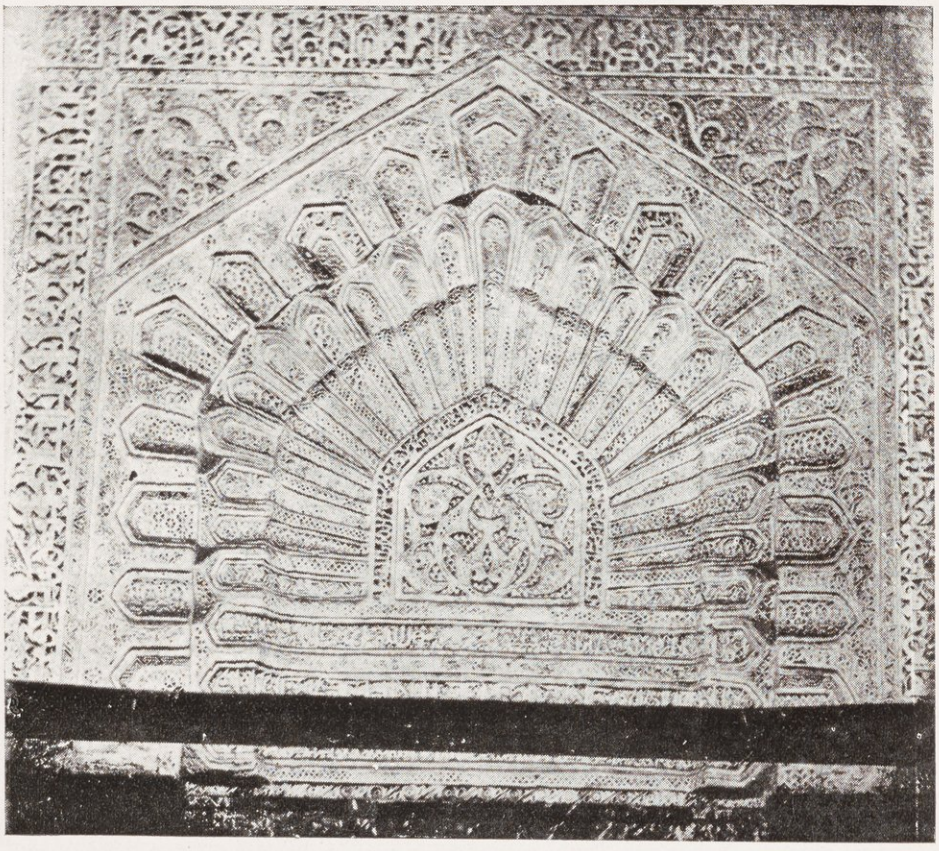

(شكل رقم ٨)

زخارف جصية بقبة الخلفاء العباسيين

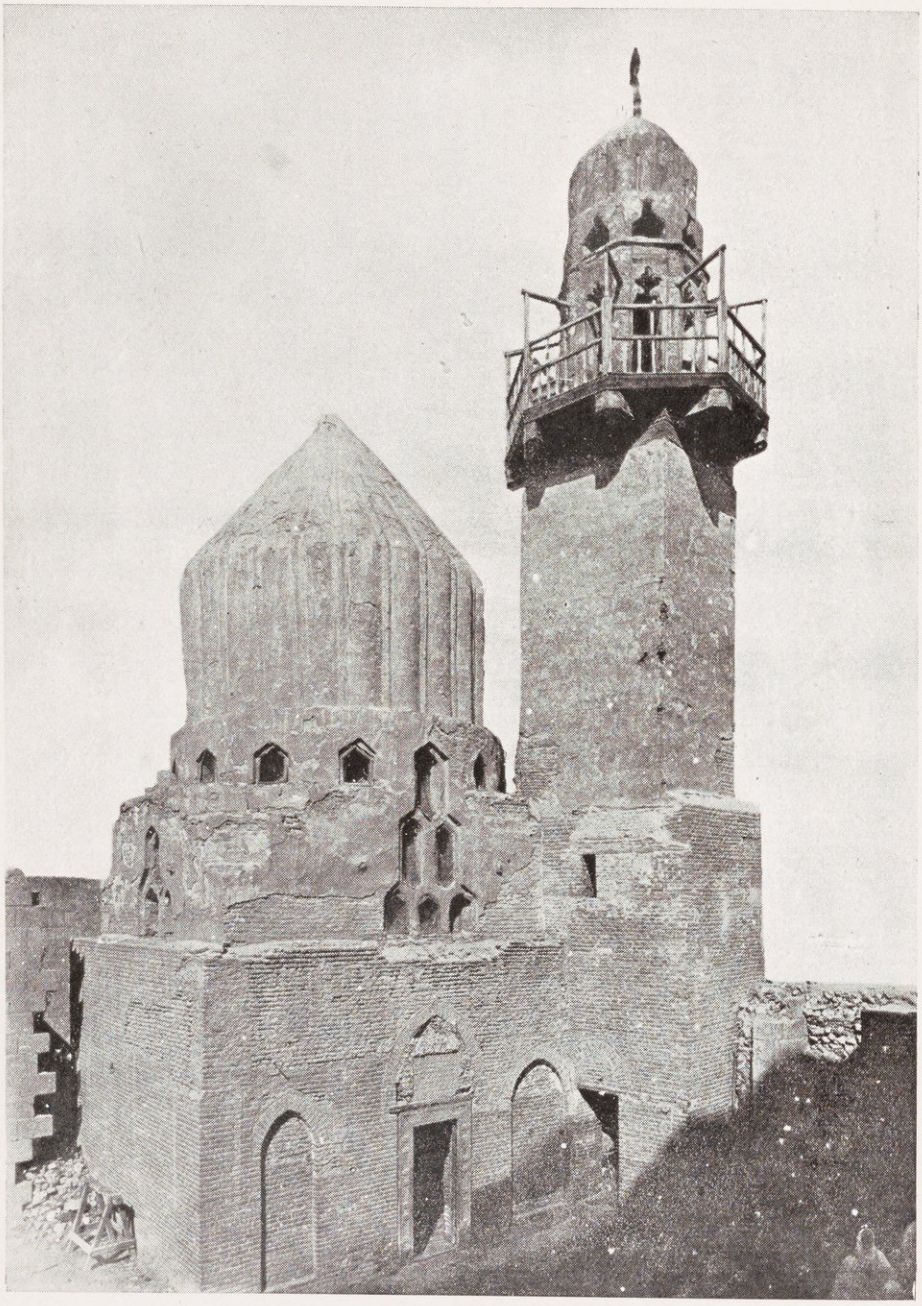

(شكل رقم ٩)

قبة ومنارة أبو الغضنفر

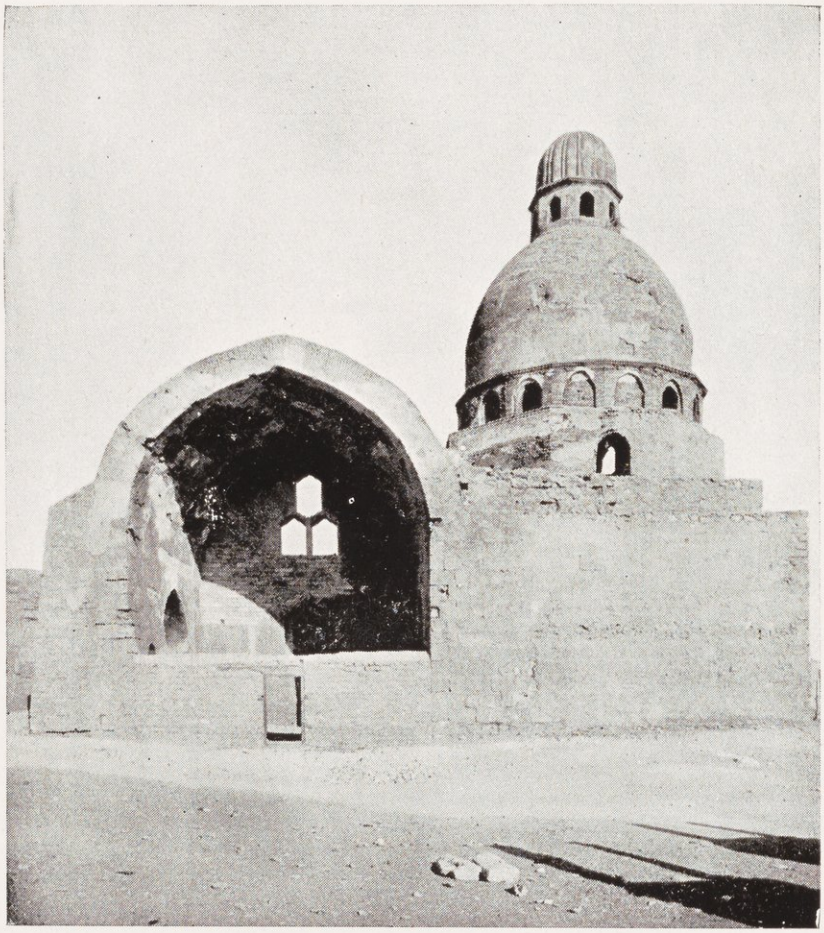

(شكل رقم ١٠)

قبـــة المنـــوفى

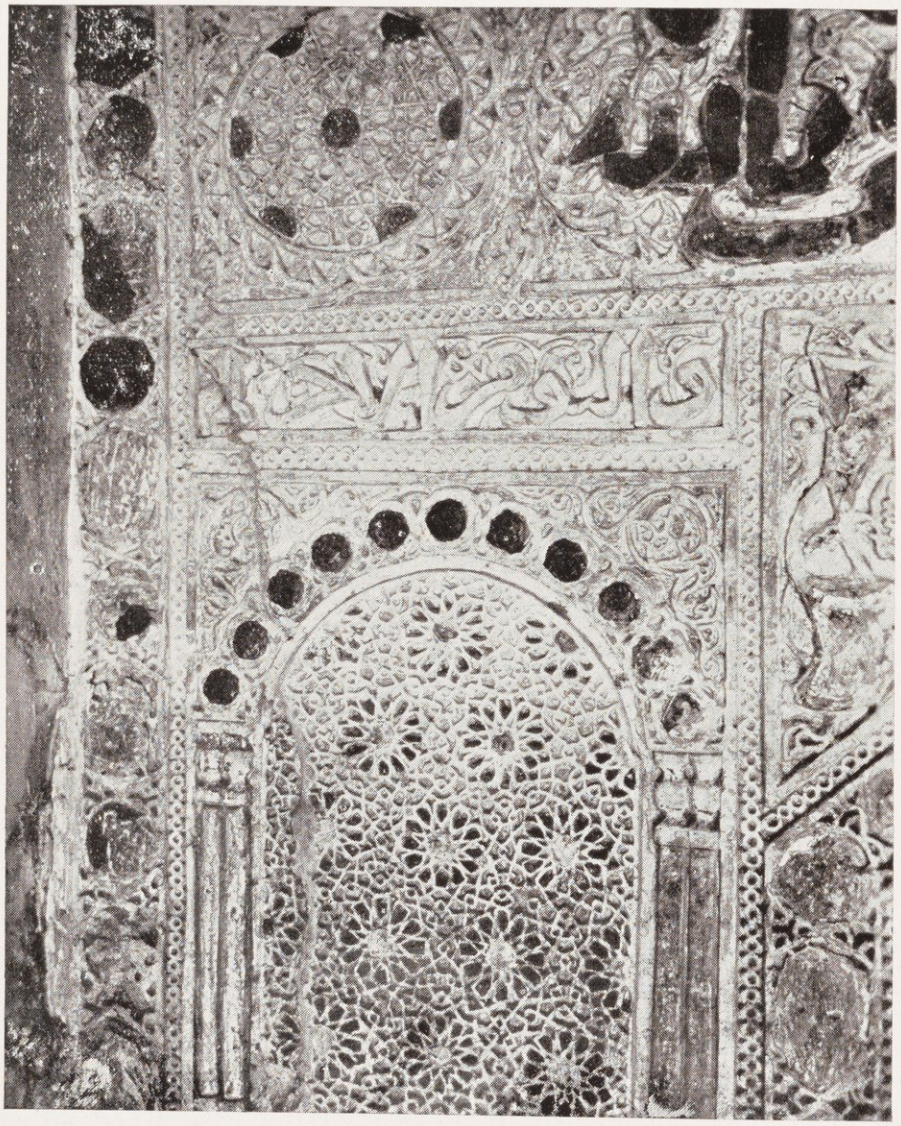

(شكل رقم ١١)

تفاصيل من الزخارف الجصية وزجاجها بقبة أحمد بن سليمان

(شكل رقم ١٢)

جامع الجـــاولى

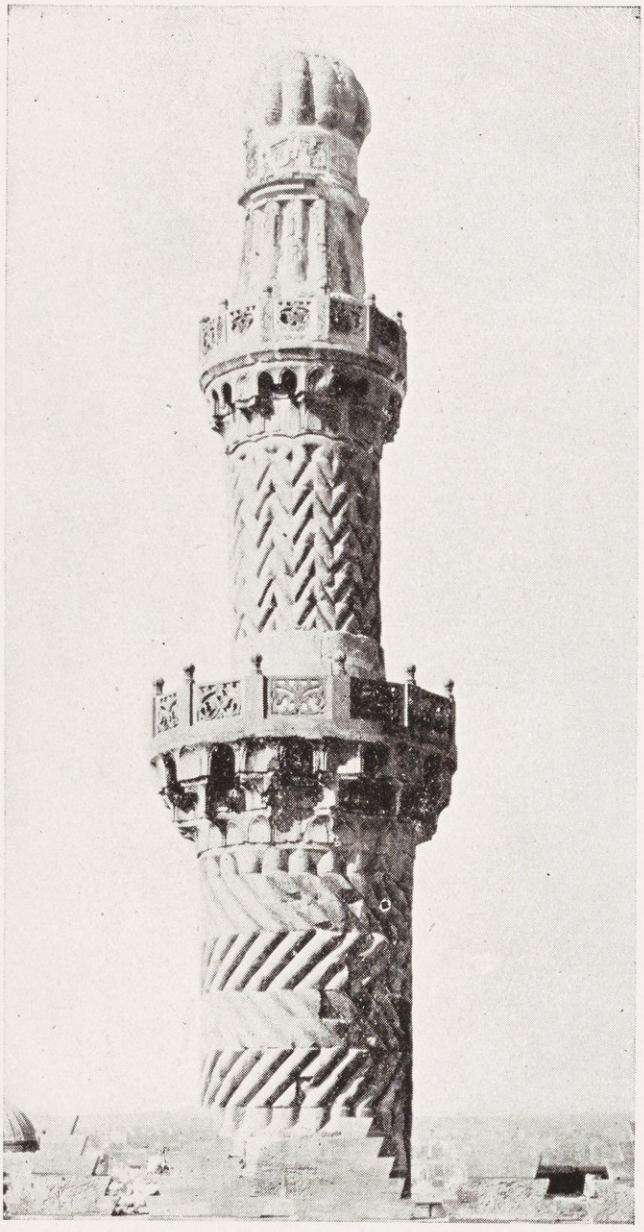

(شكل رقم ١٣)

منارة الناصر محمد بالقلعة

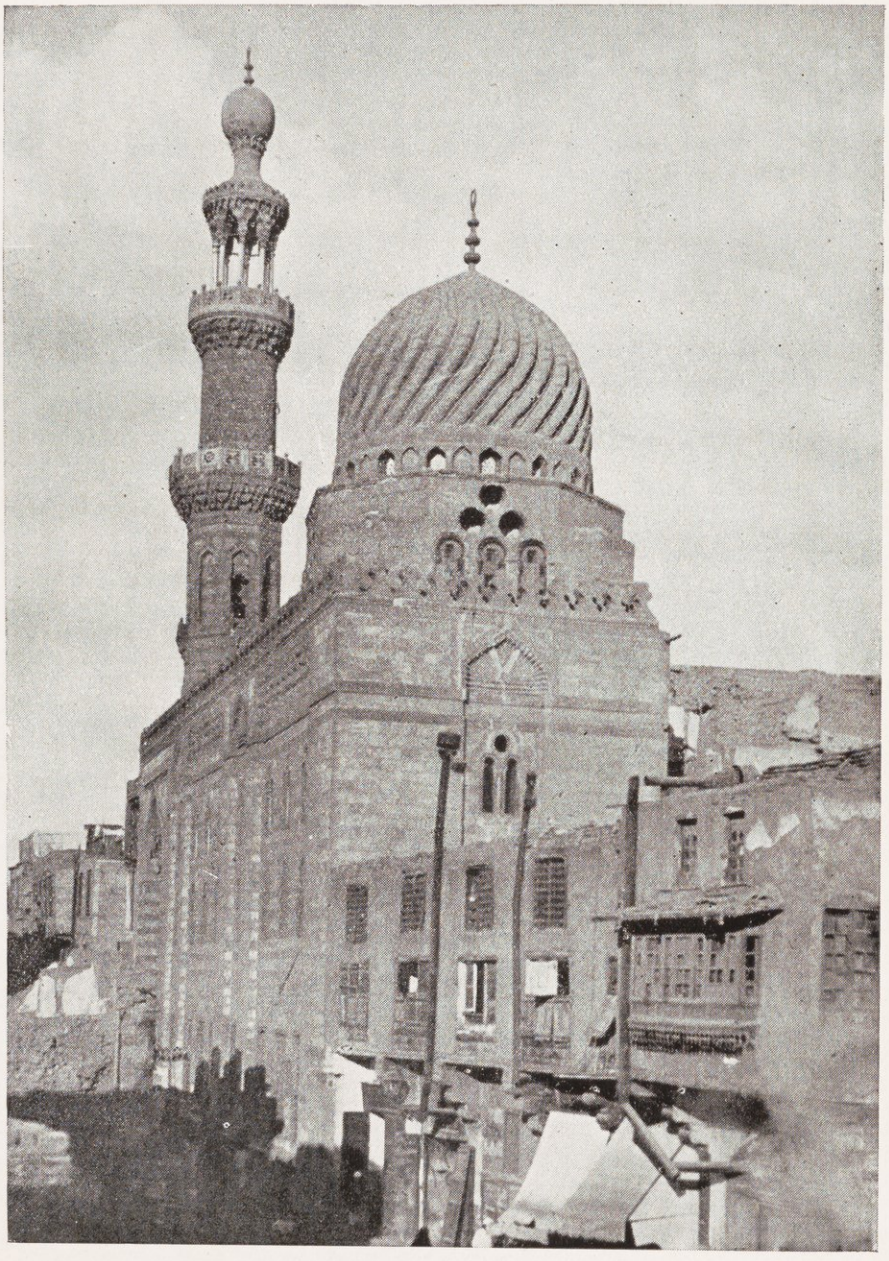

(شكل رقم ١٤)

منارة وقبة الجاى اليوسفى

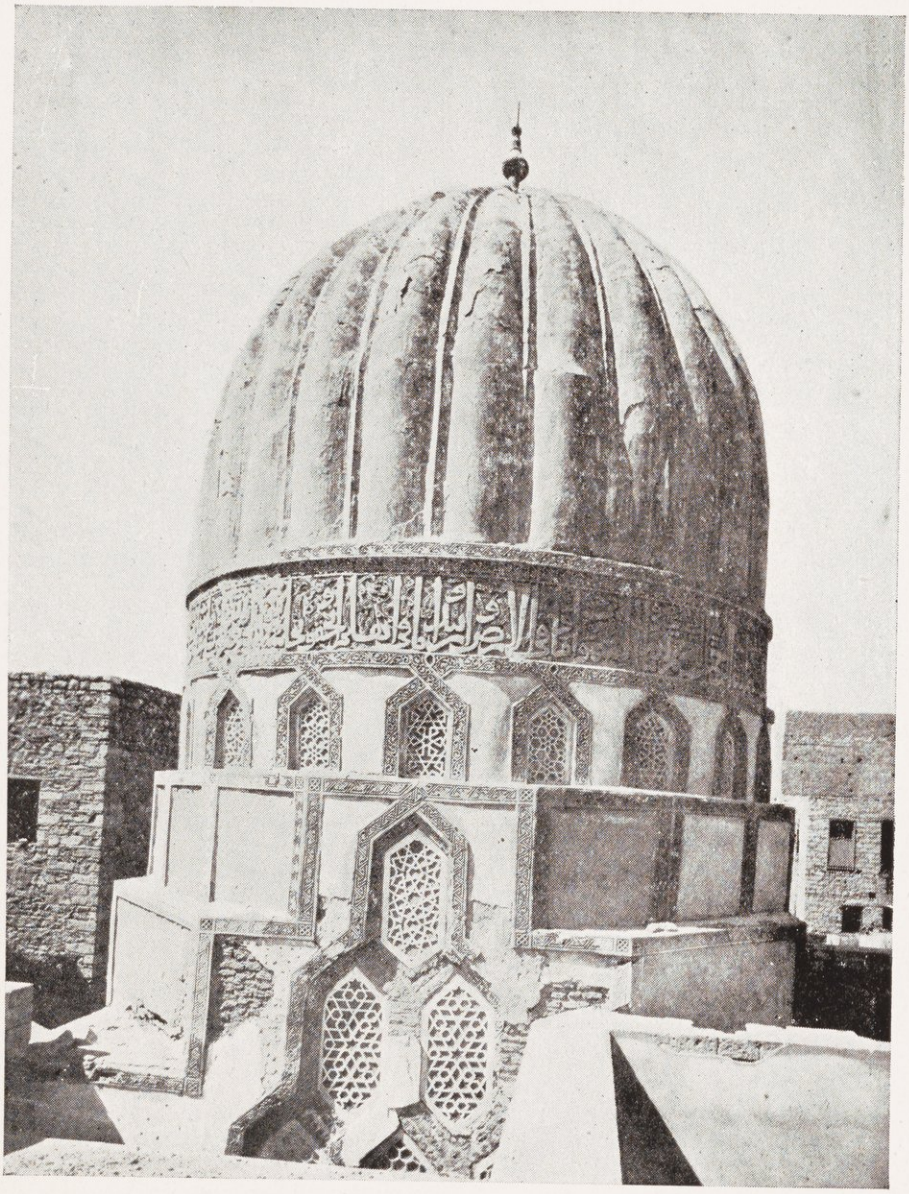

(شكل رقم ١٥)

قبة زين الدين يوسف

(شكل رقم ١٦)

قبـــة تنكزبغا

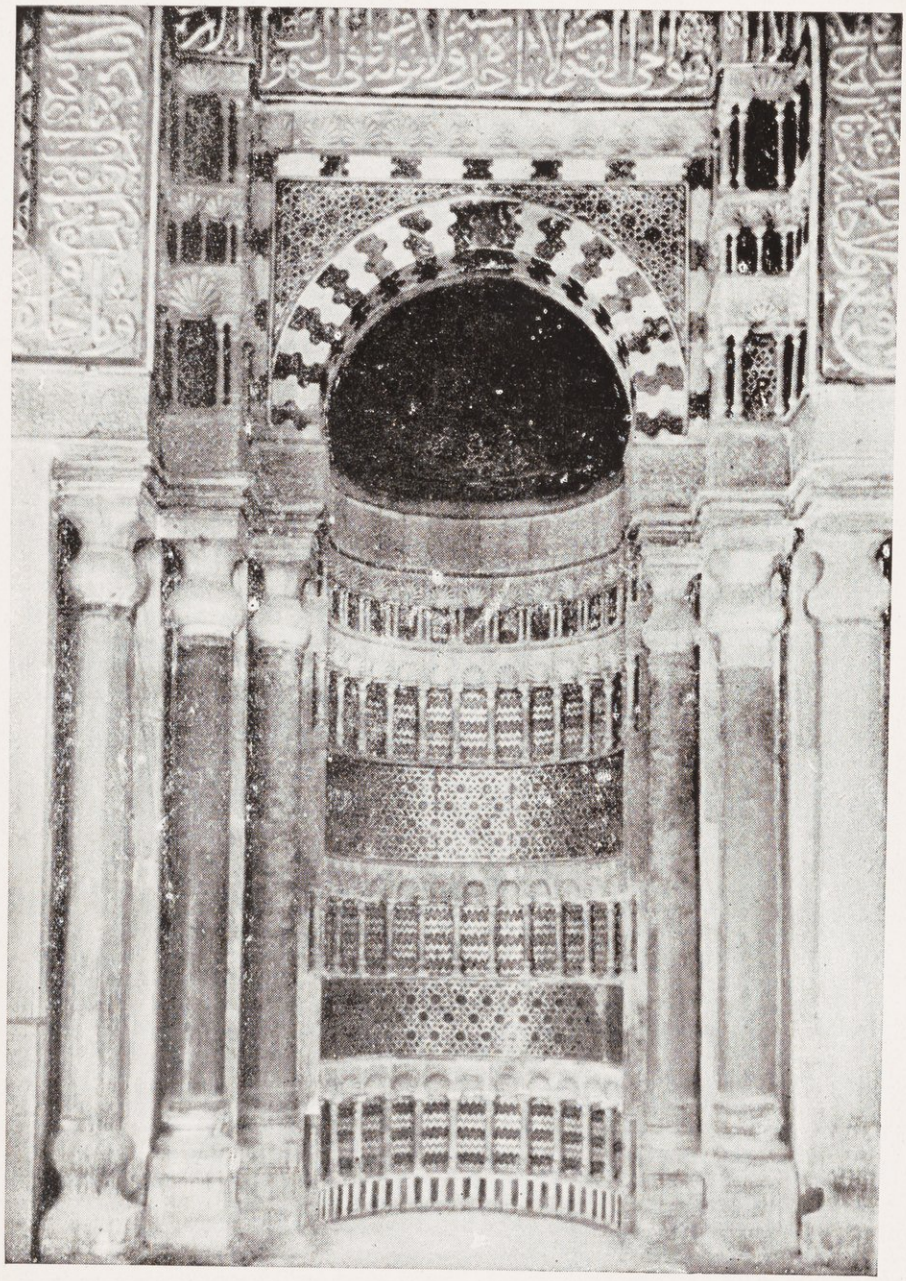

(شكل رقم ١٧)

محراب قبـــة قلاون

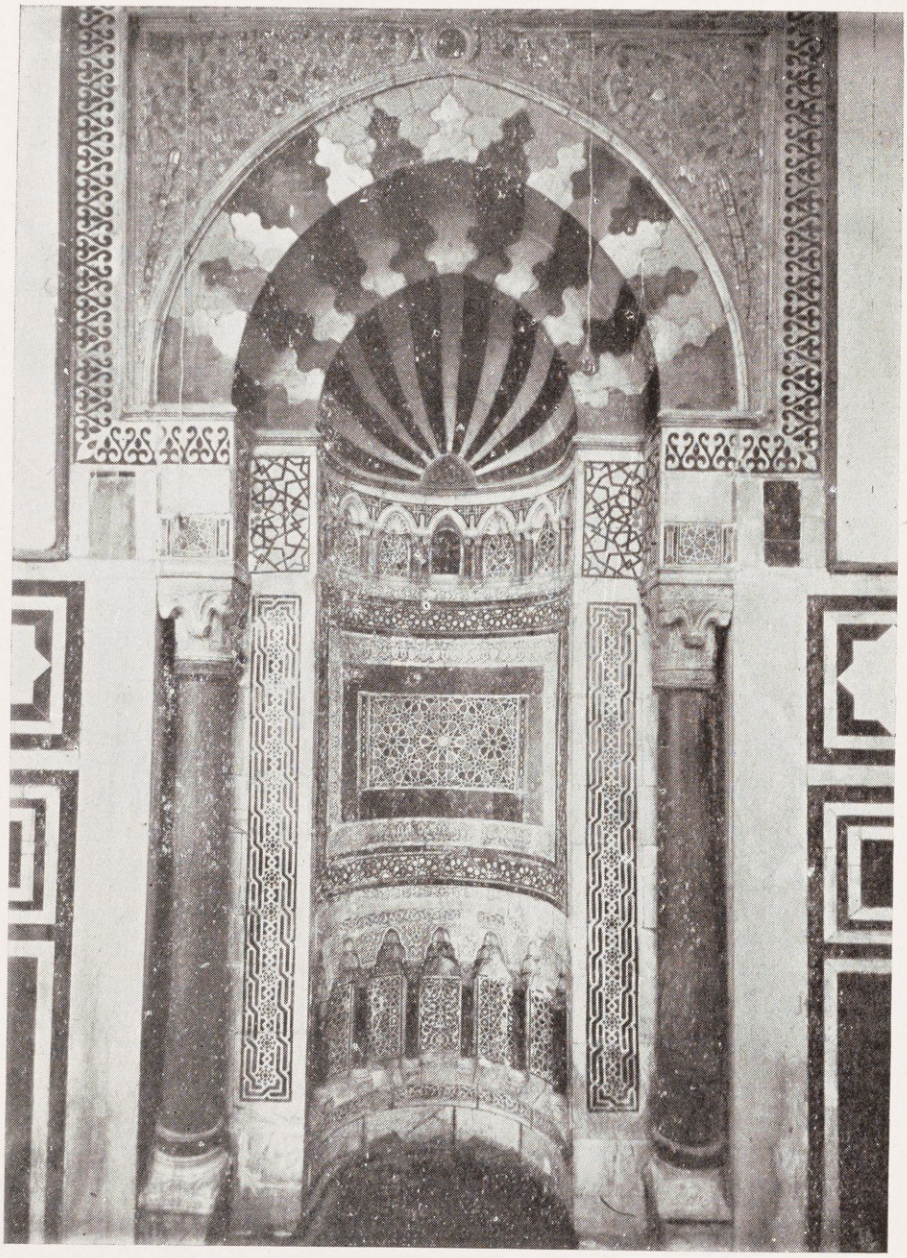

(شكل رقم ١٨)

محراب المدرسة الطيبرسية

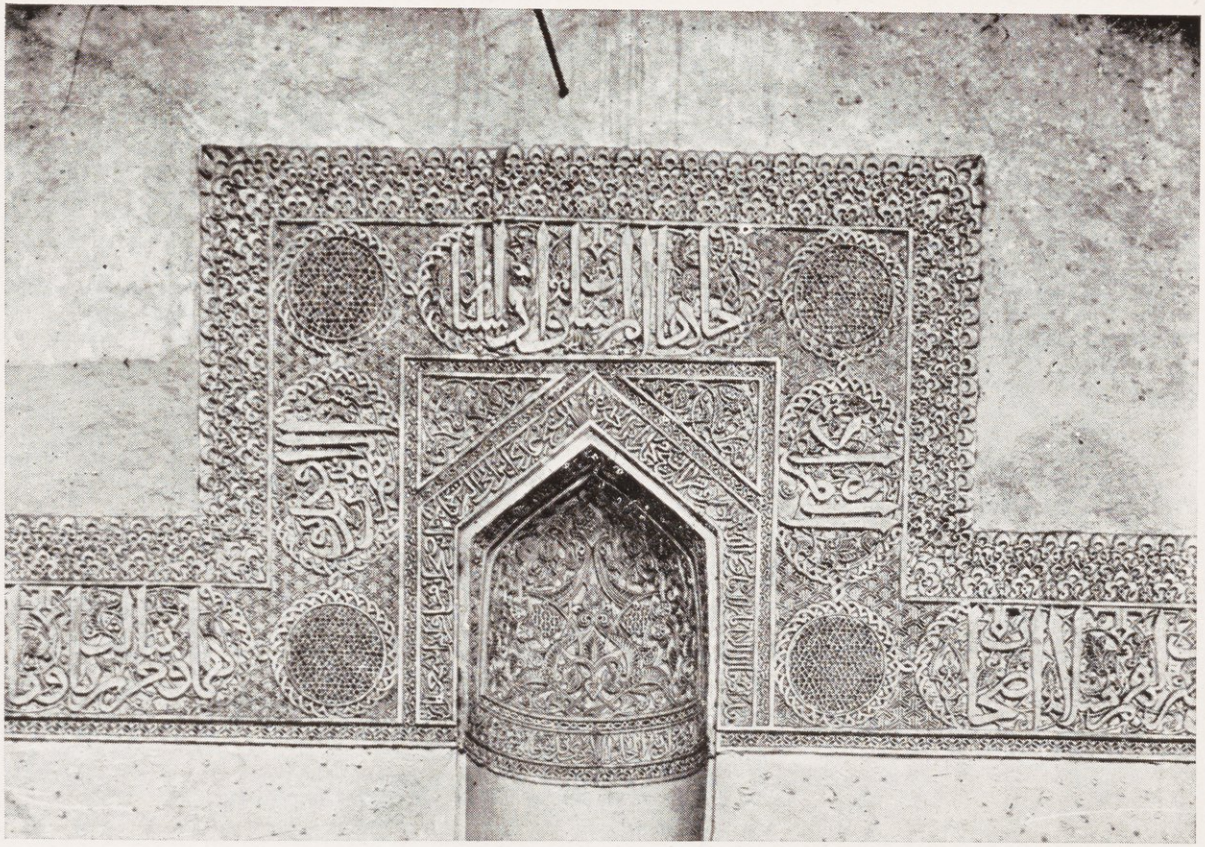

(شكل رقم ١٩)

محراب زاوية زين الدين يوسف

(شكل رقم ٢٠)

جامع السلطان برقوق

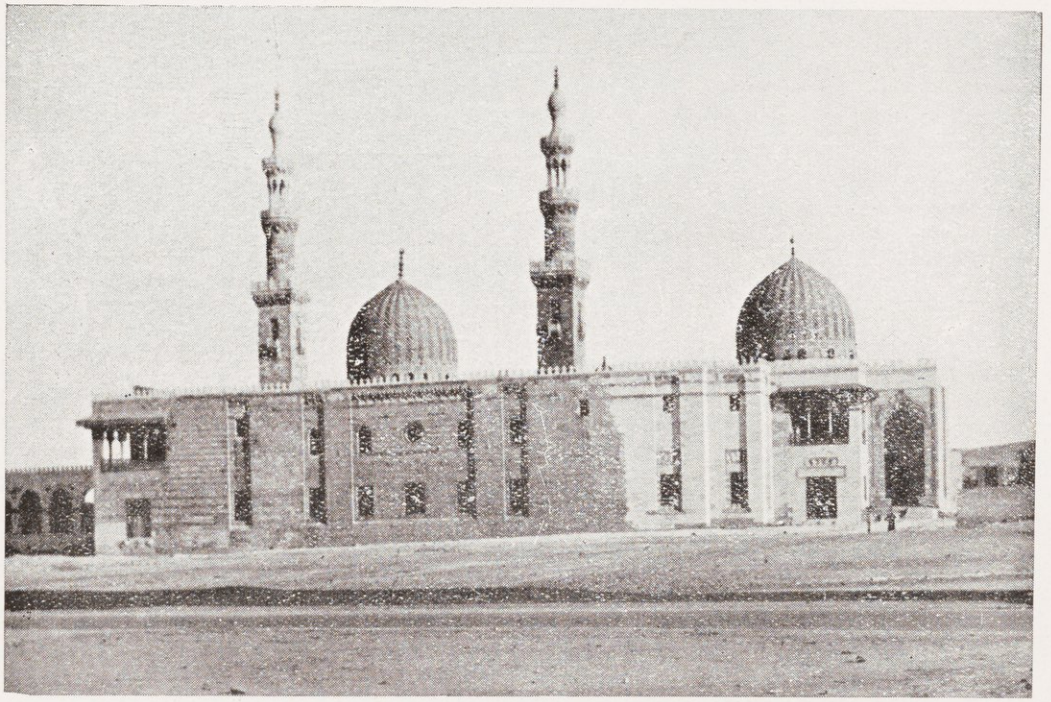

(شكل رقم ٢١)

خانقاه السلطان فرج بن برقوق

(شكل رقم ٢٢)

مسجد قايتباى بالصحراء

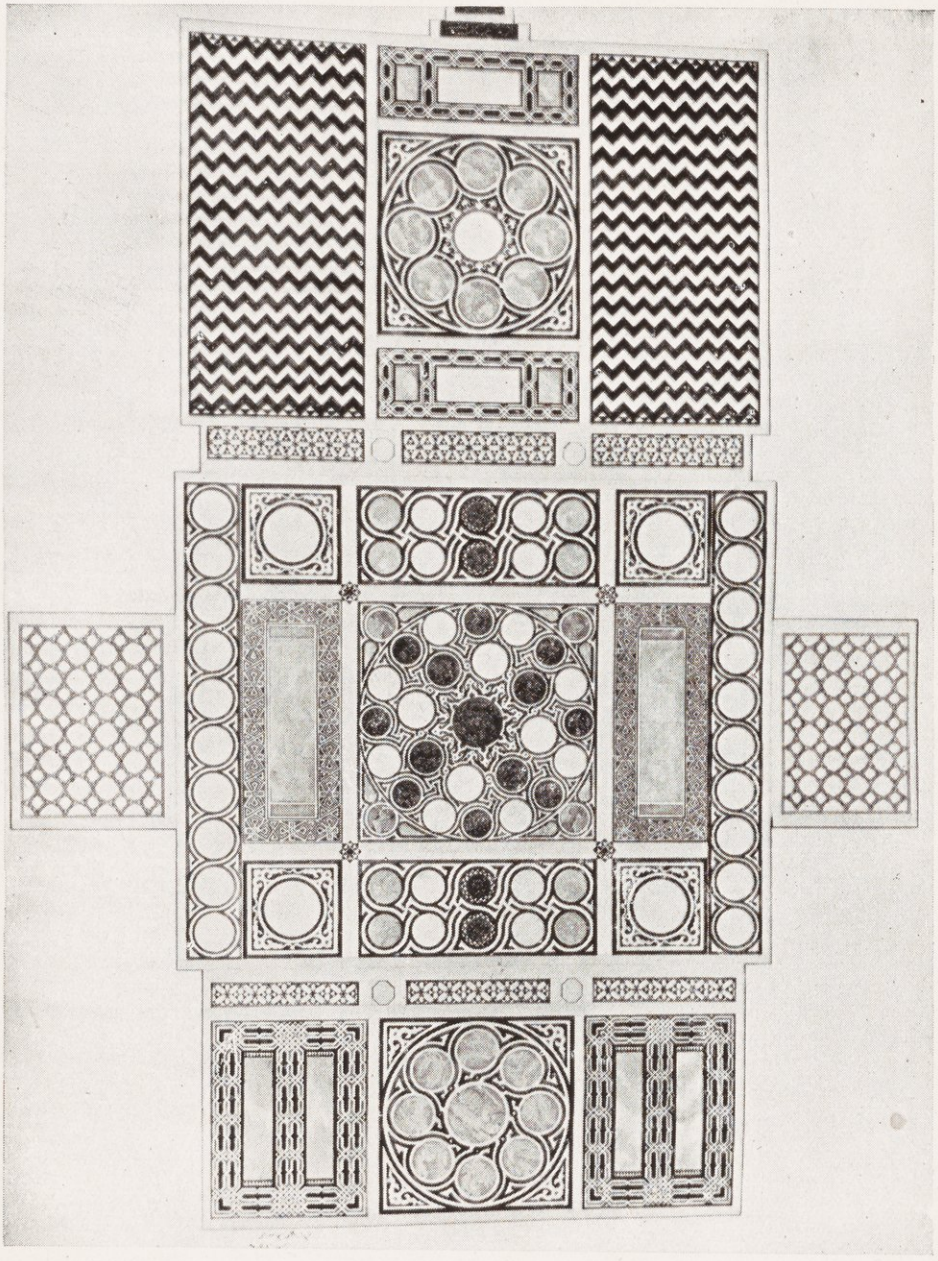

(شكل رقم ٢٣)

أرضية رخامية بمسجد أبى بكر مزهر

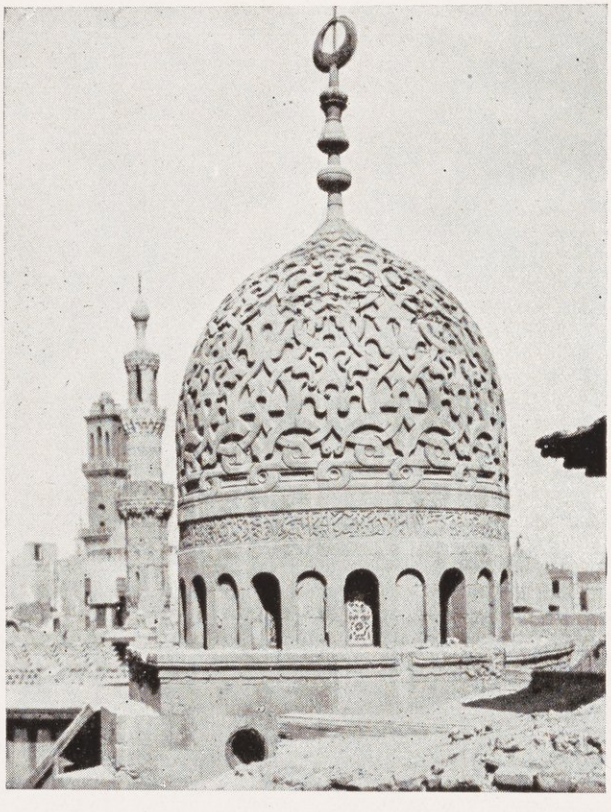

(شكل رقم ٢٤)

قبة المدرسة الجوهرية

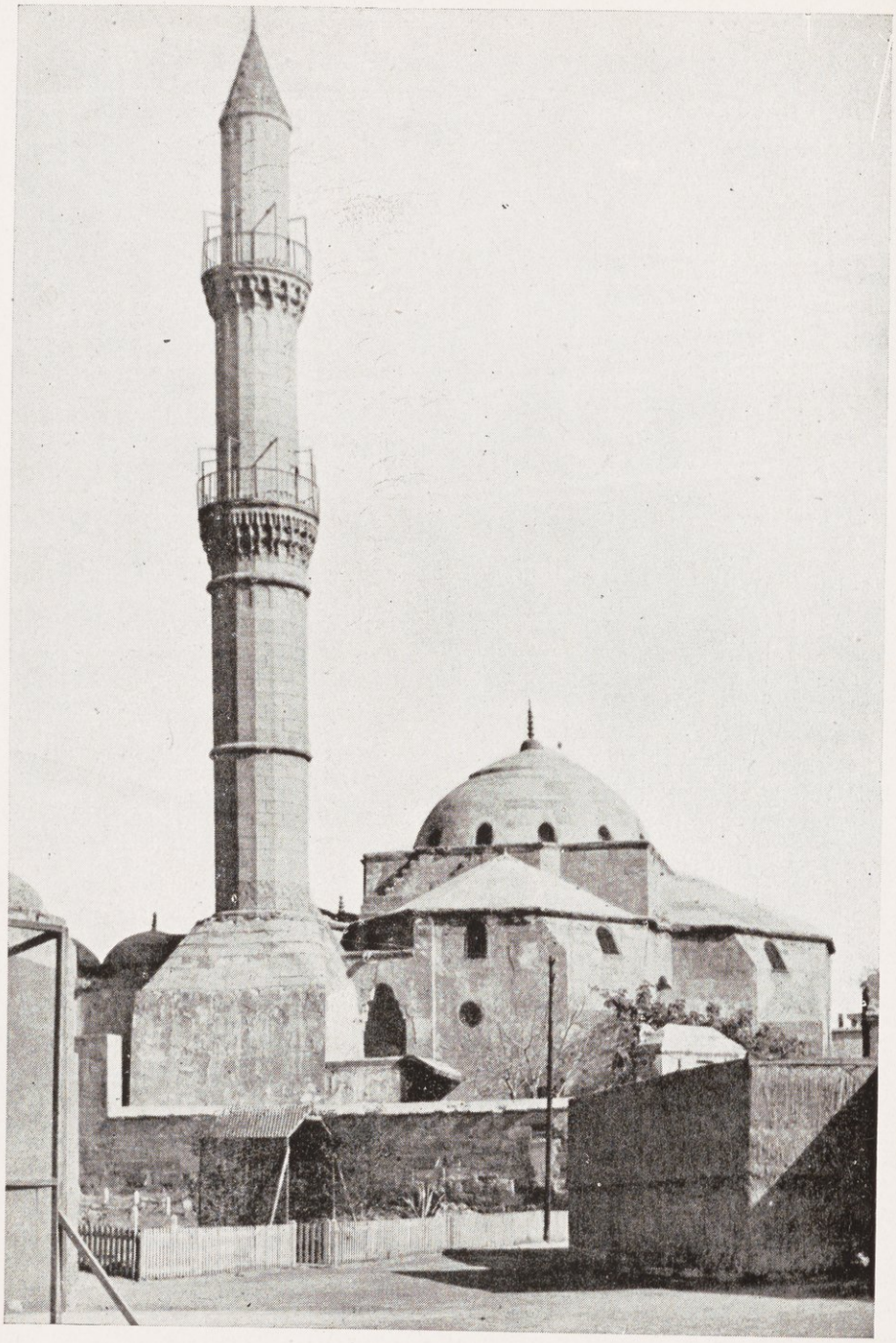

(شكل رقم ٢٥)

مسجد سليمان باشا بالقلعة

(شكل رقم ٢٦)

منزل الجريدلية

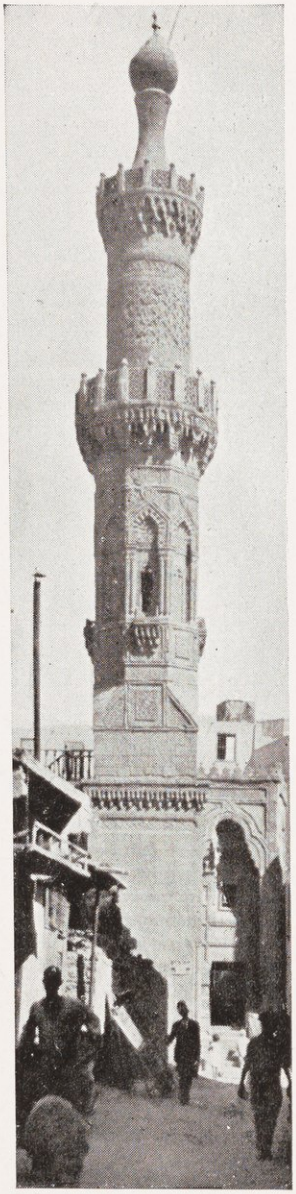

(شكل رقم ٢٧)

واجهة مسجد البرديني ومنارته

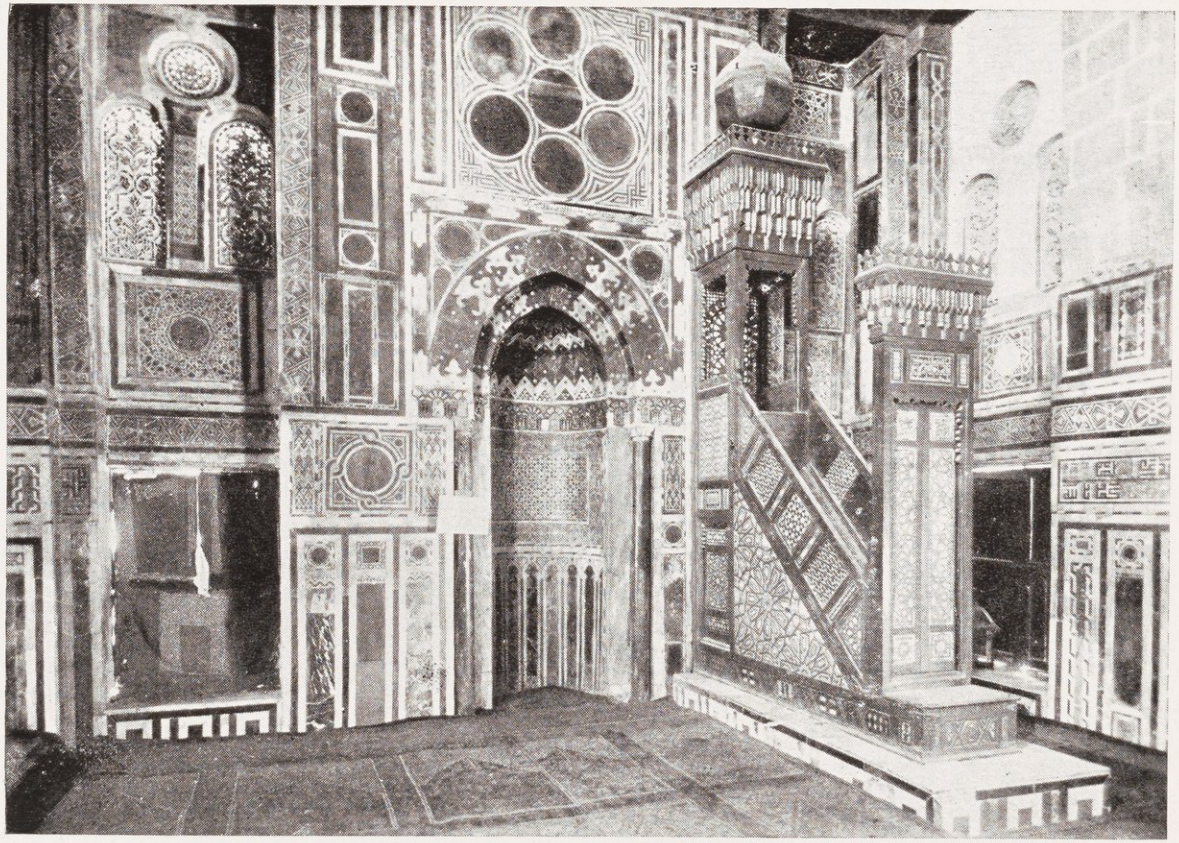

(شكل رقم ٢٨)

داخل مسجد البرديني

(شكل رقم ٢٩)

مسجد محمد على باشا الكبير

هذا وقد شيد مساجده على الطراز العثمانى البحت ، فمسجده الكبير المشيد سنة ١٢٦٥ هـ بنى على مثال مسجد السلطان أحمد بالآستانة ، كما أقيم المسجد الذى أنشأه بالخانكاه على الطراز التركى البحت . أما المساجد المعاصرة له فقد أنشئت على الطراز الإسلامى البحت فى تصميمها وتفاصيلها ، مثل مسجد حسن باشا طاهر ١٢٢٤ هـ ١٨٠٩ م ومسجد الجوهرى سنة ١٢٦٥ هـ ١٨٤٨ م .

والخلاصة : أن العمارة الإسلامية فى القاهرة امتازت بميزتين : الأولى أنها احتفظت بالكثير من التفاصيل المعمارية التى انعدمت أو قلت من الأقطار الأخرى التى كانت تشترك معها فيها . والثانية أنها انفردت بميزات اقتصرت عليها ، مثل القباب والمنارات ودقة أعمال النجارة والجص والرخام ، ميّزتها على كثير من سائر الأقطار الإسلامية .

رحلة إلى مأرب

محاضرة الأستاذ أحمد فخرى

مقـــــدمة :

فى يوم الخميس ١٠ من جمادى الآخرة عام ١٣٦٦هـ الموافق أول مايو عام ١٩٤٧م بدأت رحلتى من صنعاء إلى بلاد المشرق وبلاد الجوف ، وكان الفضل فى ذلك إلى حضرة صاحب الجلالة أمير المؤمنين المتوكل على الله رب العالمين الإمام يحيى ملك اليمن الذى أمر باعداد هذه الرحلة على نفقة الدولة ، كما تفضل فأمر بعمل كل ما من شأنه المساعدة على نجاحها . وقضيت فى زيارة تلك المناطق أربعة وعشرين يوما على ظهور البغال زرت أثناءها بلاد الحضارتين السبئية والمعينية وفحصت أطلال صرواح وسد مأرب ومنطقة مأرب ، ثم ذهبت إلى بلاد الجوف ، فزرت خربة سعود ، وبراقش ، ومعين ، ومدينة هرم ، وكمنة والسودة ، وفى العودة مررت بعمران . وجميع هذه البلاد تحتوى على بقايا معابد هامة تمكنت من أخذ صور فوتوغرافية لها ، كما نقلت جميع ماوقعت عينى عليه من النقوش فى صرواح والسد ومدينة مأرب . وبحثى اليوم لن يتناول نتائج هذه الرحلة أو ما أضافته من معلومات جديدة إلى دراسات بلاد العرب الجنوبية ، وإنما يقتصر على ناحية واحدة فقط ، وهى « سد مأرب » الشهير والمنطقة التى حوله .

وصف منطقة مأرب :

تقع بلاد مأرب على مسيرة خمسة أيام بالبغال أو بالجمال إلى شرقى صنعاء ، وليس هناك فى تلك الجهات طرق صالحة للسيارات ، لأن الجبال الشاهقة ومجارى السيل تقف دون ذلك . وفى نهاية اليوم الرابع يصل المسافر إلى صرواح وهى فى صميم بلاد المشرق ، وتقع وسط واد متسع كبير يكاد يكون مستديراً ، وتحيط به الجبال . وقد كان هذا الوادى

مزروعاً وهناك بقايا سد لمياه السيول ، وفى وسط الوادى تقريباً نرى بقايا المدينة القديمة وفيها المعابد المختلفة والحصن ، وكلها من الحجر الجيرى والجرانيت والمرمر . وقد نقلت فى صرواح واحداً وخمسين نقشاً ، بعضها على واجهات معابد ما زالت مطمورة فى الأرض ، ومن هذه النقوش يوجد على الأقل عشرون لم يسبق لأحد الرحالين أن رآها من قبل ، إذ أنها جديدة لم تظهر إلا منذ عهد قريب

وعلى مسيرة تسع ساعات شرقى صرواح يصل المسافر إلى موقع سد مأرب وهو واقع عند مكان يقال له « الضيقة » بين جبلى بلق ، وتسير « سايلة ذنة » فى بلاد متعددة فى اليمن ، وتتجمع فيها السيول إلى أن تصل إلى هذا المكان وتسير فى الضيقة وتتجه إلى مأرب . وهذه المياه تضيع الآن فى الرمال ، ولا يكاد ينتفع بها أحد ، أما فى العصر القديم فان القدماء استغلوها كما استغلوا غيرها ، فأقاموا السدود فى اليمن ، وأهمها وأشهرها كلها سد مأرب الذى بنوه عند الضيقة ، ويقع على مسافة تسعة كيلومترات تقريباً غربى مدينة مأرب .

وبلدة مأرب الحالية مبنية فوق إحدى أكوام المدينة القديمة المتسعة الأرجاء ، وهى تتوسط واديا متسعاً فسيح الأكناف على أكبر جانب من الخصب . وقبل أن أصف ما بقى من بلاد مأرب أو السد ، أبدأ بذكر ما نعرفه من أقوال العرب عن ذلك :

سد مأرب فى كتابات العرب :

يرجع الفضل الأكبر فى شهرة سد مأرب إلى ذكره فى القرآن الكريم ، وما اقترن بتهدمه أثناء سيل العرم من تفرق القبائل وخراب البلاد . جاء فى سورة سبأ :

« لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال . كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

وبالرغم من أن سيل العرم وتهدم السد كانا فى وقت غير بعيد من ظهور الإسلام (بين عامى ٥٤٣ ، ٥٧٠ ميلادية) فان كتاب العرب والمفسرين أدخلوا خرافات ومبالغات كثيرة فى أخبار هذا السد ، خصوصاً عند ذكرهم لأسماء الذين بنوه أو تهدم فى أيامهم ، كما وجد الخيال مرعى خصيباً فى اختراع السبب الذى أدى إلى تهدمه ، وأظهر هذه الروايات أن جرذاً ذا مخالب من حديد وأنياب من حديد ، قرض حجر السد فسالت مياهه وتهدمت[1] .

ولكن مهما كان رأينا فيما ذكره كتاب العرب فانا نرى أنفسنا مضطرين إلى الإعجاب بوصف أحد مؤلفيهم ، وهو الحسن الهمدانى مؤلف كتاب الإكليل ، فهو يمنى الأصل زار آثار اليمن فى القرن العاشر الميلادى ووصفها فى الجزء الثامن من كتابه الذى تغنى فيه بمجد بلاده ، قال : « وجدت فى إحداها (يقصد الجنتين اللتين ورد ذكرهما فى القرآن) عريق أراك ، وفى أصله جذع نخلة أسود قد كبست باقيه السوافى ، فقال بعض من كان معى لا أظنه إلا من بقايا نخل الجنتين ، وما أحسب أنه بقى من العصر القديم . وأما مقاسم الماء من مذاخر السد فيما بين الضياع فقائمة كأن صانعها فرغ من عملها بالأمس . ورأيت بناء أحد الصدفين باقياً وهو الذى يخرج منه الماء قائماً بحاله على أوثق ما كان ولا يتغير إلا أن يشاء الله عز وجل ، وإنما وقع الكسر فى العرم . وقد بقى من العرم شىء مما يصالى الجنة اليسرى يكون عرض أسفله خمس عشرة ذراعاً » . ثم ذكر الهمدانى أشعاراً كثيرة جاءت فى كلام العرب عن مأرب ومجدها وما آل إليه أمرها ، أهمها ماقاله الأعشى :

ففى ذاك للمؤتسى أسوة ومأرب قفّا عليها العرم
رخام بناه له حمير إذا جاءه ماؤهم لم يرم
فأروى الحروث وأعنابهم على ساعة ماؤهم ينقسم
فعاشوا بذلك فى غبطة فجارفهم جارف منهزم
فطار القيول وقيالها ببهماء فيها سراب يَطُم[2]

---

(١) ياقوت ج ٤ ص ٣٨٣ ، حمزة الأصفهانى ص ١٢٦ ، الأغانى ج ١٦ ، ص ٧٢ وانظر أيضاً جورجى زيدان — العرب قبل الاسلام ١٥٠ — ١٥١ ، نبيه مؤيد العظم — رحلة فى بلاد العربية السعيدة ج ٢ ص ٥١ — ٥٥

(٢) يطم : يعلو ويغلب .

الرحالون الأجانب :

وبرغم شهرة هذا السد وموضوع تخريبه وذكر ذلك فى كتب التفسير فان العالم بقى فى شك فى أمره حتى منتصف القرن التاسع عشر عندما تمكن الصيدلى الفرنسى « يوسف توماس أرنو » عام ١٨٤٣، من الوصول إلى مأرب . وقد لاقى هذا الشخص صعاباً كثيرة ، ولم تنشر مذكراته إلا بعد أن فقد بصره وقام غيره بذلك ، وقد تمكن أرنو من رسم منطقة السد كما نقل بعض النقوش السبئية التى رآها هناك [١] .

وفى عام ١٨٧٠ أرسلت وزارة المعارف الفرنسية العالم « يوسف هاليفى » لنقل كل ما يستطيع نقله من النقوش السبئية لنشرها فى ال (Corpus Inscriptionum Semiticarum) فكان هاليفى أول وآخر أوربى استطاع زيارة بلاد مأرب وبلاد الجوف ونجران معاً وقد تعرض للخطر ، واحتمل المرض والمشاق فى سبيل العلم ، ولا شك أن الكثير من نجاحه يعود إلى مساعدة اليهود له ، إذ أنه لبس ملابس اليهود اليمنيين ودلى سوالفه على جانبى رأسه، وكان أدلاؤه منهم فى داخل البلاد، وكان يحل عليهم أينما نزل ، وعاد هاليفى من اليمن بعد أن نقل ٦٨٦ نقشاً منها ١١ فقط سبق أن نقلها غيره ، ويذكر هاليفى أنه نقل ٩ نقوش فى سد مأرب ، و١٢ نقشا فى المدينة نفسها ، و٧ نقوش من الأحجار التى فى الحيانة [٢] .

وفى عام ١٨٨٢ بدأ ادوارد جلازر رحلاته إلى اليمن ، ولكنه لم يستطع الذهاب إلى مأرب إلا فى رحلته الثالثة عام ١٨٨٨ ولم يستطع ارتياد بلاد الجوف بنفسه، ولو أنه كان يرسل مع البدو ورق « استمپاج » ليحصل على صورة النقوش ، ونستطيع أن ندرك بسهولة أن العمل بهذه الطريقة جاء ناقصاً لأن البدو لم يعتادوا الدقة فى مثل هذا

---

(١) Relation d'un voyage à Mareb (Saba) dans l'Arabie Méridionale, entrepris en 1843 par M. Arnaud ; فى Journal Asiatique, 4e série, T.V.(Paris 1845), p. 211 - 245 ; 303 - 435.

(٢) J. Halévy. Rapport sur une mission archéologique dans le Yemen, Journal Asiatique, 6e série, T. XIX, Paris 1872, p. 5-38, 129-266, 489-547 أنظر أيضاً مقاله Voyage au Nedjran, Bulletin de la Société de Géographie, 6e série T. VI, 1873 p. 5-31, 249 - 273, 581, 606.

العمل كما أنهم كثيرا ما نقلوا على ورق الاستمپاچ أجزاء من أحد النصوص وتركوا أجزاء أخرى ، ولهذا بقيت نقوش هاليفى منذ عام ١٨٤٣ إلى اليوم هى المصدر الوحيد الجدير بالثقة فيما يختص بالجوف .

وبالرغم من أن رحلة « جلازر » إلى مأرب لم تتم إلا بفضل مساعدة وتشجيع الوالى التركى فى اليمن إذ ذاك واسمه عثمان باشا ، وأنه ترك صنعاء ومعه رئيس أشراف مأرب ، وكان يلبس ملابس علماء المسلمين ، وادعى أنه مسلم وأن اسمه الحاج حسين ، فقد لقى الكثير من الأخطار وتعرض للقتل ، لأن قبيلة عبيدة القوية لم ترتح إلى دخول شخص غريب إلى البلاد . ويجب ألا يغيب عن ذهننا أن بلاد المشرق وخاصة منطقة مأرب لم تخضع يوما من الأيام للحكم التركى ، بل لم يجرؤ الأتراك على التعرض لأهل هذا الجزء من بلاد اليمن الذى لم يدخل فى طاعة الإمام يحيى إلا منذ عام ١٩٣٣ . وتعيش هناك قبائل لا تخضع لقانون ، وتحيا اليوم حياة شبيهة بالحياة التى عاشها أجدادهم منذ آلاف السنين ، مع فارق صغير ، وهو فى الوقت نفسه عظيم الأثر ، ذلك هو انتشار الأسلحة النارية بينهم انتشاراً هائلا . وكانت إقامة جلازر أقل من أربعة أسابيع ، ولكنها كانت رحلة مباركة الثمرات ، نقل فيها نقوشاً كثيرة ووضع عدة رسوم للسد والمنطقة التى حوله . ولم ينشر فى حياته إلا القليل ، ولكن مذكراته محفوظة ويرجع إليها المشتغلون بدراسة النقوش السبئية . واشتغل قبل موته كثيرا فى وضع كتاب أراد أن يسميه « سبأ » ولكن المنية عاجلته ، فأتمه اثنان من زملائه ، ونشراه تحت اسم آخر عام ١٩١٣ أى بعد موته بخمس سنوات [١] .

ومضت الأعوام ولم يجرؤ أحد من الرحالين الكثيرين الذين ذهبوا إلى اليمن أن يجرؤ على السفر إلى مأرب ، لما هناك من أخطار ، واكتفوا جميعاً بالذهاب إلى صنعاء أو شمالها بقليل .

---

(١) David Heinrich Müller - N. Rhodokanakis, Eduard Glasers Reise Nach Narib, Vienna 1913.

وجاءت الحرب العالمية الأولى ، وقرر الأتراك الانسحاب من اليمن ، وتولى جلالة الإمام يحيي عرش بلاده ، وكثيراً ما طلب منه الزوار أن يسمح لهم بالسفر إلى مأرب ، ولكنه لم يصرح مطلقاً لأحد بالذهاب لخوفه على حياة ضيوف بلاده . وقد حاول أحد الألمان واسمه « هانز هلفرتز » وهو رحالة معروف أن يصل إلى مأرب عن طريق حضرموت ، ولكن رجال الإمام قبضوا عليه وأحضروه إلى صنعاء ومنها إلى الحديدة دون أن يتمكن من زيارة المنطقة .

وقد سمح مولانا الإمام لاثنين بزيارة المشرق أحدهما الأستاذ نبيه مؤيد العظم الذى ذهب إلى مأرب وفى صحبته عامل المنطقة وعدد غير قليل من الجنود فى عام ١٩٣٦ . وقد نشر الأستاذ العظم مذكراته فى كتاب أسماه « رحلة فى بلاد العربية السعيدة » ومهما اختلف رأى الناس فيما جاء فيه فان لهذا الكتاب قيمته لما فيه من معلومات هامة عن بلاد اليمن ، كما أن الفصلين اللذين تحدث فيهما عن وصف سد مأرب جديران بتهنئة المؤلف بهما . وثانى الشخصين هو الأستاذ محمد توفيق المصرى الجنس الذى سمح له جلالة الإمام بزيارة المناطق الأثرية فى الجوف عام ١٩٤٥ ولكنه لم يسمح له بدخول مأرب . ولم ينشر الأستاذ توفيق شيئاً عن رحلته إلى الآن ، اللهم إلا مقاله فى مجلة الكاتب المصرى عدد شهر أغسطس الماضى ، وقد تكلم فيه عن فضل حضارة اليمن وأشار فيه إلى الرحالين الذين زاروا بلاد المشرق ، وذكر ذهابه إلى الجوف .

وفى هذا العام سمح لى جلالته بالسفر إلى جميع المناطق ، وأظهر — حفظه الله وأعز به اليمن — اهتمامه الكبير بأن أنجح فيما قبلت القيام به . وقبل أن أنتقل إلى نقطة أخرى أرى من واجبى أن أحيي ذكرى هؤلاء الرحالين الذين عرضوا أنفسهم للموت فى سبيل العلم ، وإنى كلما أتذكر المشاق التى نالتنى ، ولا بد أن تعرض لها أيضاً الأستاذان نبيه العظم ومحمد توفيق ، وكل منا لم يذهب إلا وقد رتب له جلالة الإمام أمر زيارته بعد أن استتب الأمن فى مناطق بلاد المشرق والجوف ، وأن كلا منا نحن الثلاثة مسلم عربى — أشعر باحترام وإعجاب كبيرين لأرنو وهاليفى وجلازر ، فلذكراهم خير التحية وأطيب الثناء .

بلاد سبأ ومأرب :

اتصلت الحضارة اليمنية بغيرها من الحضارات منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، إذ ورد على آثار السوميريين منـذ عام ٢٤٠٠ ق . م . إشارات إلى الصلة بينهم وبين الجزيرة العربية ، كما أن المصريين أرسلوا منذ أقدم العصور رحلات تجارية إلى بلاد « پونت » وهى شاطيء بلاد الصومال وما يقابله من شاطىء جنوبى بلاد العرب . فلهذا لم تكن بلاد اليمن بمعزل عن حضارات البلاد الأخرى .

ولم تكن الزراعة فقط هى مصدر ثروة البلاد أو العامل الأول فى حضارتها وتقدمها ، بل كانت التجارة هى العامل الأساسى ، فان تجارة حاصلات الهند وما وراءها من بلاد الشرق الأقصى كانت فى أيدى التجار الهنود الذين كانوا يأتون بسفنهم إلى ثغر عدن فيبيعون تجارتهم من البخور والعطور والمنسوجات والأحجار الكريمة وغير ذلك إلى اليمنيين ، فيأخذها هؤلاء بقوافلهم مخترقين الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال حتى يصلوا إلى أسواق الشام ، ومن هناك تجد طريقها شرقا إلى بابل أو غربا إلى مصر وشمال إفريقية وأوربة ، وتعود تلك القوافل محملة بخيرات وتجارة تلك البلاد فيبيعون بعضها فى الحجاز واليمن والبعض الآخر إلى تجار الشرق الأقصى . ولكى ندرك مدى الأرباح التى كانت تصل إلى أيدى اليمنيين أذكر أن البخور كان يباع بمائة ضعف الثمن الذى اشترى به ، وقس على ذلك الأنواع الأخرى .

وكانت هذه التجارة المصدر الأول لثروة المعينيين ، فتمكنوا من إنشاء السدود لتحسين أحوال الزراعة ، وتمكنوا من إقامة هذه المعابد الضخمة والحصون ، كما أن التجارة كانت أيضاً العامل الأول فى صلة اليمن الثقافية والدينية بغيرها من البلاد ، إذ أنها مهدت السبيل أمام بعض الديانات الأجنبية ، وخاصة ما كان منها فى بابل ، لينتشر فى الجزيرة العربية ، وخاصة فى جنوبها .

وفى أواخر أيام ازدهار المعينيين بدأت مملكة سبأ تظهر فى الوجود ، وكان ذلك قبيل انتهاء الألف الثانى قبل المسيح ، ومن قصة الملكة بلقيس مع سليمان فى القرن العاشر

قبل الميلاد ندرك مدى ما بلغته حضارة سبأ ، وفى أخبار الملك « تيجلات بلسر الثالث » حوالى عام ٧٣٦ ق . م . أنه أخذ من أهل سبأ جزية من الذهب والجمال والبخور . ولورجعنا إلى الآثار السبئية نفسها لوجدنا ذكراً للكثير من الملوك ابتداء من القرن الثامن قبل الميلاد ، ومن النقوش المحفورة على الصخور فى جبل بلق فى الفتحة اليمنى للسد نعرف أن الذى أنشأ سد مأرب وقطع الحجر لتمر منه المياه هو « سمهعلى ينوف » وابنه « يثع أمر باين بن سمهعلى ينوف » وكلاهما عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد .

سد مأرب :

أنشأ ملوك سبأ هذا السد فى القرن الثامن قبل الميلاد ، ولكن البناء الحالى المتهدم يرجع تاريخه إلى القرن السادس الميلادى ، وهو الذى بقى بعد تصدعه فى سيل العرم ، ولم يحاول أحد ترميمه إلى الآن . ولا شك أن هذا السد تصدع مرات كثيرة خلال ال ١٤٠٠ عاما التى ظل يؤدى فيها وظيفته فى رى بلاد مأرب . وفى كل مرة كان المرممون يستعملون كل ما يجدونه صالحاً من الحجارة القديمة ويضيفون أخرى جديدة ويتركون نقوشاً فيها ذكر لما قاموا به ، وهذا هو السبب فى العثور على أسماء عدة ملوك فى هذه المنطقة ، ومجموع ما نقلته من النقوش فى منطقة السد خمسة وثلاثون منها ٨ عند البوابة اليمنى ، و١٧ عند البوابة اليسرى ، و ٨ نقوش فى مبانى مقاسم المياه ، ثم اللوحان الكبيران على مقربة من البوابة اليسرى .

واللوحان الأخيران يشبه كل منهما عمودا كبيرا عليه نقوش فى جوانبه الأربعة وارتفاع أحدهما ٢٤٠ سم والآخر ٢٢٦ سم وأحد اللوحين مؤرخ عام ٥٣٩ والآخر عام ٥٦٥ وسبق لجلازر دراستهما . وفى اللوح الذى أقامه أبرهة الحبشي وذكر فيه انتصاره على الثوار وخضوع البلاد له نرى ذكراً صريحا لتهدم السد وإصلاحه : « وبينما هم فى ذلك (يشير إلى مبايعة الناس له بالطاعة) جاءهم النبأ بتهدم السد والحائط والحوض والمصرف فى شهر « ذو المدرج » سنة ٦٥٧ (الشهر والسنة يمنيان ، والسنة اليمنية تبدأ

عام ١١٥ قبل الميلاد) فأمر بالعفو . . . وبعث إلى القبائل لإحضار الحجارة للأساس وكذلك الحجر الخام (؟) والخشب ورصاص الصب لترميم السد فى مأرب . وتوجه أولا إلى مأرب وصلى فى كنيستها ، ثم عمد إلى الترميم ، فنبشوا الأنقاض حتى وصلوا إلى الصخر وبنوا عليه .

وعلم وهم فى العمل أن القبائل تضايقت من العمل ، ورأى أن قتلهم يعود بالضرر ، فعفا عنهم سواء الأحباش أو الحميريون » .

ويستمر النص فيقول إن الملك عاد إلى مأرب وعقد تحالفاً مع بعض رؤساء القبائل ، وجاءه وفد النجاشى ووفد ملك الروم ورسول من المنذر ورسول من الحارث بن جبلة يخطبون وده ، ويذكر بعد ذلك أنه رمم ما تصدع من السد ، وأن العمل استغرق أكثر من أحد عشر شهرا ، وفرغ من ذلك فى شهر ذو معان سنة ٦٥٨ يمنية وهى ما يقابل ٥٤٣ ميلادية ، وهذا آخر ترميم فى السد .

وصف السد :

سبقت الإشارة إلى فتحة الضيقة بين جبلى بلق التى لا يزيد اتساعها عن ١٨٠ متراً وأن مياه سايلة ذنة تسيل من هذا المكان إلى وادى مأرب العظيم المتسع الأرجاء . ومازالت هذه المياه تتجمع وتأتى متدفقة إلى وادى مأرب ، ولكنها تسير على حافته وتضيع فى الرمال ولا يستفيد منها الأهالى إلا دون القليل ، لأن مستوى أرض الوادي يرتفع أكثر من خمسة أمتار عن قاع السايلة .

وكان أمام المهندس الذى فكر فى إقامة هذا السد غرضان : أولهما الانتفاع مدة أطول من مدة مرور السيل بهذه المياه ، وثانى الغرضين رفع المياه إلى مستوى الوادى وإيصالها إلى مختلف أرجائه الواسعة .

وقد حقق السد هذين الغرضين باقامة حائط ضخم أمام فتحة الجبلين ، وعمل في هذا الحائط فتحتين لتصريف المياه بعد حجزها وارتفاعها إلى خمسة أمتار ، وعلى كل فتحة من الفتحتين البوابات اللازمة لتصريف المياه على حسب الحاجة .

وهاتان الفتحتان أو البوابتان أو القناتان إحداهما إلى اليمين والأخرى إلى اليسار (واليمين هنا هو يمين سير المياه وموقعه الجنوب) فالتى إلى اليمين قطعها المهندس فى الصخر الجرانيتى الذى على حافة الجبل ثم بنى الصدفين الأيمن والأيسر فوق الصخر. فأما الصدف الأيسر فسمكه ١٣ متراً وطوله ٨٠ متراً وارتفاع مبانيه لا يقل عن تسعة أمتار. وقد استعاض المهندس عن الصدف الأيمن بالصخر المرتفع ولكنه بنى بناء واحداً عند مدخل المياه لتثبيت البوابة المتحركة لتصريف المياه والتى يبلغ اتساعها ٤٥٥ سنتيمتراً.

وعدا هذين الصدفين نجد أن الحائط المبنى فوق قاع السايلة لتسيل المياه فوقه ما زال قائماً، كما أنه توجد عدة نقوش مكتوبة على الصخر، منها اثنان يرجع تاريخهما إلى بدء إقامة السد، وقد سبقت الإشارة إليهما.

أما الفتحة الأخرى للسد فتقع عند نهاية الحائط الكبير الذى يبلغ طوله نحو ٦٠٠ متر، وهذه الفتحة هى الرئيسية، وعليها يرى الجزء الأكبر من الوادى، وفيها بوابتان كبيرتان لتصريف المياه وقد بنى المهندس فوق بناء البوابات برجا مرتفعاً للاشراف على المنطقة كلها؛ ولما كان حائط السد لا يرتكز على الجبل فى الناحية اليسرى فقد بنى المهندس حائطاً ضخما يتجه من الغرب إلى الشرق يرتكز فى ابتدائه على الصخر وطوله الكلى ١٤٣ متراً وسمكه ١٢,٣٥ متراً. وعلى كل فتحة من هاتين الفتحتين واتساعهما ٣٣٨ و٣١٠ سنتيمترات على التوالى بوابة متحركة ما زالت درجاتها باقية إلى الآن.

وتسير مياه هاتين الفتحتين فى قناة عريضة فى أولها، ثم تقل فى الاتساع، وطولها ١١٦٠ متراً، وتنتهى ببناء مستطيل شبيه بالحوض عظيم الاتساع فيه فتحات لأربع عشرة قناة فى مختلف الاتجاهات.

فالفتحة الجنوبية أى اليمنى كانت تروى أراضى الجنة اليمنى، وقد دثرت حدائقها ومبانى القرى التى كانت عليها، ولكن بقاياها مازالت قائمة إلى اليوم. وفيها مبان يحتوى بعضها على أعمدة جرانيتية ومعابد، ولكن أكثرها أصبح مغطى بالرمال، وأهم البلاد التى كانت فى الجنة اليمنى مروث ومدينة النحاس، وكذلك المنطقتان الأثريتان المعروفتان باسم العايد وعرش بلقيس وتسع خرائب أخرى صغيرة فى الوادى.

أما البوابة الكبرى التى فى الجهة الشمالية فكانت ترى أكثر أراضى وادى مأرب وعليها زراعات المدينة القديمة ، وهى مدينة سبأ التى لا تبعد عن السد أكثر من تسعة كيلو مترات . وأرض الوادى كلها طينية خصبة . . وأينما سار الإنسان فى هذا الوادى الآن يرى آثار أعمال الرى القديمة وخاصة القناطر المبنية فوق القنوات الصغيرة ويسمونها « المناسح » . وقد أتيح لى أن أرى هذه المنطقة من الطائرة ، فظهرت جميع القنوات واضحة المعالم فى الوادى بأكمله .

وهناك نقطتان هامتان تستحقان الذكر ، وهما التفوق العظيم الذى بلغه قدماء اليمنيين فى فن العمارة ، إذ أنهم وصلوا إلى أرفع الدرجات فى نحت الأحجار البركانية الصلبة ، كما أن طريقة بنائهم وربط الأحجار بعضها ببعض بواسطة أصابع أسطوانية من النحاس أو الرصاص ، وميل الجدران إلى الداخل وغير ذلك من الاحتياطات يدل على مهارة عظيمة تستحق الدراسة . وقد حسبت مقاييس بعض الأحجار فوجدت أن وزن بعضها لا يقل عن ثمانية أطنان . والنقطة الثانية هى ضرورة دراسة هذا السد ونظرية بناء أجزائه المختلفة وتوزيع مياهه بواسطة مهندس الرى ليعرفوا المدى الذى بلغه المهندسون القدماء وأثر الحضارة السبئية فى غيرها من البلاد . وخصوصا أننا نعرف أن القبائل القحطانية اليمنية بدأت منذ عهود بعيدة تغادر اليمن وتستقر فى شمال الجزيرة وغيرها من بقاع آسيا ، كما كان لهذه القبائل أثر محسوس فى الفتح الإسلامى واستقرار بعضها فى شمال إفريقية ثم فى الأندلس ، حيث قام العرب بكثير من أعمال الرى العظيمة ، وخاصة إنشاء السدود .

مدينة مأرب :

ومدينة مأرب باقية إلى اليوم داخل أسوارها القديمة وأطلالها المرتفعة منتظرة يد العلم لترفع عن وجهها هذا القناع ، وإنى لا أتردد لحظة واحدة فى وضع هذه المدينة الكبيرة فى الصف الأول بين مدن العالم القديمة . كما أننى لا أشك لحظة واحدة فى أن هذا المكان عينه سيمدنا بأعظم المعلومات عن حضارة عظيمة من أهم حضارات العالم القديم لا نعرف عنها إلا القليل .

ولن أتحدث اليوم عن أطلال مأرب أو أذكر مركزها فى التاريخ أو أصف بقاياها ، ولكنى أذكر باختصار ثلاث نقط لأهميتها الكبرى .

١ — وجد الأهالى فى مأرب آثاراً صغيرة كثيرة ، ومن ضمنها آثار مصرية من جعارين وتمائم ، وقد اشتريت بعضها ، ويرجع تاريخها إلى القرن السادس قبل الميلاد ، ومن المحتمل أن تكون صناعتها متأثرة بالحضارة الفينيقية وأنها وصلت الى مأرب عن طريق التجارة .

٢ — وصف جلازر وهاليفى وغيرهما مدينة مأرب بأن أسوارها تكون دائرة ولكنها غير ذلك ، بل إن جدرانها الأربعة موازية للجهات الأصلية ، ولكن الأركان فقط مستديرة .

٣ — كلفت الحكومة اليمنية عامل مأرب أن يبنى داراً جديدة للحكومة ، وبدأ عمله منذ ثلاث سنوات ، وبالرغم من أن هذا الشخص يعلم تمام العلم حرص مولانا الإمام على الآثار وتعليماته الشديدة لعدم نقلها أو الاتجار فيها وبيعها إلى الأجانب ، فان هذا العامل الجاهل استباح لنفسه دون أن يبلغ أحدا ، هدم أكثر من عشرين مبنى من المبانى الحجرية القائمة ، ومن بينها بعض المعابد لاستعمال أحجارها فى البناء أو استتاراً وراء هذا الكلام لأغراض أخرى ، وقد خرج كثير من النقوش والتماثيل والأحجار المزخرفة من المرمر ، ولاشك أن أجمل ما خرج من الأنقاض قد ذهب إلى غير رجعة ليظهر يوما ما فى أحد المتاحف أو المجموعات الخاصة ، وقد وجدت الكثير من الكتابات والأحجار المنقوشة ملقى بين الخرائب أو على مقربة من البناء الجديد .

وقد قمت بواجبى فى نقل جميع النقوش وأخذ صور فوتوغرافية لأهم الأحجار ، كما أبلغت أمر هذا العدوان إلى رجال الحكومة وإلى جلالة الامام ، وناشدته باسم العلم وباسم كل غيور على حضارة العرب أن يأمر بانقاذ ما بقى ، فأصدر أوامره فى الحال بوقف هذا العبث . وإنى أرجو ألا يتعرض نقش من النقوش التى نقلتها أخيراً فى مدينة مأرب وعددها أربعة وثمانون نقشاً للتحطيم ، فانها على درجة عظيمة من الأهمية ،

وبرغم أخذ صورها الفوتوغرافية ونقل ما عليها من الكتابات فان الاحتفاظ بالأصل واجب على أى حال .

والآن أعرض على حضراتكم بعض صورسد مأرب وبعض النقوش والرسوم .

حضرات الزملاء :

إن حضارة اليمن من أقدم الحضارات ، ومناطقها الأثرية كثيرة ، وإذا كنا نجد الآن على سطح أطلالها نقوشاً وآثاراً يرجع تاريخها إلى القرن الثامن قبل الميلاد ، فانه من المؤكد أن نصل إلى أبعد من هذا التاريخ عندما يتم حفر هذه الأطلال.

إن العالم لا يكاد يعرف شيئاً عن حضارة اليمن القديمة ، سواء منها المعينية أو السبئية أوالحميرية ، وهى كلها فروع من شجرة واحدة لحضارة سامية المولد ، وهى فى الوقت عينه لها تأثير فى غيرها من الحضارات .

لقد اتصلت اليمن بسومير وبابل وأشور ، كما اتصلت بمصر والشام والحبشة ، وكما اتصلت أيضاً بالهند والصين . إنها لم تنقل تجارات هذه البلاد فحسب ، ولكنها نقلت أيضاً عقائدها وآراءها وفنونها . وإنى أرجو أن يكون قد اقترب اليوم الذى يميط فيه العلم اللثام عما احتفظت به أرض اليمن من كنوز الأقدمين ، وتحتل فيه دراسة الآثار اليمنية المكان الجدير بها بين الهيئات العلمية فى جميع البلاد .

تاريخ البرج الجنـــائزى فى تدمر

خلاصة البحث الذى أعدّه للمؤتمر

الأستاذ ارنست ويل

عضو المعهد العلمى الفرنسى للآثار فى بيروت

إن من أبرز المناظر فى تدمر مجموعة الأبراج الجنائزية التى تحيط بالمدينة . ولا يزال البيان الوحيد للمدافن المختلفة فى تلك المدينة هو الذى رسمه ويجاند Wiegand- Palmyra, Berlin 1932 ولـكن تاريخ الأبراج الجنائزية لم يكتب إلى اليوم فى وضوح وجلاء . وقد أتيح لى أن أقيم فى تدمر فترة قصيرة من الزمن استطعت فيها أن أدرس المراحل الرئيسية من هذا التاريخ . ومن حسن الحظ أن من بين تلك الأبراج نحوعشرين، عليها كتابات تؤرخها ، وقد أمكن بفضلها أن تؤرخ سائر الأبراج ، تأريخاً نسبياً على الأقل .

١ — ترجع أقدم هذه الأبنية إلى القرن الأول قبل الميلاد ، وتقع فوق قمة التل الذى يحف بالوادى المعروف باسم وادى المقابر . وعمارة هذه الأبراج ضخمة وتعلوها طبقة متعددة الأضلاع وفى داخلها درج يلف ، وفى قاعدتها من الخارج صفوف من قبور على هيئة الفرن ، وتعرف باسم loculi .

٢ — وبالنظر إلى نمو المدينة السريع دخل على بناء هذه الأبراج زيادة تتجلى فى تشييد تلك القبور فى داخل الأبراج (ولـكن البرج رقم ٥ يمثل مرحلة الانتقال ، ففيه قبور من الخارج وأخرى من الداخل) . وتبدو فى هذا الدور من تطور بناء الأبراج بعض الأساليب القديمة التى لم يدخل عليها شىء من التغيير ، ومن ذلك الرصة غير المنتظمة والدرج الدائر والمدخل المستقل فى الطبقة الأرضية (ويمتد التطور فى هذا الدور بين سنة ٧ ق م فى برج أتاناتان وسنة ٤٤ ميلادية فى برج كيتهوت) .

٣ — أما المراحل الأخيرة فى تطور الأبراج فلا تختلف كثيراً عن المرحلة السابقة إلا فى بعض التحسين الذى أدخل عليها . ومن أهم الأنواع فى هذه المراحل الأخيرة النوع الذى ينسب إلى الربع الثالث من القرن الأول الميلادى ونرى فيه أن الدرج موضوع فى ركن من أركان البرج ويتكرر فيه تخطيط التربيعات من طبقة الى أخرى .

٤ — وبين عامى ٧٠ و ٨٠ ميلادية يصبح البناء أكثر انتظاماً ، ويصبح سطح التربيعات عمودياً بعد أن كان مائلا إلى الداخل ، وتعلوها زخرفة معمارية . وينصرف القوم عن تشييد المدخل المستقل فى الطبقة الأرضية .

٥ — ثم نصل بعد ذلك إلى النوع النهائى المتقن من الأبراج ، كما نراه فى برج جامبليك من سنة ٨٣ م وإلاهبل من سنة ١٠٣ م . حيث نرى رصة البناء منتظمة ، فضلا عن استعمال الزخارف المعمارية فى الجدران .

ولا نكاد نرى بعد ذلك أى تطور فى بناء الأبراج فى تدمر . وفضلا عن ذلك فان الاتجاه أصبح بعد ذلك نحو تشييد المعابد والبيوت الجنائزية ، كما تشهد بذلك الكتابات الأثرية .

وهكذا نرى أن تطور البرج الجنائزى كان مستقلا عن تطور البيوت الجنائزية ، فان البرج الجنائزى لم يكن قط بيتاً جنائزياً من عدة طبقات ، وإنما كان فى البداية برجاً بسيطاً . أما وضع القبور المتعددة على هيئة الفرن فمن الظواهر الخاصة بمدينة تدمر ، وكانت نتيجة تطور بطىء مستمر . والحق أن أقدم أنواع هذه الأبراج يبدو كأنه بناء مشيد فوق المدافن ، ويشبه من هذه الناحية الأبراج المعروفة فى مدينة دورا وفى منطقة الفرات الوسطى . ولا ريب فى أننا إذا بحثنا عن أصل البرج الجنائزى الذائع فى شرقى سورية استطعنا أن نفسر استعمال هذا النوع من العمائر .

مكتشفات جديدة فى تدمر

خلاصـــة البحث الذى أعدّه للمؤتمر

الأستاذ جان ستاركى

عضو المعهد العلمى الفرنسى للآثار فى بيروت

من المعروف أن مدينة تدمر كانت محوطة بقبور على هيئة أبراج وبيوت أكمل ما وصل إلينا منها قصر الحية . وقد رمم هذا البيت أخيراً ، وكشفت أثناء الترميم نقوش بارزة يمثل أحدها شخصاً بجوار سفينة . ولا ريب فى أنها من السفن التابعة لمدينة تدمر . ولنذكر هنا الكتابة الأثرية التى عثر عليها أثناء حفائر أجورا سنة ١٩٤٠ ، والتى جاء فيها ذكر سفينة تجارية تابعة لتدمر قادمة من الهند (راجع مقال الأستاذ سيريج H. Seyrig فى مجلة Syria سنة ١٩٤١ ص ٢٠٣) .

كما كشفت أسكفة باب مقبرة عليها كتابات . ولاحظ الأستاذ ويل Will أن نص هذه الكتابات قرأه الأستاذ سخاو سنة ١٨٧٩ (انظر Gorpus des inscriptions-sémitiques, vol II, no 4209) ولكنه لم يعين مكانه تماما . وبفضل كشف هذه الأسكفة نعرف الآن أن قصر الحية شيد سنة ٢٣٦ م على يد يوليوس أوريليوس مارونا Julius Aurelius Marona .

وقد تم فى تدمر كشف جديد هذا العام أثناء تنظيف الممر الأرضى الذى كان يخرج منه مجرى الماء ليروى الواحة كلها . إذ ظهر هيكل عليه كتابة يونانية وتدمرية . أما الجزء اليونانى من هذه الكتابة فكان قد نقله سنة ١٦٩١ القس وليام هاليفا كس أول عالم جمع بعض الكتابات التاريخية فى تدمر . ثم نقل هذا النص ثانية على يد العالمين

الأثريين دوكنز Dawkins ووود Wood . والظاهر أن هذا الهيكل توارى تحت أحد الجدران ، وظل بعيداً عن الأنظار نحو قرنين من الزمان ، إلى أن كشف هذا العام ، وأمكننا أن نقرأ الكتابة اليونانية . أما صمت العلماء المذكورين بشأن النص التدمرى فليس من العسير تفسيره إذا تذكرنا أن الكتابة التدمرية لم تفك طلاسمها إلا سنة ١٧٥٤ على يد الأب بارتلمي J.J. Barthelemy والعالم سونتون J. Swinton .

ويفيد النص اليونانى أن بولانوس Bolanos ابن زينوبيوس Zenobios الذى اختاره الإله يرحبول ناظراً لهذا النبع المسمى أفقا قدم ذلك المذبح للاله زيوس العظيم سنة ١٦٢ م . وهكذا نجد فى هذا النص الاسم القديم الذى كان يعرف به النبع . وقد جاء هذا الاسم أيضاً فى النص التدمرى . ولا ريب فى أنه من الأصل الآرامى بمعنى « خرج » فضلا عن أن معناه فى اللغة الآرامية « قناة » وهذا كله يوافق النبع أو المجرى الذى يسير فيه الماء . ومما كشف حديثاً مقعد طويل لجلوس المستحمين ، وهو منحوت فى الشاطىء الأيمن للنبع .

معرض الكتب

أعدت هيئة تنظيم المؤتمر معرضاً للكتب المؤلفة بالعربية فى علوم الآثار ، وللمجلات العلمية التى تصدر فى البلاد العربية وتعنى بعلوم الآثار ، فضلا عما ظهر من كتب الآثار والفنون باللغات الأوربية منذ قيام الحرب العالمية الأخيرة .

وقد جمعت الهيئة فى هذه المناسبة نحو ثلاثمائة كتاب ومجلة ، عرضت فى ثلاث قاعات من قاعات قصر العظم . وتيسر بذلك لأعضاء المؤتمر والمعنيين بشئون الآثار والفنون فى البلاد العربية أن يعرفوا ما ظهر من المراجع فى هذا الميدان .

وقد ساهم فى إقامة هذا المعرض مصلحة الآثار المصرية وإدارة حفظ الآثار العربية ودار الآثار العربية والمتحف القبطى وجمعية الآثار القبطية بالقاهرة وكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ودار المعارف ودار المقتطف ومطبعة شندلر ودائرة الآثار السورية ودائرة الآثار العراقية ودائرة الآثار اللبنانية ، فضلا عن فريق من المؤلفين والكتاب .

معرض الصور

أعدت هيئة تنظيم المؤتمر معرضاً للصور فى موضوعات الفنون والآثار فى البلاد العربية ، فقدم الأستاذ حسن عبد الوهاب عدداً كبيراً من صور العناصر المختلفة فى العمائر الإسلامية المصرية ، وقدم الدكتور محمد مصطفى صور مجموعة من التحف التى اقتنتها دار الآثار العربية فى السنين الأخيرة ، وقدم الأستاذ عبد الهادى حماده صوراً توضح مناظر الحفائر التى يقوم بها فى منطقة كوم الحصن بالدلتا .

وقد عرضت هذه الصور فى قاعتين من قاعات قصر العظم ، وقام الأستاذ حسن عبد الوهاب بجهود مشكورة فى تنظيمها وإعدادها للعرض .

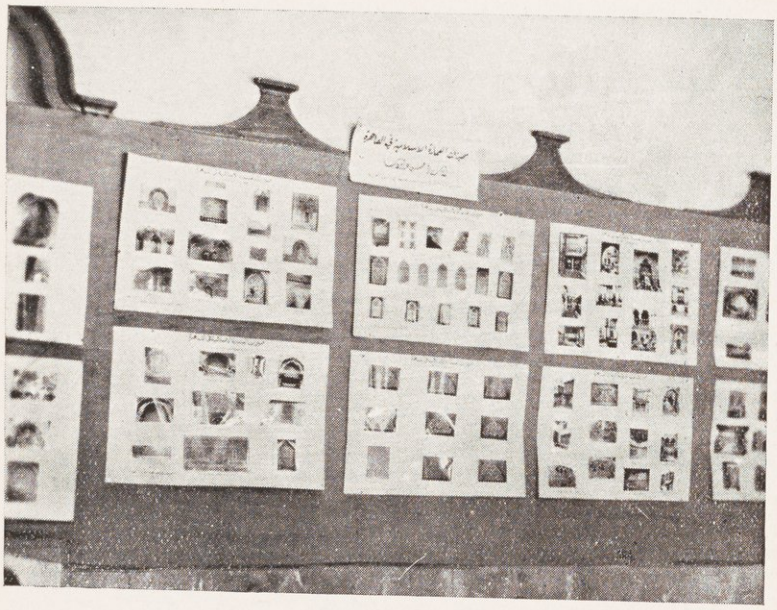

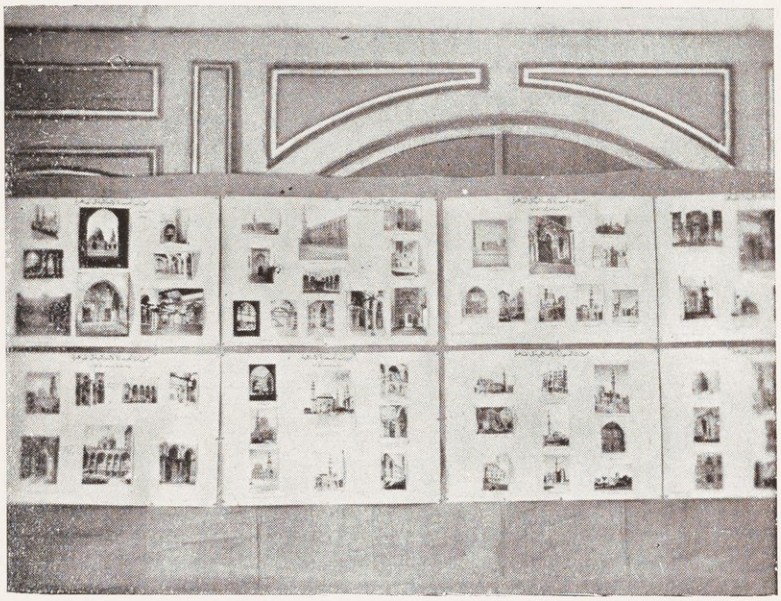

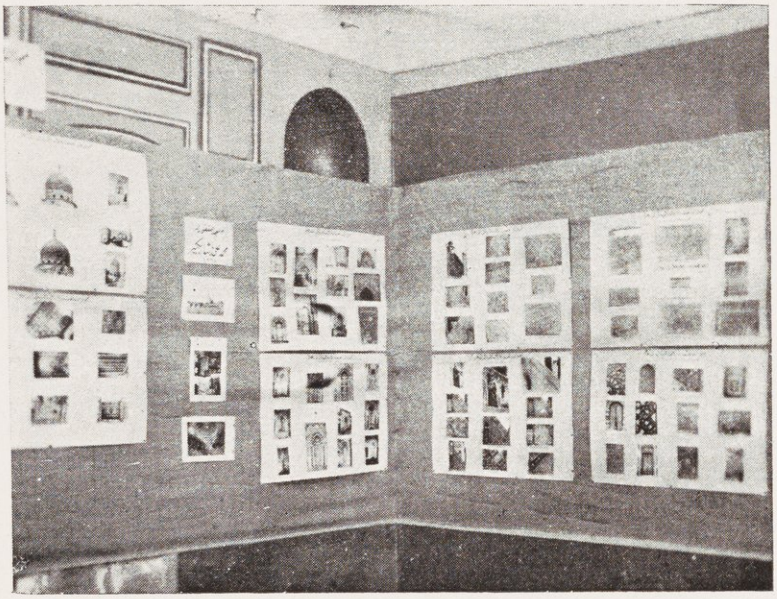

مقررات المؤتمر

لجنـــة الثقافة الأثرية

عقدت لجنة الثقافة الأثرية ثلاث جلسات ابتداء من يوم الأحد ١٤ من سبتمبر سنة ١٩٤٧ وقررت فى جلستها الأولى انتخاب الدكتور زكى محمد حسن رئيساً للجنة ، والأستاذ طه باقر مقرراً لهـا . وتناقش الأعضاء وتبادلوا وجهات النظر وتوصلوا إلى وضع التوصيات الآتية الى هيئة المؤتمر لتتقدم بها إلى جامعة الدول العربية :

١ — أن تعمل جامعة الدول العربية على تأليف هيئة من المؤسسات العلمية الآثارية فى الدول العربية المختلفة لتقوم بأعمال التنقيب ، وأن تعمل الجامعة على أن تحصل على إذن جلالتى ملك اليمن وملك المملكة العربية السعودية بأن تبدأ هذه الهيئة عملها بدراسة الآثار فى هاتين المملكتين ، واقتراح مايلزم للقيام بأعمال التنقيب فيهما ، نظراً لأهمية تاريخ اليمن والبلاد السعودية فى تاريخ الأمة العربية .

٢ — أن يدرس فن التنقيب فى المعاهد العليا فى الدراسات الأثرية التابعة لدول الجامعة .

٣ — أن تبرز محاسن العائر الأثرية وأن يُزال ما يشوه واجهـاتها وجوانبها من الأبنية الدخيلة عليها .

٤ — أن تؤلف الكتيبات عن العائر الأثرية ، وتدون البيانات التى توضحها عند مداخلها ، لتعريف الشعب بها وبميزاتها الفنية وقيمتها الأثرية .

٥ — أن توضع القوانين لحماية المواقع الأثرية ، بحيث لا يستطيع أى شخص أن يعتدى على جمال تلك المواقع بتشييد العائر الحديثة أو التى لا يتناسب طرازها مع المناطق الأثرية بوجه عام . وبذلك يكون تشييد أى بناء أو شق أى طريق فى المناطق الأثرية خاضعين لإدارات الآثار ، ولا يصرح بذلك إلا بعد أن تدرسه السلطة المختصة فى الدوائر الأثرية .

٦ — أن تعمل الجهات المختصة بالآثار فى مختلف الدول العربية على ألا تستعمل المبانى الأثرية الدينية فى غير الأغراض التى أنشئت من أجلها .

٧ — أن يراعى فى تنظيم المتاحف بقدر الإمكان أن تكون هناك أقسام خاصة تجمع فيها التحف اللازمة لتيسير دراستها على الاختصاصيين ، وبذلك يمكن أن تعرض سائر المعروضات عرضاً يحببها للزائرين ، ويبرز قيمتها ، ويسهل الإفادة من زيارتها .

٨ — أن تعنى السلطات بايجاد الأمكنة الفسيحة اللائقة بدور الآثار فيها .

٩ — أن تعمل الهيئات الفنية فى المتاحف على وضع دليل لكل متحف ، فضلا عن الشروح المعرّفة لكل الآثار المعروضة ، لتمكن الزائر من الإفادة من زيارته .

١٠ — أن تعمل السلطات الأثرية على إنشاء متاحف محلية فى مختلف المدن ، ويراعى فى ذلك أن تنقل إليها التحف المكررة فى المتاحف الرئيسية ، ولاسيما ما كان منها متعلقاً بتاريخ المنطقة التى يقوم فيها البلد أو مستخرجاته أو ما يوجد فى عمائره الأثرية .

١١ — أن تعنى إدارات الآثار والمتحف بنشر المؤلفات السهلة المختصرة باللغة العربية لتثقيف الشعب ، وذلك إلى جانب المؤلفات العلمية الدقيقة الوافية التى تقوم باصدارها .

١٢ — أن تتبادل المطبوعات فى الآثار والصور ونماذج التحف والخرائط وغير ذلك بين البلاد العربية .

١٣ — أن يتبادل الاختصاصيون فى الآثار بين دول الجامعة العربية فى فترات مختلفة ، وأن يزور الاختصاصيون فى كل دولة من هذه الدول حقول الحفر والتنقيب عند الدول الأخرى .

١٤ — أن تعمل سلطات الآثار فى بلاد الجامعة العربية على تبادل التحف التى يمكن الاستغناء عنها ، وذلك لإمكان تمثيل مختلف الطرز الفنية فى متاحف تلك الدول .

١٥ — أن تعمل دول الجامعة العربية على إنشاء متحف فى إحداها أو فى كل منها خاص بأزياء الدول العربية ومظاهر حضارتها فى العصور الحديثة .

١٦ — أن تتقدم الجامعة العربية إلى الدول العربية راجية أن تتخذ الوسائل اللازمة لعلاج الخطر الذى يهدد ترميم الآثار بانقراض العمال الاختصاصيين وأن تعمل كل دولة على الإفادة ممن يوجد منهم فى سائر الدول الأخرى . وحبذا لو أمكن أن تقدم كل دولة بياناً بأسماء المهرة الاختصاصيين ونوع اختصاصهم .

١٧ — أن تعنى حكومات الدول العربية بنمو متاحفها بمختلف الطرق ، كتوفير المال اللازم للتنقيب عن الآثار ، واقتناء التحف التى تظهر فى الأسواق ، ولاسيما ما كان متصلا بتاريخنا القومى وتراثنا الفنى ، ثم العناية بتدريس الآثار ، وربط دراسة التاريخ بدراسة الفنون والآثار .

لجنة القوانين الأثرية

فى البلاد العربية

اجتمعت اللجنة فى يوم الأحد ١٤ سبتمبر ١٩٤٧ فى الساعة الحادية عشرة صباحا بحضور جميع أعضائها وبرياسة عطوفة الأمير جعفر الحسنى، وقررت انتخاب الأستاذ عبد الهادى حماده مقرراً لها ، وقد تبادل الأعضاء الآراء، وقارنوا بين القوانين المصرية والعراقية والسورية والفلسطينية . وقد انتهت الجلسة بعد مناقشات بينهم فى مواد بعض القوانين .

ثم اجتمعت اللجنة يوم الاثنين الموافق ١٥ سبتمبر ١٩٤٧ فى الساعة الحادية عشرة صباحا واستمروا فى دراسة القوانين وبحث المواد، وقد لاحظوا أن دراسة مواد القوانين ومحاولة توحيد بعضها هى من الصعوبة بمكان، نظراً إلى بعض الاختلافات الموجودة فى تلك القوانين والتى ترجع إلى تباين النظم فى كل دولة من دول الجامعة، كما لاحظوا أن معظم القوانين حريصة على المحافظة على الآثار ، ولذلك تقدم مقرر اللجنة باقتراح أن يكون هناك توصيات تقدم من اللجنة إلى مؤتمر الآثار لترفع إلى الجامعة العربية ، كى ترسلها بدورها إلى الدولة المشتركة فى الجامعة حتى إذا كان قانون إحداها خلواً من بعض هذه التوصيات كان من المستطاع تلافى ذلك . وقد أقره حضرات الأعضاء على وجهة نظره ، وطلب إلى حضراتهم أن يتقدم كل من يريد منهم باقتراحاته فى الجلسة التالية .

ثم اجتمعت اللجنة يوم الثلاثاء الموافق ١٦ سبتمبر ١٩٤٧ فى الساعة الحادية عشرة صباحا وجعلت تدرس الاقتراحات التى تقدم بها حضرات الأعضاء ، وانفضت الجلسة قبل الانتهاء منها .

ثم اجتمعت اللجنة يوم الأربعاء الموافق ١٧ سبتمبر ١٩٤٧ فى الساعة الحادية عشرة صباحا وأتمت دراسة الاقتراحات وانتهت إلى إقرار التوصيات الآتية :

١ — أن تعمل حكومات دول الجامعة على المحافظة على الآثار العقارية والمنقولة محافظة تامة ، وعلى الأخص ما يوجد من الآثار المنقولة الثمينة فى مؤسسات الوقف الدينية ، وذلك بنقلها إلى المتاحف الأثرية أو إنشاء متاحف خاصة بها إذا اقتضى الأمر ذلك .

٢ — أن يكون لكل حكومة الحق فى أن تستملك (تنزع ملكية) جميع الآثار المنقولة وغير المنقولة ، سواء منها ما كان ملكا للأفراد وما كان ملكا لمؤسسات الوقف وغيرها .

٣ — تتعاون دول الجامعة فيما بينها على أن تسترد كل دولة منها ما قد يتسرب بصورة غير مشروعة من آثارها إلى دولة أخرى من دول الجامعة . وتوصى اللجنة بأن يتم الاتفاق على مثل ذلك مع سائر الدول ، حفظاً للتراث القومى لدول الجامعة .

٤ — تعطى كل دولة من دول الجامعة حق الأولوية فى التنقيب للدولة التى تتفق معها على تبادل هذا الحق ، وتفضل دول الجامعة .

٥ — تضع كل دولة القيود اللازمة للحد من تجارة الآثار ، وقصرها على ما يوجد منها فى الأسواق الآن أو فى المجموعات الخاصة المسجلة . ويستثنى من ذلك الآثار التى يثبت الحصول عليها بطريقة مشروعة .

٦ — تعمل كل دولة على منع تزييف الآثار المنقولة أو تزويرها ، ولا يعد تزييفاً تقليد الآثار لأغراض علمية أو فنية .

٧ — يوضع فى قانون كل دولة ما يبيح تبادل بعض الآثار المكررة أو إهداءها ، تسهيلا لتبادل الآثار بين المتاحف .

٨ — تعمل دول الجامعة على توحيد الشروط التى يجب أن تمنح بموجبها رخص التنقيب إلى الهيئات والمؤسسات العلمية ، وعلى تنفيذها كلها ، وعلى ندب الدائرة المختصة فى كل دولة من يمثلها من موظفيها أو مواطن دول الجامعة ، ومن يرافق البعثة التنقيبية فى مواضع التنقيب تعين مهمته فى قانون الدولة .

٩ — تعمل كل دولة من دول الجامعة على تشديد العقوبات على كل خارج عن قانون الآثار المعمول به فيها . وترفع اللجنة هذه التوصيات إلى هيئة المؤتمر الموقرة لكى ترفع إلى هيئة الأمانة العامة لجامعة الدول العربية .

لجنة المصطلحات

اجتمعت لجنة المصطلحات فى صباح يوم ١٦ من سبتمبر ١٩٤٧ وقررت انتخاب الأستاذ طه باقر المندوب الأول فى وفد العراق رئيساً للجنة والدكتور زكى محمد حسن مقرراً لها. وتناقش الأعضاء فيما يلاقون من صعوبة عند الكتابة فى علوم الآثار باللغة العربية، وسمعوا بما سبق أن شرع فيه فريق من المشتغلين بالآثار فى القاهرة من إعداد معجم للفنون والآثار باللغة العربية. ورأت اللجنة :

(أولا) إقرار ما تم فى هذا المشروع، وأن يؤلف فى القاهرة مكتب لنشر معجم للمصطلحات الفنية من حضرات :

١ — الدكتور زكى محمد حسن

٢ — الأستاذ عباس بدر

٣ — الأستاذ حسن عبد الوهاب

(ثانياً) أن يعلن هذا لحضرات المشتغلين بالآثار والفنون فى البلاد العربية، وأن يرجى من حضراتهم المساهمة فى هذا المشروع بجمع ما اهتدوا إليه من مصطلحات ونشرها فى إحدى المجلات العلمية، ثم إرسال فصلة من هذه الأبحاث إلى مكتب المعجم بالقاهرة لبحثها، وإذا أقر المكتب أى اصطلاح من هذه المصطلحات المنشورة فانه يدخلها فى المعجم مذيلة باسم صاحبها، وبذلك النشر الجزئى السابق للمصطلحات قبل إرسالها إلى مكتب المؤتمر يتحقق غرضان :

أولهما : حفظ حق التأليف لأصحابها.

ثانيهما : عرض المصطلحات على جمهرة الاختصاصيين لدراستها.

ويجوز لمن يريد من حضرات الباحثين أن يرسل ما يهتدى إليه من مصطلحات إلى مكتب المعجم ، دون سبق نشره ، وطبيعى أن يذيل باسمه ما يختار منها للنشر .

ويرسل مكتب المعجم إلى إدارات الآثار فى الدول العربية المختلفة بياناً بالمصطلحات التى يستقر رأيه على طبعها فى كل ملزمة تظهر من المعجم لسماع ملاحظاتها فى هذه المصطلحات . وترجو اللجنة بهذه المناسبة أن تكون الاصطلاحات المنشورة أو المرسلة إلى مكتب المعجم مصحوبة بالشروح والرسوم والمراجع اللازمة .

(ثالثاً) يرجو المؤتمر أن تشمل اللجنة الثقافية فى جامعة الدول العربية هذا المشروع برعايتها ، وأن تقوم على نشر هذا المعجم فى كراسات متسلسلة ، على غرار ما تم فى نشر سجل الكتابات العربية الذى يصدره الأساتذة كومب وسوفاجيه وفييت بمعونة سائر الاختصاصيين فى الآثار الإسلامية ، وهو النظام الذى اهتدت به لجنة المصطلحات فى وصولها إلى هذه القرارات .

الحفلة الختـــامية

كلمة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

عن الجامعة العربية

بالأمس اجتمع مؤتمر الثقافة فى لبنان فبحث فيه مفكرو العرب الخطة المثلى التى يجب أن نسير عليها فى تربية الناشئة بغية تشييد المستقبل ، واليوم نختتم مؤتمر الآثار ، هذا المؤتمر الذى عقد للنظر فى آثار بلاد العرب ، وليست الآثار إلا تاريخاً يمثل لنا حضارتنا القديمة ، وهو الحجة الدامغة لمن يبخسنا حقنا . وما المؤتمر الأول للآثار إلا دليل على أننا حين نعمل لحاضرنا و تنظر لمستقبلنا نلتفت إلى الماضى ، ومن لا ماضى له فلا مستقبل له .

لقد حمل آباؤنا فى الأحقاب الطويلة مشعل الحضارة ، ونادوا بالأخوة والسلام ، فكان من واجبنا أن نقتفى أثرهم ونسير على منوالهم ، كى لا نكون فى حاضرنا عالة على التاريخ ، وعلينا أن نسجل بأيدينا صفحة تليق بماضينا وتعيد مكانتنا .

إن تاريخنا يشهد بما قدمنا من ثقافة وحضارة للعالم القديم ، فعلينا الآن أن نبنى حاضرنا على ثقافة واسعة وتهذيب شامل وخلق متين ، ومن أجل هذه الغاية رأت الجامعة العربية أن تشيد تاريخ العرب الحديث على أساس راسخ من المدنية والحضارة ، فدعت لعقد المؤتمرات العربية المختلفة ، وما مؤتمر الآثار إلا خطوة كبرى لهذا العهد الجديد ، حيث اجتمع علماء أثريون من العرب فى موطن عربى كريم ، وجو ملؤه الحرية ، وتباحثوا فيما يجب عمله لحفظ الآثار وتوحيد المصطلحات ورفع مستوى الثقافة الأثرية .

كلمة السيد طه باقر

المندوب الأول فى وفد العراق

سيدى صاحب المعالى :

سيداتى ، سادتى :

إنه ليعسر بموقفى هذا أن أعبر بالألفاظ والجمل عن الشعور والأحاسيس الطيبة العميقة التى تغلغلت فى قلوب الوفد العراقى ، لما أولينا به من عميم الكرم والفضل والحفاوة ، مما جعلنا ألسنة تردد آيات الشكر والثناء ، وتتمنى لسورية الشقيقة ، ودمشق الخالدة ، أن تسير قدماً الى أهدافها العليا فى المحجة الرشيدة ، وأن تمضى فى خطواتها الحيارة تبنى على أسس نهضتها الحديثة المباركة ، فتستكمل أمجادها العتيدة ، فتكون كما هى الآن ، مفخرة العروبة ومعقل الحرية والأحرار .

سادتى :

انتهى مؤتمرنا الأول ، فأود أن أسجل لجامعة الدول العربية ، ولما يمض على ولادتها زمن طويل ، هذا النجاح العظيم فيما تهدف إليه من توحيد الأمة العربية ، والعمل على إرجاع وحدتها السياسية والحضارية ، وهى وحدة لم تنفصم عراها فى معظم أدوارها التاريخية إلا فى هذه الفترة الأخيرة من حياتها ، بما انبث فى جسم البلدان العربية من سموم الاستعمار الغربى . والله نسأل أن تتضافر جهود قادة الرأى فينا على محو آثار تلك السموم . والعلم وخلوص النية والجد كفيلة بأن تبوئ الأمة العربية مكاناً رفيعاً فى ركب الإنسانية إلى شاطئ السلامة ، وتقوى على حمل مشعل الحضارة ، فتقود قافلة الأمم كما كانت فى الماضي .

سادتى :

إنه لما يثلج الصدر ويبشر بالخير أن ينتهى المؤتمر باتفاق وفود البلاد العربية على جميع القضايا التى عالجناها ، والوصول إلى حلول أجمعنا عليها ، وهذا مظهر آخر من مظاهر التشابه فى الاتجاه والتفكير عند جيل المفكرين فى الأمة العربية . ولعل أحسن ما هدف إليه المؤتمر فى توصياته العامة إلى جامعة الدول العربية : العمل على إحياء تراث الشرق العربى وأمجاده ونشرها بين الشعوب العربية وشعوب العالم ، حتى تؤدى رسالتها الجليلة ، فى تربية الذوق الفنى وتوسيع آفاق الفكر والعقل البشرى ، وذلك بقراءة قصة الإنسان العجيبة ، وهى مدونة فى آثار الشرق الأدنى منذ وجد على هذه الأرض وتدرج فى تطوره حتى إنشاء الحضارات الأولى فى هذه الربوع .

وثمة وجه آخر ينظر منه إلى نجاح هذا المؤتمر ، وهو أن وفوداً من مختلف الدول العربية اجتمعت فى مكان واحد ، وتباحث أعضاؤها ، وكأنهم أبناء بلد واحد ، وأفادوا فائدة متبادلة ، وتقاربوا فى الرأى والاتجاه . وعندى أن المؤتمر أصاب حظاً وافراً من النجاح إن لم يكن فى شىء آخر إلا فى هذا الاجتماع السعيد بين أبناء البلاد العربية .

وبالختام اسمحوا أن أكرر باسم العراق ونيابة عن إخوانى أعضاء الوفد العراقى أجزل الشكر وأطيب الثناء لسورية الشقيقة ودمشق الخالدة الجميلة ، سائلا المولى جل شأنه أن يسدد خطاها فى نهضتها وظفرها ، وعلى رأسها ابنها البطل المجاهد فخامة السورى الأول ، شكرى القوتلى .

والسلام عليكم .

كلمة السيد محمد شطا

مندوب المملكة العربية السعودية

صاحب المعالى :

إذا استطاع هذا المؤتمر أن يحلق بنا فى أجواء مشرقة من أمجاد التاريخ الماضى وحضارته ، فقد استطاع هذا الشعب الكريم أن يرسم لنا صوراً فاتنة عن نهوضه وتقدمه وعن حضارته ومدنيته .

لقد استمتعنا بحفاوة الأمة السورية شعبها وحكومتها فترة من الزمن كان لها أجمل الأثر فى نفوسنا . إنه لم يستول على مشاعرنا ذلك الجمال المادى الذى ترتفع مقاييسه فى شتى مظاهر الحياة فى هذا البلد العربى فحسب ، بل ملك نفوسنا إعجاب أسمى من ذلك وأبعد أثراً من هذا ، إنه تلك الروح العربية تفيض بشراً فى الوجوه وإيماناً فى العقيدة وإخلاصاً فى الجهاد . لقد وجدنا فى هذا البلد العزيز من جميل الحفاوة وكرم الضيافة وحسن الوفادة ما يتضاءل دونه الشكر والثناء ، ولكن شكرى رمز إخلاص وعنوان وفاء ، إنه يمثل شعور أمة تعرف الفضل لذويه والكرامة لمستحقها .

يا صاحب المعالى :

لقد أدى المؤتمر واجباته بنجاح ، فأضاف بجهوده المباركة إلى الآثار حلقة جديدة من أثر خالد وعمل مجيد . إنه ليستحق الشكر والثناء ويستحق التهنئة والإطراء . ونحن إذ نشير إلى الاعتراف بهذه الجهود والتقدير لهذا النجاح ، فاتنا لن ننسى تلك المؤسسة الجبارة التى تبذل كل ما فى وسعها لخير العرب وإعزازهم ، حتى يقول العرب كلمتهم فتدوى لها الدنيا ويصغى لها العالم ، تلك هى الجامعة العربية أهم حدث سياسى واجتماعى فى التاريخ العربى الحديث .

لقد كان لها الفضل العظيم فى إعداد هذه المؤتمرات المتتالية ونجاحها ، وكان لها الفضل فى أداء هذه الرسالة العلمية وفلاحها . فحيا الله الجامعة العربية ، وحيا الله الأمة السورية .

كلمة واصف البارودى بك

مندوب لبنـان

تمتـــع من شميم عرار نجـد فمـا بعد العشية من عـــرار

سيداتى ، سادتى :

نعم ، هذه عشية تختتم بها أيام نعمنا فيها بالاجتماع إلى إخوان كرام أعزاء ، وأنسنا كل الأنس بنخبة ممتازة من أهل العلم والفضل ، مثلت ، خير تمثيل ، ثقافة بلدان عربية شقيقة فى مؤتمرين عربيين انبثقا عن اللجنة الثقافية فى جامعة الدول العربية ، وعقدا فى لبنان وفى سورية ، حيث نجحا ، ولله الحمد ، كل النجاح .

وقد كنت سعيداً جداً ، إذ منحتنى حكومتى الجليلة شرف تمثيلها مرة ثانية ، فتسنى لى الاشتراك فى مؤتمر الآثار فى هذا البلد الطيب ، عاصمة الجمهورية السورية الشقيقة ، فكان لى بذلك الحظ الأكبر ، إذ أتيح لى ظرف جديد لأستمر متنعما بعبير جو الأخوة والتآلف والتحاب .

وليس مؤتمر الآثار ، فى نظرى ، سوى استمرار للمؤتمر الثقافى الذى عقد فى لبنان ، ما دامت الآثار ، فى حقيقتها ، تعبيراً صادقا عن الحضارة فى العصور . وهل تكون الثقافة صحيحة تامة ، إذا لم تتصل جذورها بتلك الحضارات الغابرة ، مستمدة منها القوة والغذاء ؟.. وهل من صلة بتلك الحضارات أقوى من صلة الآثار ، تلك الكائنات الجامدة المتحركة ، الصامتة الناطقة ، والميتة الحية ؟

فشكراً لكم ، أيها السادة العلماء العاملون فى استخراج هذه الآثار من مدافنها ، وفى تنسيقها وعرضها ، مسهلين بأبحاثكم عن كنهها على طالب الحقيقة أن يحل ما عليها

من طلاسم ، ويدرك ما تنطوى عليه من أسرار ، فيتفهم نشأة الفكر وتطوره ، ويرى نفسه فى تلك الآثار ، كما يراها فى نفسه ؛ وهنيئاً للبلاد العربية بكم ، وبأمثالكم من الرجال العاملين .

إننى أهنئكم وأشكركم جميعاً باسم الحكومة اللبنانية التى أتشرف بتمثيلها ، وأحيى فخامة رئيس هذه البلاد المحبوب وحكومته وشعبه ، كما أحيى جميع ملوك البلاد العربية وحكوماتهم وشعوبهم ، مثنياً على هذا البلد المضياف الكريم ، شاكراً له حسن حفاوته ، وتسهيله لأعمال هذا المؤتمر الذى نأمل لأبحاثه القيمة أروع النتائج وأعمق الأثر .

كلمة الدكتور زكى محمد حسن

المندوب الأوّل فى وفد مصر

نجح هذا المؤتمر نجاحا باهراً ، واستطاع أعضاؤه الوصول إلى قرارات عظيمة الشأن . وإذا كنا قد أصبنا هذا النجاح الذى نغبط عليه ، فالفضل الكبير للحكومة السورية ، إذ رحبت بعقد المؤتمر فى دمشق ، وتفضل فخامة رئيسها الأول ، فشمله برعايته السامية ، وكان لوزارة المعارف ومصلحة الآثار القسط الأكبر في هذا السبيل ، فنحن المندوبين المصريين نتقدم بواجب الإجلال إلى فخامة رئيس الجمهورية السورية ، وبالشكر إلى رجال حكومته على حسن حفاوتهم بنا وجهودهم فى تيسير مهمة أعضاء المؤتمر وجعل إقامتهم فى هذا القطر الشقيق إقامة سعيدة يحفظون لها أكمل الذكرى .

وإنا نشكر الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية التى فكرت فى عقد هذا المؤتمر ، فأتاحت لنا معشر الأثريين أن نجمع شملنا ، ويتم التعارف بيننا ، ونساهم فى النهضة الثقافية فى بلادنا .

وسوف تقدم قراراتنا إلى جامعة الدول العربية لتقرها وتبلغها إلى الدول العربية المشتركة فيها ، ولاريب فى أن هذه المقررات ستظفر بترحيب الحكومات العربية ، وستلقى من رعاية جلالة مليكنا فاروق الأول حفظه الله ما ستلقاه من رعاية أصحاب الجلالة والفخامة ملوك العرب ورؤسائهم ، رعاهم الله وسدد خطاهم فى خدمة الشعوب العربية ، والعمل على ما فيه خيرها ورفاهيتها .

كلمة الأستاذ أحمد فخرى

مندوب اليمن

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب المعالى وزير المعارف السورية ، سادتى :

وقفت بالأمس عند افتتاح هذا المؤتمر أحمل إلى حكومة سورية وشعبها تحية اليمن ، وهأنذا أقف مرة أخرى بعد أيام ثمانية مرت كمر السحاب لأعبر عما تكنه نفسى — بل نفوس جميع الزملاء الذين اشتركوا فى المؤتمر — من الشكر والاعتراف بالجميل . لقد سعدنا برؤية بلادكم الجميلة الساحرة عن قرب ، وغمرنا كرم فخامة رئيس الجمهورية وكرم دولة رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، وشملتمونا بعطفكم وعنايتكم ، كما أبى أصحاب السعادة محافظو دمشق وحلب وحمص إلا أن يسيروا على سنة الكرم والحفاوة . وكان لنا شرف تلبية دعوة النادى العربى حيث التقينا بأعضائه الممتازين ذوى التاريخ المجيد فى خدمة البلاد ، كما تشرفنا أيضاً بتلبية دعوة المجمع العلمى ، وهو المجمع الغنى بعلمائه وأبحاثه ، وعلى رأسه أستاذنا العظيم الممتاز الذى يعتز به جميع أبناء العروبة .

فلكم ياصاحب المعالى ولرجال بلادكم العظماء ، بل لجميع أفراد هذا الشعب الكريم ، أخلص الشكر وأسماه .

يا صاحب المعالى :

لقد اجتمعنا فى دمشق لعقد المؤتمر الأول للآثار ، وإنى أؤكد لمعاليكم أن هذا المؤتمر قد حقق الغرض منه ، وساعد جمال مدينتكم الخالدة على توثيق عرى المودة والتآلف بين رجال الآثار فى الدول العربية ، فوضعنا بذلك الأساس لتشييد صرح علمى مشترك .

إن من لا ماضى له لا حاضر له ، ومن لا حاضر له لا مستقبل له . لقد ظهرت أول بشائر المدنية فى بلاد الدول العربية ، فكنا حملة لواء العلوم ، وماضينا مملوء بالمجد وحاضرنا يبشر بالخير ، أما المستقبل فعلمه عند ربى ، ولكننا معشر أبناء الشعوب العربية عقدنا العزم على السعى إلى المجد وسنناله وستعود لبلادنا سيرتها الأولى إن شاء الله . ولكم على رجال الآثار عهد لن يحنثوا به ، هو أن يحافظوا على تراث أجدادهم ، وينشروا لشعوبهم مفاخرها .

وقبل أن أغادر مكانى أرى من واجبى أن أذكر بالشكر مجهودات رجال إدارة الثقافة بجامعة الدول العربية لما بذلوه من وقت وجهد أثناء انعقاد هذا المؤتمر ، وليسمح لى الأستاذان الجليلان سعادة الدكتور عبد الوهاب بك عزام وسعادة سعيد بك فهيم بأن أذكر هذه الحقيقة ، فقد كانا طوال أيام هذا المؤتمر خير مرشد وخير صديق .

كما أقدم الحب والتحية إلى الزملاء الأعزاء رجال الآثار السوريين ومعاونيهم ، فانهم لم يدخروا جهداً إلا بذلوه لراحتنا ولنجاح هذا المؤتمر . إنهم ياصاحب المعالى نخبة ممتازة من الشباب المهذب الطموح الذى يحرص فخامة رئيس الجمهورية وتحرص حكومته الرشيدة على إعداده ، شباب يعرف واجبه الوطنى فيؤدى حق بلاده . وقد سلح نفسه لمواجهة الحياة بالعلم ومكارم الأخلاق .

فلكم أيها الزملاء الكرام الشكر أتم الشكر ، أشكركم من أعماق القلب ، وأسأل الله أن يجزيكم أحسن الجزاء ، وأن يهيىء لنا فى يوم قريب رد بعض هذا الجميل .

وكما أحسست بالسعادة عند ما حملت تحية اليمن إلى سورية ، فان سعادتى تتضاعف وأنا أحمل إلى اليمن رد هذه التحية .

وإنى أتوجه إلى الله جل شأنه أن يرعى سورية الأبية المتطلعة إلى المجد ، وأن يبقى فخامة رئيس جمهوريتها مناراً تهتدى بوطنيته بلاده وجميع البلاد العربية ، وأن يحقق آماله وآمال حكومته فى إعلاء شأن العرب واتحادهم .

وأخيراً أتوجه إليكم أيها الأصدقاء والزملاء فى حفلة اختتام المؤتمر بالشكر والتحية ، ولن أقول لكم : الوداع ، بل أقول : إلى اللقاء ، والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمـــة الأمير جعفر الحسني

المندوب الأول فى وفد سورية

سيدى معالى الوزير ، سادتى :

يسرنا أن يختم مؤتمر الآثار الأول لدول الجامعة العربية أعماله بالشكل المرضى الذى انفض عنه ، وما انتهى إليه من نتائج طيبة ومقررات موفقة . ولا ندعى بأننا أتينا بالمعجزات ، غير أننا توصلنا لتحليل ما تشكو منه البلاد العربية من نظمها الأثرية ، فعالجنا الأسس القويمة التى تكفل تقويم المعوج فى قوانيننا . وتضمن لنا صيانة تراثنا ، والعناية بآثارنا وحمايتها من العابثين بهـا ، والعمل على نشر الثقافة الأثرية والفنية بين مختلف طبقات الأمة ، وإيجاد سبل التعاون بين المؤسسات الأثرية فى سائر البلاد العربيـة . كما حددنا موقفنا من البعثات الأثرية الأجنبية ، على أن نعمل معها على أساس المعاملة بالمثل وتبادل هذا الحق .

ومن أجمل ما تحلى به هذا المؤتمر روح الإخاء التى سادت أعضاء هذا المؤتمر ، وحرصهم الشديد على المصلحة المشتركة ، حتى خلنا أنفسنا فى اجتماع عائلى لا فى مؤتمر دولى . وما هذه الروح الطيبـة التى حملها المؤتمرون والتى تجلت فى أبحاثهم ومناقشاتهم إلا صورة مصغرة للرسالة التى يحملها كل بلد من البلاد العربية ، بل هى صدى الرسالة الخالدة التى تدين بهـا دول الشرق العربى وترددها بقولها : « إن دنيا العرب هى أمة واحدة ، ولا يعمل الفرد إلا للمصلحة المشتركة » وكانت نتائج هذا المؤتمر الموفقة كغيره من المؤتمرات التى عقدها العرب فى عهد استقلالهم ، هى أبلغ جواب للمتشائمين من الشعوبيين الذين طالما اتهموا العرب بأنهم اتفقوا على ألا يتفقوا ، فهذا والله قول هراء وافتراء على العرب .

وقبل أن أختتم كلمتى هذه أرى من الواجب علينا أن نتقدم بالشكر الجزيل إلى اللجنة الثقافية فى جامعة الدول العربية التى هيأت لنا هذا المؤتمر ، وأوجدت لنا فرصة ثمينة للتعارف بين العاملين فى الحقل الأثرى . ونرجو من ضيوفنا الكرام وإخواننا الأعزاء الأساتذة أعضاء هذا المؤتمر أن يصفحوا عما قد يكون قد بدر منا من تقصير فى الواجبات نحوهم .

وبالختام نرفع عظيم شكرنا إلى فخامة الرئيس الأول وحكومته الموقرة الذين شملوا هذا المؤتمر بعظيم عطفهم ورعايتهم السامية . كما نشكر محافظة مدينة دمشق الممتازة ومحافظتى حلب وحمص على حفاوتها البالغة بأعضاء هذا المؤتمر ، والسلام عليكم .

كلمة معالى وزير المعارف السورية

[كانت الكلمة الأخيرة فى الحفلة لمعالى وزير المعارف بالوكالة، الأستاذ سعيد بك الغزى، فارتجل الخطبة التالية]:

اسمحوا لى أيها السادة أن أتجرد قليلا من صفتى الرسمية، فأحدثكم كمحام، لأتمكن من الدفاع عن نفسى لقاء ما سمعته من شكر للحكومة السورية ولبلادى.

إنى لا أريد أن أوجه الشكر لكم، لأنى أعتقد أننا جميعاً نقوم بما يترتب علينا من الواجبات إزاء شعبنا العربى، وليس فى هذا فضل لأحد منا.

لقد مضى زمن كنا نعتقد فيه أنه من ضوف الخيال والخرافة التفكير فى استقلال البلاد العربية، وإيجاد تكتل عربى وتحقيق وحدة تضم الشرق العربى كله، ويسعدنا اليوم أن نرى خيالنا حقيقة واضحة برزت فى الجامعة العربية، واستقلال بعض الدول العربية، وسير الدول الأخرى فى طريق الحرية.

لقد وحدت بيننا الجامعة العربية فى الأهداف والمبادئ، ومن واجبها الآن أن تسعى لتوحيد شمل العرب فى شتى النواحى، وإنى لأرجو أن تسلك الجامعة هذا السبيل، فتوحد العرب وتربطهم بروابط العلم والثقافة والإيمان، وكل اتحاد عربى لا يبنى على هذه الأسس لا يتكلل بالنجاح.

إن بلادنا بلاد العجائب والمعجزات والآثار، ومصدر الأديان السماوية، ومبعث الثقافات، وهى التى نقلت إلى الغرب الثقافة والحضارة، كما نقلت إليه الأديان، وجميع هذه المحامد آثار تفاخر بها، فهى دليل قوة أمتنا وعظمتها.

أيها السادة :

تفضلتم وذكرتم الكثير عن الحفاوة التى قوبلتم بها فى ربوعنا ، ولكنكم نسيتم أن سورية ما هى إلا جزء من بلاد الجامعة العربية ، فاذا ما قامت بواجبها نحوكم فانما تقوم بواجب الأخ نحو أخيه ، وليس لها فضل فى ذلك ، فبالأمس عقدت اللجنة الثقافية مؤتمرها فى لبنان ، واليوم عقدت مؤتمر الآثار بدمشق ، وفى كلتا الحالتين رأى المؤتمرون العرب أنفسهم فى بلد عربى كريم ، لأن لبنان وسورية هما بمثابة شقيقين تتوحد مصالحهما مع مصالح العرب طراً ، وليس من يفرق بين الأقطار العربية بعد الآن ما دامت هناك جامعة عربية .

تقرير

الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن

السكرتير العام للمؤتمر

المؤتمر الأول للآثار
فى البلاد العربية

للدكتور زكى محمد حسن

أستاذ الآثار الاسلامية بجامعة فؤاد الأول ، وسكرتير المؤتمر العام

فكرت الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية فى العمل على عقد مؤتمرين فى صيف هذا العام ، وقد تم لها ما أرادت ، فعقد المؤتمر الثقافى فى لبنان ، ومؤتمر الآثار فى البلاد العربية بدمشق. وهما حلقتان فى الجهود العظيمة التى تبذلها جامعة الدول العربية فى دراسة شؤون العرب الثقافية ، والتأليف بينها ، ليكون ذلك كله أكبر عون على حفظ تراث العرب وتوحيد كلمتهم ، حتى ينالوا المنزلة التى يستحقونها بين الأمم الحديثة .

وقد عقد مؤتمر الآثار فى مدينة دمشق ، وتفضل حضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية السورية فشمله برعايته ، وأعدت حكومته الرشيدة « قصر العظم » لأعمال المؤتمر وجلساته ، وهو بناء أثرى جميل ، يرجع إلى بداية القرن الثانى عشر الهجرى (١٨م) .

وافتتح المؤتمر فى ١٣ من سبتمبر سنة ١٩٤٧ فى حفل عظيم رأسه فخامة رئيس الجمهورية السورية ، يحف به الوزراء ، وتحدث فخامته عن وحدة العرب ، وجهود جامعة الدول العربية وأهدافها ، وعن آثار البلاد العربية ، ووجوب العمل على حفظها ودراستها . ثم ألقيت كلمة وزير المعارف السورية ، معالى الأمير عادل أرسلان ، بالنظر إلى تغيبه فى اجتماع هيئة الأمم المتحدة . وألقى الأستاذ أحمد أمين بك كلمة اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية ، فتحدث عن حضارة العرب ، ووازن بين غابرهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وأشار إلى نهضة البلاد العربية والوعى القومى فيها ، وعرض الوسائل

اللازمة لتوحيد كلمة العرب ، ولا سيما الوسائل الثقافية ، ومن أهمها التعاون فى حفظ الآثار وإخراجها ودراستها على أيدى أبناء البلاد العربية ، حتى لا يظلوا عالة على العلماء الأجانب الذين كان لهم فضل لا يجحد فى هذا الميدان .

وألقى بعد ذلك المندوبون الأول فى وفود الدول العربية كلمات تناسب المقام، فتكلم الأمير جعفر الحسنى عن سورية ، والسيد طه باقر عن العراق ، والسيد محمد شطا عن المملكة العربية السعودية ، والأمير موريس شهاب عن لبنان ، والدكتور زكى محمد حسن عن مصر ، والأستاذ أحمد فخرى عن اليمن . ثم انتهت حفلة الافتتاح ، وانصرف الأعضاء إلى أعمال المؤتمر ، فبدأوا بانتخاب أعضاء اللجان الثلاث ، وهى لجنة القوانين الأثرية ، ولجنة الثقافة الفنية ، ولجنة المصطلحات الفنية ، وانتخب لرياسة اللجنة الأولى الأمير جعفر الحسنى المندوب الأول فى وفد سورية ، ولرياسة اللجنة الثانية الدكتور زكى محمد حسن المندوب الأول فى وفد مصر ، ولرياسة اللجنة الثالثة السيد طه باقر المندوب الأول فى وفد العراق .

ومما يستحق الذكر ما أشار إليه الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام بك فى كلمته فى حفلة اختتام المؤتمر عن اجتماع مثل هذا العدد من رجال الآثار العرب ، وأنه يؤذن بانقضاء العهد الذى كانت علوم الآثار فيه وقفاً على الأجانب ، فقد كانت الوفود الرسمية لدول الجامعة تضم زهاء خمسة عشر عضواً من العرب الاختصاصيين فى علوم الآثار ، يعملون فى تدريس الآثار فى الجامعتين المصريتين، أو يضطلعون بالأعمال الفنية فى المتاحف ودوائر الآثار فى دول الجامعة العربية . أما سائر أعضاء المؤتمر فمن الاختصاصيين فى الآثار ، أو المعنيين بها من رجال التعليم ، أو أصحاب المجموعات الفنية .

وكانت أعمال المؤتمر تتشعب إلى ثلاثة وجوه : أولها أعمال اللجان ، والثانى البحوث والمحاضرات الأثرية التى ألقاها الأعضاء ، والثالث زيارة بعض المتاحف والمناطق الأثرية فى سورية .

أما لجان المؤتمر الثلاث التى أشرنا إليها فقد عقدت عدة اجتماعات عرضت فيها للموضوعات الفنية التى تعنى بها ، وانتهى كل منها إلى قرارات وتوصيات وافق عليها

أعضاء المؤتمر مجتمعين فى جلسته الختامية يوم السبت ٢٠ من سبتمبر سنة ١٩٤٧ ، وهذه هى التوصيات مع بعض التعقيب عليها :

١ — أن تعمل جامعة الدول العربية على تأليف هيئة من المؤسسات العلمية الأثرية فى الدول العربية لتقوم بأعمال التنقيب ، وأن تعمل الجامعة على أن تحصل على إذن جلالتى ملك اليمن وملك المملكة العربية السعودية بأن تبدأ هذه الهيئة عملها بدراسة الآثار فى هاتين المملكتين ، واقتراح ما يلزم للقيام بأعمال التنقيب فيهما نظراً لأهمية تاريخ اليمن والبلاد السعودية فى تاريخ الأمة العربية .

والحق أن تأليف هذه الهيئة هو الوسيلة المثلى لتعاون العرب فى كشف آثار شبه الجزيرة العربية تعاوناً يحقق النفع العلمى ، ويهيىء للعرب أن يسهموا فى علم الآثار بكشوف حديثة تنسب إليهم ، قد تغير كثيراً من النظريات القائمة الآن ، أو تميط اللثام عن حقائق علمية جديدة ، فضلا عن أنه يحد من أطماع الهيئات العلمية الأجنبية فى القيام بأعمال التنقيب عن الآثار فى هاتين المملكتين العربيتين .

وإذا وافقت الدول العربية — وفى مقدمتها المملكة العربية السعودية ومملكة اليمن — على هذا الاقتراح ، فطبيعى أن يترك تأليف هذه الهيئة إلى جامعة الدول العربية ودوائر الآثار فى البلاد العربية ، حتى تمثل فى أعضائها أنواع الاختصاص والأعمال الفنية الواجب تعاونها فى أعمال التنقيب الدقيق ، من اختصاصيين فى فروع علم الآثار وفى الجيولوجيا ، فضلا عن المصورين والمهندسين وغيرهم .

٢ — أن يدرس فن التنقيب فى المعاهد العليا للدراسات الأثرية فى دول الجامعة العربية .

ولا ريب فى أن الباعث على هذا الاقتراح رغبة أعضاء المؤتمر فى أن تهيىء الدول العربية جيلا من شباب العرب الاختصاصيين فى التنقيب عن الآثار ، بعد أن كان هذا العمل وقفاً على رجال البعثات الأجنبية ، وطبيعى أنا لا نريد أن نتصرف عن التعاون مع الهيئات العلمية أياً كانت ، ولكننا نريد تعاون الند للند ، ونريد أن يكون كشف الآثار فى البلاد العربية على يد اختصاصيين من العرب كلما استطعنا الى ذلك سبيلا . وقد

أصبح التنقيب علماً وفناً يجب أن يتلقاه علمياً وعملياً كل الذين يريدون أن يقوموا بحفائر تطمئن لنتائجها الدوائر العلمية المختلفة ، فلا بد من إضافته إلى المواد التى يتلقاها الطلبة فى معهد الآثار بجامعة فؤاد الأول ، وفى المدرسة العليا للثقافة الأثرية .

٣ — أن تبرز محاسن العائر الأثرية ، ويزال مايشوه وجهاتها من الأبنية الدخيلة عليها .

وقد دفع إلى هذا الاقتراح ما نراه فى كثير من العائر الإسلامية التى قامت فى مداخلها ، أو إلى جانبها ، أبنية حديثة معظمها ضئيل الشأن ، شوه معالم الآثار . أوجعل الخراب يمتد إليها ، بل إننا نرى أحياناً أن بعض الأفراد يتخذ العائر الأثرية سكناً له . ولعل أحدث مثال للنتائج الطيبة التى يمكن الحصول عليها من إزالة الأبنية الدخيلة ما قامت به السلطات المصرية المختلفة لإزالة ما كان يحجب أو يشوه السور الفاطمى بمدينة القاهرة ، بين باب النصر وباب الفتوح .

٤ — أن تؤلف الكتيبات عن العائر الأثرية ، وتدون البيانات التى توضحها عند مداخلها لتعريف الشعب بها وبميزاتها الفنية وقيمتها الأثرية .

٥ — أن توضع القوانين لحماية المواقع الأثرية ، بحيث لا يستطيع أى شخص أن يعتدى على جمال تلك المواقع بتشييد العائر الحديثة ، أو التى لا يتناسب طرازها مع المناطق الأثرية بوجه عام ، وبذلك يكون تشييد أى بناء ، أو شق أى طريق فى المناطق الأثرية ، خاضعاً لإدارات الآثار ، ولا يصرح به إلا بعد أن تدرسه وتأذن به السلطة المختصة فى الدوائر الأثرية .

ولا ريب أننا فى حاجة ماسة إلى مثل هذه القوانين ، لأن الاعتداء على المنظر العام أو على مجموعة الآثار فى أى منطقة أثرية ، أمر يجب ألا يسمح بحدوثه .

وحسبنا ما حدث فى القاهرة بعد شق شارع الأزهر الجديد ، وقيام طائفة من العائر الجديدة المختلفة الطراز على مقربة من الجامع الأزهر .

٦ — أن تعمل الجهات المختصة بالآثار ، فى مختلف الدول العربية ، على ألا تستعمل المبانى الأثرية الدينية فى غير الأغراض التى أنشئت من أجلها .

٧ — أن يراعى فى تنظيم المتاحف — بقدر الإمكان — أن تكون هناك أقسام خاصة تجمع فيها التحف اللازمة لدراسة الاختصاصيين ، وبذلك يفسح المجال لعرض سائر المعروضات عرضاً يحببها للزائرين ، ويبرز قيمتها ، ويسهل الإفادة من زيارتها .

والواقع أن الشعب معذور فى عدم الإقبال على معظم متاحفنا ، لأن فائدته من زيارتها ضئيلة ، وذلك لأن السياسة التى تتبعها هذه المتاحف فى عرض محتوياتها سياسة غير منظمة ، حتى أصبحت المتاحف مخازن تتكدس فيها الآثار ، فتتعب الزائر وتدفعه إلى أن يمر بها مسرعاً ، ولا تشجعه على أن يكرر زياراته . ولا عجب فاتنا يجب أن نفطن إلى الفائدة العظمى التى تجنيها دور الآثار من اختيار طائفة من التحف تجمع بين الجمال والقيمة الأثرية ، ثم العمل على إبرازها بعرضها عرضاً فنياً يجذب النظر وترتاح إليه النفس ، بدلا من تركها بين عشرات التحف الأخرى يزدحم بها المكان و « تقتل » كل منها التحف الأخرى — كما يقولون فى اللغات الأوربية — أما سائر التحف التى تضمها دور الآثار ، والتى لا شك فى قيمتها العلمية بوصفها وثائق طيبة للمشتغلين بالفنون والآثار ، فمن الخير أن توضع فى قسم مستقل بالمتحف ينصرف فيه الاختصاصيون إلى الدرس ، حتى لا يتحمل الزائر العادى عناء النظر إلى تماثيل مكسورة أو مشوهة ، أو إلى قطع من نسيج أو أجزاء من آنية لا يستطيع أن يدرك موطن الجمال فيها ولا الحكمة فى المحافظة عليها والاعتزاز بها ، وإذا عرضت مثل هذه التحف التى لا يبدو عظم شأنها أول وهلة فلا بد من أن يصحبها شرح واف يبين مواطن الجمال وعظم الشأن فيها .

٨ — أن تعنى السلطات بايجاد الأمكنة الفسيحة اللائقة بدور الآثار فيها . ولا ريب فى أن المتاحف لا تستطيع أن تؤدى رسالتها ، وأن تقوم بنصيبها فى تربية الشعب ، إلا إذا أتيح لها المكان اللازم لعرض كنوزها الفنية عرضاً يحقق الفائدة . وحسبنا أن دار الآثار العربية فى القاهرة تضم من التحف ما يلزم لعرضه مكان لا تقل قاعاته عن ثلاثة أضعاف القاعات الموجودة فى مكانها الحالى . وهو الطبقة الأرضية من البناء الذى تشغله دار الكتب المصرية . فلا عجب إذا ظلت دار الآثار العربية مخزناً ، وليس

هذا بمستغرب فى شىء ، فان قاعاتها ظلت هى زهاء أربعين عاما ، على حين أن معروضاتها زادت الى أكثر من عشرة أضعاف .

ومما يجدر تسجيله أن بعض المتاحف فى البلاد العربية — مثل لبنان وسورية — تنعم بدور تلائمها ، وتسمح بعرض محتوياتها عرضاً فنياً حديثاً .

٩ — أن تعمل الهيئات الفنية فى المتاحف على وضع دليل لكل متحف ، فضلا عن الشروح المعرفة بكل الآثار المعروضة لتمكن الزائرين من الإفادة من زيارتهم .

وطبيعى أن من خير الوسائل للتعريف بالتحف المعروضة أن ينشر كل متحف « دليلا » للزائرين تشرح فيه المعروضات . وحبذا لو اتبع فى تأليفه ترتيب الأرقام المسلسلة . فيجد الزائر وصف التحفة فى الرقم الموافق لرقمها فى الدليل . وذلك حتى لا تقل فائدة الدليل إذا أعيد تنظيم قاعات المتحف أو حدث أى تغيير فى نظام عرض التحف ، ولكن تأليف الدليل لا يعفى المتاحف من وضع لافتات صغيرة لشرح أكبر عدد من المعروضات .

١٠ — أن تعمل السلطات الأثرية على إنشاء متاحف محلية فى مختلف المدن . ويراعى فى ذلك أن تنقل إليها التحف المكررة فى المتاحف الرئيسية ، ولا سيما ما كان منها متعلقاً بتاريخ المنطقة التى يقوم فيها البلد ، أو ما كان مستخرجاً منه ، أو ما وجد فى عمائره الأثرية .

وإنشاء هذه المتاحف الإقليمية فيه تعميم لفائدة المتاحف ، وتربية للذوق الفنى ، وتثقيف للشعب فى الأقاليم ، فضلا عما يبثه من المنافسة المشكورة بين المدن المختلفة فى العناية بآثارها والفخر بماضيها .

١١ — أن تعنى دوائر الآثار والمتاحف بنشر المؤلفات السهلة المختصرة باللغة العربية لتثقيف الشعب ، وذلك إلى جانب المؤلفات العلمية الدقيقة الوافية التى تقوم باصدارها .

والواقع أن معظم ما كانت تخرجه دوائر الآثار فى الشرق العربى — ولاسيما مصر — حتى السنين الأخيرة إنما كان من المطبوعات العلمية التى أقبل الأجانب على تأليفها للاختصاصيين . ولكن واجبنا الآن أن نعنى بتثقيف مواطنينا ، وأن نقبل على إخراج

المطبوعات السهلة باللغة العربية لتبسط فيها مسائل الفنون والآثار وتحببها إلى طبقات الشعب ، حتى لا تظل وقفاً على نفر من الاختصاصيين . وقد سبقتنا الدول الغربية فى هذا الميدان . وحسبنا أن نذكر المطبوعات المختصرة التى يصدرها المتحف البريطانى ، ومتحف فكتوريا وألبرت ، ومتحف اللوفر ، ومتاحف الدولة فى برلين ، ومتحف المتروبوليتان فى نيويورك .

١٢ — أن تتبادل المطبوعات فى الآثار والصور ونماذج التحف والخرائط وغير ذلك من الأسانيد بين البلاد العربية .

١٣ — أن يتبادل الاختصاصيون فى الآثار بين دول الجامعة العربية فى فترات مختلفة ، وأن يزور الاختصاصيون فى كل دولة من هذه الدول مناطق الحفر والتنقيب عند الدول العربية الأخرى .

وطبيعى أن ذلك يشمل تبادل الأساتذة الزائرين لإلقاء محاضرات فى موضوعات اختصاصهم ، كما يشمل تبادل أمناء المتاحف ، يقيمون فى المتاحف الأخرى للاطلاع على الأساليب الفنية المتبعة فيها .

١٤ — أن تعمل سلطات الآثار فى بلاد الجامعة العربية على تبادل التحف التى يمكن الاستغناء عنها ، وذلك لإمكان تمثيل مختلف الطرز الفنية فى متاحف تلك الدول .

والحق أن هذه مسألة جديرة بالعناية ، لأن بعض متاحفنا غنى جداً بتحف مكررة تمثل طرازاً واحداً ، على حين أننا نراها فقيرة فى التحف التى تمثل بعض الطرز الفنية الأخرى . وكذلك تقوم بعض دوائر الآثار بحفائر ، فتزدحم مخازنها بالمستخرج من هذه الحفائر ، وتصبح غنية جداً بما يمثل حقبة من حقب الحضارة الإسلامية ، على حين تخلو متاحف الدول الأخرى من منتجات تلك الحفائر .

١٥ — أن تعمل دول الجامعة العربية على إنشاء متحف فى إحداها أو فى كل منها خاص بأزياء الدول العربية ومظاهر حضارتها فى العصور الحديثة .

ولا ريب فى أن لهذا فائدة جليلة فى تعريف الدول العربية بعضها ببعض .

١٦ — أن تتقدم الجامعة العربية إلى الدول العربية راجية أن تتخذ الوسائل اللازمة لعلاج الخطر الذى يهدد ترميم الآثار بانقراض العمال الاختصاصيين ، وأن تعمل كل دولة على الإفادة ممن يوجد منهم فى سائر الدول الأخرى . وحبذا لو أمكن أن تقدم كل دولة بياناً بأسماء المهرة من الاختصاصيين ونوع اختصاصهم .

١٧ — أن تعنى حكومات الدول العربية بنمو متاحفنا بمختلف الطرق ، كتوفير المال اللازم للتنقيب عن الآثار ، واقتناء التحف التى تظهر فى الأسواق ، ولا سيما ما كان منها متصلا بتاريخنا القومى وتراثنا الفنى .

ويجب أن نذكر فى هذه المناسبة أن العبء فى مد متاحفنا بالكنوز الفنية يقع كله على عاتق حكوماتنا العربية ، لندرة محبي الآثار الذين يقبلون على شراء التحف الثمينة لتقديمها لمتاحف بلادنا ، أو لتؤول إلى تلك المتاحف بعد وفاتهم ، على نحو ما يحدث كثيراً فى البلاد الغربية .

١٨ — أن تعنى حكومات الدول العربية بتدريس الآثار وربط دراسة التاريخ بدراسة الفنون والآثار .

ومما يجدر تسجيله فى هذا الشأن أن اللجنة التحضيرية للتاريخ فى المؤتمر الثقافى الأول (لبنان فى سبتمبر سنة ١٩٤٧) أشارت إلى أهمية الآثار فى دراسة التاريخ ، فنبهت إلى توجيه العناية إلى الحفائر الأثرية ، وإنشاء المتاحف الفنية والإقليمية ، والاستعانة بالفنون الجميلة لتوضيح التاريخ العربى (ص ٧٠ من تقرير المواد الاجتماعية) .

١٩ — أن تعمل حكومات دول الجامعة على المحافظة على الآثار العقارية والمنقولة محافظة تامة ، وعلى الأخص ما يوجد من الآثار المنقولة الثمينة فى مؤسسات الوقف الدينية ، وذلك بنقلها إلى المتاحف الأثرية ، أو إنشاء متاحف خاصة بها إذا اقتضى الأمر .

ولا ريب أن من السداد الإشارة إلى إنشاء المتاحف الخاصة ، فالمعروف أن كثيراً من الكنائس الأوروبية تضم تحفاً ثمينة من العصور الوسطى ، ولم تفلح الحكومات دائماً فى نقل هذه الكنوز الفنية ، إلى المتاحف الحكومية ، ولكنها نجحت فى تسجيلها وحفظها فى معارض خاصة فى الكنائس نفسها .

٢٠ — أن يكون لكل حكومة الحق فى أن تستملك (تنزع ملكية) جميع الآثار المنقولة وغير المنقولة ، سواء منها ما كان ملكا للأفراد أو ما كان ملكا لمؤسسات الوقف وغيرها .

ولعل بعض المشرعين يذهب إلى أن ما تشير إليه هذه المادة — ولا سيما بشأن الآثار المنقولة — فيه اعتداء على حق الملكية الذى تكفله الدساتير . والحق إنها مسألة لا تزال تحتاج إلى درس وتمحيص ، فاننا نرى فى قانون الآثار القديمة فى العراق (رقم ٥٩ لسنة ١٩٣٦) أن كل ما يوجد فى العراق من الآثار القديمة المنقولة وغير المنقولة ، سواء ما كان منها على سطح الأرض أو فى باطنها ، يعتبر من ثروة الدولة العامة ، فلا يجوز للأفراد أو الجماعات أن يتصرفوا بها ، أو يدعوا ملكيتها ، إلا ضمن القيود الموضوعة فى هذا القانون (مادة ٣) . وأن الآثار المنقولة التى تكون فى حيازة الأشخاص الحقيقية أو الحكمية عند صدور هذا القانون تبقى تحت حيازتهم على شرط أن يسجلوها لدى دائرة الآثار خلال ستة أشهر اعتباراً من تاريخ تنفيذ هذا القانون (مادة ١٦) ، وأن لدائرة الآثار أن تمتلك أيا كان من الآثار المنقولة المسجلة التى تكون تحت حيازة الأشخاص بالثمن الذى يتفق عليه الطرفان ، وإذا لم يتم التراضى فبالثمن الذى تقرره لجنة تحكيم . . . الخ (مادة ٢٠) . نقول بينما نرى ذلك فى قانون العراق نجد أن بعض الدول الأخرى لا تعطى الحكومة أى حق فى استملاك الآثار المنقولة ، وإنما تعلق إصدار تلك التحف إلى الخارج على موافقة مصلحة الآثار ، فيكون هدف الحكومة حفظ التحف فى الوطن ومنع تسربها إلى الخارج . فحبذا لو عنى المستشارون القانونيون لجامعة الدول العربية ببحث هذه المسألة .

٢١ — أن تتعاون دول الجامعة فيما بينها على أن تسترد كل دولة منها ما قد يتسرب من آثارها بصورة غير مشروعة إلى دولة أخرى من دول الجامعة . ويحسن أن يتم الاتفاق على مثل ذلك مع سائر الدول حفظاً للتراث القومى لدول الجامعة .

٢٢ — أن تعطى كل دولة من دول الجامعة حق الأولوية بالتنقيب للدولة التى تتفق معها على تبادل هذا الحق ، وتفضل دول الجامعة .

٢٣ — أن تضع كل دولة القيود اللازمة للحد من تجارة الآثار وقصرها على ما يوجد منها فى الأسواق الآن أو فى المجموعات الخاصة المسجلة . ويستثنى من ذلك الآثار التى يثبت الحصول عليها بطريقة مشروعة .

٢٤ — أن تعمل كل دولة على منع تزييف الآثار المنقولة أو تزويرها . ولا يعد تزييفاً تقليد الآثار لأغراض علمية أو فنية .

٢٥ — أن يوضع فى قانون كل دولة ما يبيح تبادل بعض الآثار المكررة أو إهداءها تسهيلا لتبادل الآثار بين المتاحف .

٢٦ — أن تعمل دول الجامعة على توحيد الشروط التى يجب أن تمنح بموجبها رخص التنقيب إلى الهيئات والمؤسسات العلمية ، وعلى تنفيذها كلها ، وعلى أن تندب الدائرة المختصة فى كل دولة من يمثلها من مواطنيها أو مواطنى دول الجامعة ليرافق البعثة التنفيذية.

٢٧ — أن تعمل كل دولة من دول الجامعة على تشديد العقوبات على كل مخالف لقانون الآثار فيها .

٢٨ — إقرار ما تم فى مشروع معجم الفنون والآثار الذى يعده فريق من المشتغلين بالآثار فى القاهرة ، وتأليف مكتب لنشر هذا المعجم من الدكتور زكى محمد حسن والأستاذ عباس بدر والأستاذ حسن عبد الوهاب ، وأن يعلن هذا لحضرات المشتغلين بالآثار والفنون فى البلاد العربية ، وأن يرجى من حضراتهم المساهمة فى هذا المشروع بجمع ما اهتدوا إليه من مصطلحات ، ونشرها فى إحدى المجلات العلمية ، ثم إرسال نسخة من هذه الأبحاث إلى مكتب المعجم بالقاهرة لبحثها . وإذا أقر المكتب أى اصطلاح من هذه المصطلحات المنشورة فانه يدخلها فى المعجم مذيلة باسم صاحبها ، وبذلك النشر الجزئى للمصطلحات قبل إرسالها إلى مكتب المعجم يتحقق غرضان : أولها حفظ حق التأليف لأصحابها ، وثانيهما عرض المصطلحات على جمهرة الاختصاصيين لدراستها . ويجوز أن يرسل من يريد من حضرات الباحثين ما يهتدى إليه من مصطلحات رأساً إلى مكتب المعجم بدون سبق نشره . وطبيعى أن يذيل باسمه ما يختار منها للنشر . ويرسل

مكتب المعجم إلى دوائر الآثار فى الدول العربية المختلفة بياناً بالمصطلحات التى يستقر رأيه على طبعها فى كل ملزمة تعد من المعجم للحصول على ملاحظاتها عن هذه المصطلحات قبل طبعها . ويرجى أن تكون الاصطلاحات المنشورة أو المرسلة إلى مكتب المعجم مصحوبة بالشروح والرسوم والمراجع اللازمة .

٢٩ — يرجو المؤتمر أن تشمل اللجنة الثقافية فى جامعة الدول العربية مشروع هذا المعجم برعايتها ، وأن تقوم على نشر هذا المعجم فى كراسات مسلسلة على غرار ما تم فى نشر سجل الكتابات العربية الذى يصدره الأساتذة كومب وسوفاجيه وفييت بمعونة سائر الاختصاصيين فى الآثار الإسلامية .

٣٠ — يرجو المؤتمر أن تعمل جامعة الدول العربية على عقد مؤتمرات أخرى للآثار ، وأن يعقد المؤتمر الثانى بالقاهرة فى شتاء سنة ١٩٤٨ .

* * *

وتشمل الناحية الأخرى من أعمال المؤتمر : المحاضرات والبحوث التى ألقيت فيه . ففى اليوم الأول تحدث الأستاذ عبد الهادى حمادة عن « القوانين الأثرية فى الشرق العربى » . والدكتور زكى محمد حسن عن « مستقبل الآثار والفنون فى الشرق العربى » . وفى اليوم الثانى تحدث الدكتور عبد المنعم أبو بكر عن « علاقة مصر بأمم الشرق الأدنى فى عصور فجر التاريخ » . والسيد طه باقر عن « العلاقات بين العراق القديم وبلدان الشرق الأدنى » ، والأستاذ أحمد فخرى عن « رحلة إلى مأرب » . والسيد فؤاد سفر عن « التنقيبات الأثرية فى العراق وأساليبها » . والدكتور محمد مصطفى عن « شرف الأبوانى صانع الفخار المطلى فى القرن الثامن الهجرى » . والأمير موريس شهاب عن « أثر الفينيقيين فى حضارة الشرق » . وفى اليوم الثالث تحدث السيد بشير يوسف فرنسيس عن « مظاهر الفن فى عواصم العراق الإسلامية القديمة على ضوء الاستكشافات الحديثة » . والأستاذ حسن عبد الوهاب عن « مميزات العمارة الإسلامية فى القاهرة » . وفى اليوم الرابع تحدث الأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق عن « طراز الإسكندرية » . وفى اليوم الخامس تحدث الدكتور سليم عادل عن « العلاقات بين الشرق الأدنى وبلاد

اليونان » ، وفى اليوم السادس تحدث السيد عبد العزيز عثمان عن « حفريات تل الحريرى أو مارى » .

وقدمت إلى سكرتيرية المؤتمر بحوث لتنشر فى الكتاب الذى سيطبع عن أعمال المؤتمر وأبحاثه بعد أن ضاق الوقت عن إلقائها ، وهى للأمير جعفر الحسنى والدكتور مأمون أبو النجا والأستاذ عبد السلام محمد والدكتور زكى محمد حسن .

وأعدت سكرتيرية المؤتمر معرضاً كبيراً للمؤلفات العربية التى ظهرت عن الآثار فى البلاد العربية والمؤلفات الأوربية التى ظهرت عنها فى سنوات الحرب الأخيرة .

كما أعد معرض آخر للوحات الفنية التى تمثل تطور العمارة الإسلامية فى مصر ، ولصور أحدث المقتنيات فى دار الآثار العربية ، ولصور الحفائر التى قامت بها مصلحة الآثار المصرية فى كوم الحصن بدلتا مصر . وأخرج الدكتور سليم عادل محافظ متحف دمشق مؤلفاً طيباً عن آثار سورية طبع فى مناسبة انعقاد مؤتمر الآثار وقدم إلى أعضائه .

وقام أعضاء المؤتمر بعدة رحلات لزيارة المتاحف والمعالم الأثرية ، فزاروا متحف دمشق ومتحف حلب وقلعتها وبعض مساجدها وعمائرها الأثرية ، كما زاروا المعرة وحماة وحمص وبعلبك .

وبعد اختتام أعمال المؤتمر قام فريق من أعضائه برحلة إلى فلسطين تلبية لدعوة دائرة الآثار فيها ، وأعدت لهم هذه الدائرة برنامجاً لزيارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وأقامت لهم فى المتحف حفلة استقبال شهدها أعضاء المجلس الإسلامى وقناصل الدول ورجال الآثار وأعضاء البعثات العلمية . وألقى مدير الآثار بحثاً عن نتائج حفائره الأخيرة فى المسجد الأقصى وخارجه ، كما تحدث الأستاذ برامكى عن حفائره فى « خربة المفجر » ، وزاروا هذه الحفائر فى اليوم التالى . ولبوا دعوة المجلس الإسلامى لحفلة شاى ، ودعى الأستاذ أحمد فخرى للتحدث عن رحلته فى اليمن ، فألقى محاضرة فى هذا الموضوع .

ولاريب فى أن هذا المؤتمر نجح نجاحاً باهراً ، وتعارف بفضله صفوة المشتغلين بالآثار فى الشرق العربى ، وتعاونوا فى الوصول إلى مقترحات سوف يكون لها أثر كبير فى حفظ التراث الفنى العربى ، وفى تحقيق التعاون الذى تهدف إليه جامعة الدول العربية .

تقـــرير

حضرة صاحب العزة محمد شفيق غربال بك

مقرر مؤتمر الآثار فى اللجنـــة الثقافية لجامعة الدول العربية

تقرير عن أعمال مؤتمر الآثار بدمشق

حضرة صاحب المعالى رئيس اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية

تنفيذاً لقرار اللجنة فى جلسة الأربعاء أول أكتوبر ١٩٤٧ أتشرف بأن أرفع لمعاليكم تقريرى عن أعمال المؤتمر الأول العربى للآثار الذى عقد فى دمشق من ١٣ إلى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٤٧ راجياً الأمر بعرضه على اللجنة .

والقرارات التى اتخذها المؤتمر كانت نتيجة دراسة ثلاث لجان هى :

١ — لجنة القوانين الأثرية فى البلاد العربية .

٢ — لجنة المصطلحات (أى المصطلحات التى يستعملها الأثريون) .

٣ — لجنة الثقافة الأثرية .

١ — القرارات المتعلقة بالقوانين الأثرية

عدد هذه القرارات تسعة . وهى عبارة فى الواقع عن مبادئ يوصى المؤتمر الدول العربية باتخاذها أساساً للتشريع المتعلق بالآثار لتقوية حماية الآثار ولتنظيم أعمال الحفر والتنقيب ، ويتصل بهذه القرارات قرارات أخرى اتخذها المؤتمر فى موضع آخر فى موضوع نشر الثقافة الأثرية ، كحماية العمائر الأثرية والمواقع القديمة من التشويه أو مما يخفى محاسنها أو من نتائج استخدامها فى أغراض تسبب لها أضراراً .

ولست بحاجة إلى بيان فوائد وضع قانون عام عربى للآثار ، إذ أن التراث الأثرى فى البلاد العربية واحد متشابه ، والمشكلات والمسائل التى تواجهها البلاد العربية واحدة . ومما ييسر عمل اللجنة أن بعض البلاد العربية قد قطع مرحلة لا بأس بها

فى تعديل قوانين الآثار طبقا للتقدم العلمى الحديث واستجابة لانبثاق الروح القومى . فقد نص فى القوانين العراقية على ما علمت على وجوب تسجيل ما بأيدى الأفراد مما يدخل فى تعريف الأثر ، وفى مصر يعمل المختصون من رجال القانون فى مراجعة قوانين الآثار وتعديلها . وهذا كله مما يمكن أن تستفيد منه اللجنة القانونية . وبطبيعة الحال ستستعين اللجنة بالمختصين من رجال الآثار .

٢ — القرارات المتعلقة بالمصطلحات

أحيط المؤتمر علما بأن جماعة من الأثريين المصريين بدأت من زمن بوضع معجم عربى للمصطلحات التى يستعملها الأثريون . وقد أقر المؤتمر الجماعة على ما عملته ، وقرر تأليف مكتب فى القاهرة من الدكتور زكى محمد حسن والأستاذ عباس بدر والأستاذ حسن عبد الوهاب يكون على اتصال مستمر بالأثريين العرب لتأليف هذا المعجم على النحو العلمى .

ويرجو المؤتمر أن تشمل اللجنة الثقافية هذا المشروع برعايتها ، وأن تقوم على نشر المعجم فى كراسات متسلسلة .

وقد ناقشت الدكتور زكى محمد حسن فى المشروع ، وأقترح على الهيئة إقراره والموافقة على وضع مبلغ ٤٠٠ جنيه فى ميزانية الإدارة الثقافية للسنة المقبلة لمواجهة تكاليف تلك السنة . وهذا المبلغ هو الذى يقترحه الدكتور زكى محمد حسن ، ولم يرد ذكره فى القرار .

٣ — القرارات المتعلقة بالثقافة الأثرية

هذه القرارت متنوعة :

منها (أولا) ما يدخل فى نطاق تعديل أو تقوية القوانين ، وقد أشرت إلى ذلك .

ومنها (ثانياً) ما هو ترديد أو تفصيل للوارد فى مشروع المعاهدة الثقافية بين الدول العربية (تبادل المطبوعات والنماذج والتحف والأثريين وهكذا) .

و (ثالثاً) ما ينبغى على كل بلد عربى أن يتخذه لنشر الثقافة الأثرية ، كتأليف الرسائل المبسطة وتعديل عرض التحف بالمتاحف وإنشاء المتاحف الصغيرة فى غير العواصم الكبرى وهكذا .

و (رابعاً) التنبيه إلى زيادة الاعتمادات المخصصة لأعمال الحفر والصيانة وتوسيع المتاحف القائمة ، وإلى ضرورة المحافظة على العمال المهرة من النجارين ومن إليهم .

و (خامساً) دراسة فن التنقيب وما يتصل به فى معاهد الآثار .

وتوصيات المؤتمر فى هذا الشأن أقترح إحالتها على السلطات الحكومية المختلفة ، فهى من شأنها ، مع التوصية اللازمة .

وأود أن أوجه اللجنة لقرار اتخذه المؤتمر فى موضوع الثقافة الأثرية وذلك لأهميته ونص القرار :

« أن تعمل جامعة الدول العربية على تأليف هيئة من المؤسسات العلمية الأثرية فى الدول العربية المختلفة لتقوم بأعمال التنقيب ، وأن تعمل الجامعة على أن تحصل على إذن حكومتى صاحبي الجلالة ملك اليمن وملك المملكة العربية السعودية بأن تبدأ هذه الهيئة عملها بدراسة الآثار فى هاتين المملكتين واقتراح مايلزم للقيام بأعمال التنقيب فيهما نظراً لمكانة تاريخ اليمن والبلاد السعودية فى تاريخ الأمة العربية » .

وهو اقتراح يعود على العلم وعلى الأمة العربية بفوائد محققة ، وأرى أن يبدأ أولا بالحصول على إذن الحكومتين المذكورتين ، فاذا تم هذا قام المكتب بدرس تفصيلى لإنشاء الهيئة المشار إليها .

توصية مجلس الجامعة العربية

في الجلسة العاشرة المنعقدة بتاريخ ٢٢ من أغسطس ١٩٤٨

من دورته العادية السابعة

حول قرارات مؤتمر آثار البلاد العربية

" توصى الحكومات العربية بأن تضع قرارات المؤتمر الأول للآثار موضع العناية والاعتبار ، وأن تتخذ الوسائل الممكنة لتنفيذها " .

الفهرس

صحيفة

تصدير بقلم حضرة صاحب العزة الدكتور أحمد أمين بك ٥
رياسة الجلسات ، المكتب الفنى للمؤتمر اللجنة الإدارية ، السورية . . . ٢
مندوبو الدول ٣
مندوبو الهيئات العلمية ، الأعضاء ٥
التمهيد لعقد المؤتمر ٧
مؤتمر الاثار فى البلاد العربية ، غايته ووسائله ٩
تقرير للجنة الثقافية بالجامعة العربية فى توثيق الروابط بين الدول العربية
من الناحية الأثرية ١١
برنامج المؤتمر ٢١
برنامج زيارة أعضاء المؤتمر لمدينة القدس ٢٨
حفلة الافتتاح ٣١
خطبة فخامة رئيس الجمهورية السورية ٣٣
كلمة صاحب المعالى وزير المعارف السورية ٣٥
كلمة الأمير جعفر الحسنى المندوب الأول فى وفد سورية ٣٧
كلمة السيد طه باقر المندوب الأول في وفد العراق ٤٢
كلمة السيد محمد احمد شطا باسم وفد المملكة العربية السعودية ٤٤
كلمة الأمير موريس شهاب مندوب لبنان ٤٦
كلمة الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن المندوب الأول فى وفد مصر . . . ٤٨
كلمة الدكتور أحمد فخرى مندوب اليمن ٥٠

صحيفة

لجان المؤتمر ٥١
لجنة الثقافة الأثرية ٥٣
لجنة القوانين الأثرية ٥٣
لجنة المصطلحات الفنية. ٥٤
البحوث والمحاضرات ٥٥
مظاهر الحضارة الاسلامية فى دمشق وحلب للأمير جعفر الحسنى . . . ٥٧
العلاقات بين الشرق الأدنى وبلاد اليونان منذ فجر التاريخ حتى العهد الهلنستى للدكتور سليم عادل عبد الحق ٦٨
حفريات تل حريرى (مارى) للأستاذ عبد العزيز عثمان ٧٩
العلاقات بين العراق القديم وبلدان الشرق الأدنى للأستاذ طه باقر . . . ٩٦
المظاهر الفنيـة فى عواصم العراق الاسلامية على ضوء الاستكشافات الحديثة للسيد بشير يوسف فرنسيس ١١٦
التنقيبات الأثرية فى العراق للسيد فؤاد سفر ١٢٩
القوانين الأثرية فى بلاد الشرق العربى للأستاذ عبد الهادى حماده . . . ١٤٠
علاقة مصر بشعوب الشرق القديم فى عصور فجر التاريخ للدكتور عبد المنعم يوسف أبو بكر ١٥٠
شرف الابوانى صانع الفخار المطلى فى القرن الثامن الهجري للدكتور محمد مصطفى . ١٥٩
طراز الاسكندرية للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق ١٦٥
مميزات العمارة الاسلامية فى القاهرة للأستاذ حسن عبد الوهاب ١٧٦
رحلة الى مأرب للدكتور احمد فخرى ١٩٢
تاريخ البرج الجنائزى فى تدمر للأستاذ ارنست ويل ٢٠٥
مكتشفات جديدة فى تدمر للأستاذ جان ستاركى ٢٠٧
معرض الكتب ، معرض الصور ٢٠٩
مقررات المؤتمر ٢١١
لجنة الثقافة الأثرية ٢١٣
لجنة القوانين الأثرية فى البلاد العربية ٢١٦
لجنة المصطلحات ٢١٧

صحيفة

الحفلة الختامية ٢٢١
كلمة حضرة صاحب العزة الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام بك عن الجامعة العربية . ٢٢٣
كلمة السيد طه باقر المندوب الأول فى وفد العراق ٢٢٤
كلمة السيد محمد شطا مندوب المملكة العربية السعودية ٢٢٦
كلمة واصف البارودى بك مندوب لبنان ٢٢٧
كلمة الاستاذ الدكتور زكى محمد حسن المندوب الأول فى وفد مصر . . . ٢٢٩
كلمة الاستاذ أحمد شخرى مندوب اليمن ٢٣٠
كلمة الأمير جعفر الحسنى المندوب الاول فى وفد سورية ٢٣٢
كلمة معالى وزير المعارف السورية ٢٣٤
تقرير الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن السكرتير العام للمؤتمر . . . ٢٣٧
تقرير حضرة صاحب العزة محمد شفيق غربال بك وكيل وزارة المعارف المصرية
ومقرر مؤتمر الآثار فى اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية . . . ٢٥١
قرار مجلس جامعة الدول العربية ٢٥٦

(طبعة جامعة الدول العربية ٥٨-١٩٤٨-١٠٠٠)

تم طبع هذا المؤتمر فى عهد حضرة صاحب الجلالة
الملك "فاروق الأوّل" بمطبعة جامعة فؤاد الأول
فى ٢٠ صفر سنة ١٣٦٨

محمد زكى خليل
سكرتير مطبعة جامعة فؤاد الأول

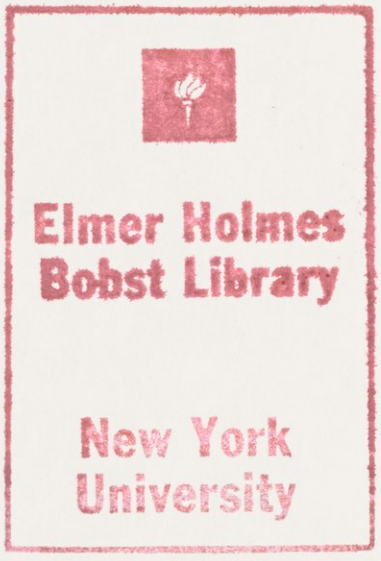
Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University

NYU - BOBST
31142 00798 8614
DS56 .M86 1947
Mu'tamar al-athar fi